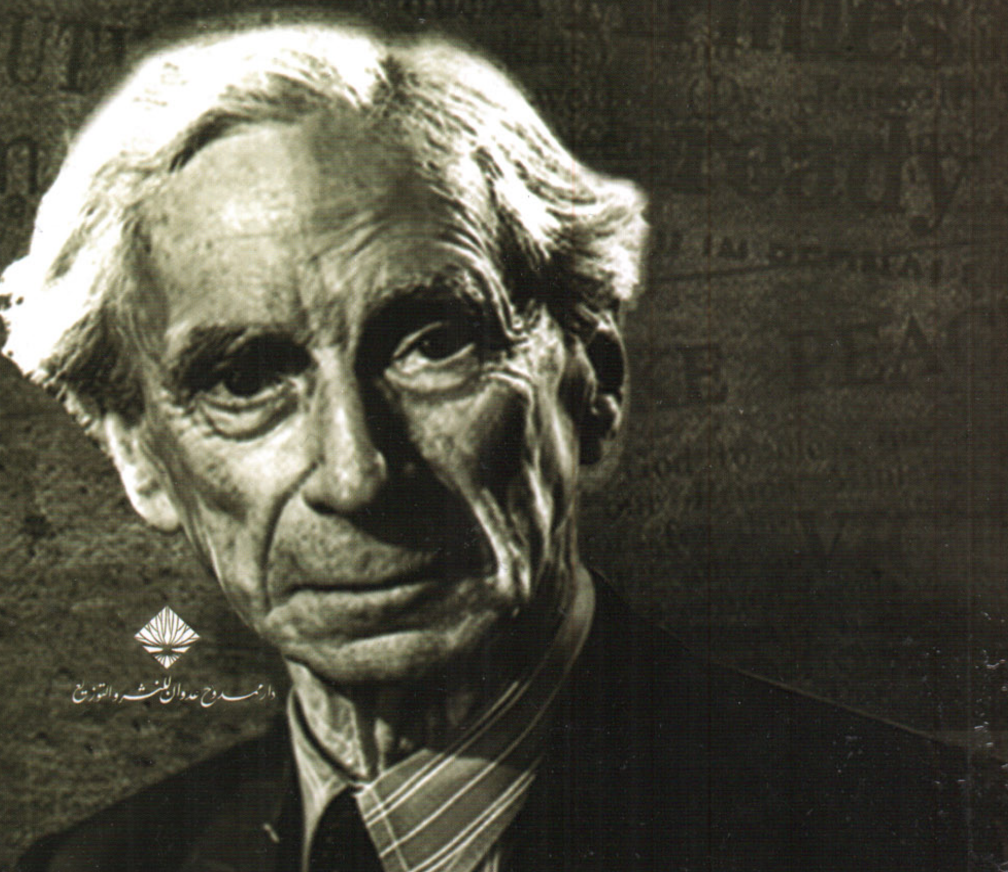
برتراند راسل

ما الذي أؤمن به

مقالات في الحرية والدين والعقلانية

ترجمة: د. عدي الزعبي



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ما الذي أؤمن به،

مقالات في الحرية والدين والعقلانية

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ما الذي أؤمن به، مقالات في الحرية والدين والعقلانية **What I Believe**

تأليف: برتراند راسل by: Bertrand Russell

ترجمة: د. عدي الزعبي

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: كرم الشمالي

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 02 - 9

الطبعة الأولى: 2015

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: /9838/

هاتف-فاكس: /6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com/AdwanPH fb.com/Adwan.Publishing.House

برتراند راسل

ما الذي أؤمن به،
مقالات في الحرية والدين والعقلانية

ترجمة: د. عدي الزعبي

«إلى أبي،

صديقي العقلاني الأول،

والمعلم الذي أرشدني، مبكراً، إلى دعامتي الحياة الجيدة بحسب برتراند راسل: المعرفة والمحبة».

عدي

المحتويات

القسم الرابع

مقدمة المترجم

في العالم الناطق بالإنكليزية، يتمتع الفيلسوف الإنكليزي برتراند راسل بمكانة فريدة لا يضاهيه فيها أحد، باستثناء ديفيد هيوم ربما. أثَّر راسل في كامل التراث الفلسفي الذي أطلق عليه اسم «التيار التحليلي»، الذي ساد في إنكلترا وأمريكا، مقابل الفلسفة التي سميت بفلسفة القارة التي سيطرت على أوروبا. هذا التقسيم لمفهومين مختلفين في الفلسفة بدأ مع بدايات القرن العشرين وما زال سائداً حتى اليوم.

كان لراسل تأثير هائل في معظم مدارس التيار التحليلي، من الوضعية المنطقية إلى العقلانية النقدية لكارل بوبر، إلى فكر نعوم تشومسكي الفلسفي والسياسي، وانتهاءً بالتيارات الفوضوية اليسارية. كتب في المنطق والرياضيات وتاريخ الفلسفة وعلم اللغة والميتافيزيقيا وعلم العقل والأخلاق والسياسة وتاريخ العلم وغيرها.

سُجن لمعارضته دخول بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، كما سُجن مرة أخرى في الستينيات لمعارضته البرنامج النووي البريطاني. قاد إحدى

أكبر حملات معارضة حرب فيتنام، وهي الحملة التي انخرط فيها جان بول سارتر وتشومسكي الشاب من بعده. انتقد الاتحاد السوفييتي واستعباده للبشر، ورفض اشتراكية الدولة التي مورست هناك، داعياً إلى اشتراكية تحررية. طُرد من عمله في الجامعات الأمريكية بسبب آرائه المتحررة في الزواج والجنس والمثلية الجنسية. كان عمله الأخير المنشور رسالة إلى مؤتمر في القاهرة عام 1970 حول حق الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم المحتلة عام 1948.

تُرجمت معظم أعمال راسل إلى العربية، ولكن بقيت بعض أشهر مقالاته وأكثرها تأثيراً وقراءة غير متوفرة باللغة العربية. نجمع بعض من هذه المقالات هنا في هذا الكتاب. تأتي هذه المجموعة المختارة من المقالات لتملأ هذا الفراغ، من جهة، ومن جهة أخرى، تساعدنا هذه الأعمال في الوصول إلى إجابات على أسئلة محورية نواجهها اليوم.

كافة المقالات المترجمة هنا مقالات شعبية مكتوبة لغير المختصين، ولكن لا ينتقص هذا من قيمتها الفكرية. كان راسل ملتزماً طيلة حياته بالعمل على تغيير العالم الذي يعيش فيه، وعلى مخاطبة الجمهور بأسلوب عقلاني واضح. هذه إحدى الفضائل الفكرية للفلسفة: الشرح والتوضيح والتبسيط، وفتح المجال للجميع كي يشاركوا في عملية تغيير العالم.

سأعرض سريعاً لفكر راسل في ثلاثة محاور رئيسة، أرى أنها الأكثر إلحاحاً في عالمنا اليوم، وتحديداً في عالمنا العربي.

أولاً: الحرية

كان راسل وريثاً لليبرالية جده الروحي وصديق والده، جون ستيوارت مل. دافع طيلة حياته عن حرية التعبير في وجه العقائد الدينية والقومية المتشددة.

كانت معركة راسل دفاعاً عن حرية التعبير بغض النظر عن القوة القامعة. هذا المبدأ الأساسي كان أحد محاور تفكيره في السياسة والأخلاق. كما سنرى في المقالات المترجمة هنا، «الحرية والجامعات» و«التفكير الحر والبروباغندا الرسمية»، هاجم راسل شيوعية الاتحاد السوفييتي ورأسمالية الولايات المتحدة، لأن كليهما تقمعان حرية التعبير. راسل، اليساري الفوضوي، رفض القمع الممارس في روسيا منذ بداية حكم البلاشفة، ورفض تبرير هذا الكم الهائل من الإذلال باسم الاشتراكية؛ كما رفض، وهو الليبرالي، قمع الأصوات اليسارية والشيوعية في أمريكا، باسم حرية تتم خيانتها يومياً.

كان راسل يخشى أن تُقمع الحريات الفردية باسم الديمقراطية. أصرَّ راسل، متبعاً مل وتوكفيل وغيرهم، أن حرية الفرد مقدسة. لم ير راسل في انتشار القوميات والحكمة الجمعية السبيل لتحقيق الحرية. لذا كان معارضاً لحملات التخوين التي تتم باسم روابط جمعية مختلفة، من الدين إلى القومية إلى الاشتراكية.

ثانياً: الدين

انتقد راسل قمع البلاشفة للمؤمنين، كما انتقد قمع المتدينين

للملحدين. موقفه من الدين ينبع من التزام مبدئي بحرية التعبير والإيمان، كما شرحنا أعلاه.

أما موقفه الشخصي من الدين فيتوزّع على نقطتين: قراءة عقلانية للدين، وقراءة للنتائج العملية للإيمان الديني. القراءة العقلانية تجعل راسل يصر على اللاأدرية فيما يتعلق بوجود الله أو الآلهة بالمجمل. الإلحاد، كالإيمان، مواقف لاعقلانية ولا تستند إلى دليل. فيما يتعلق بالنقطة الثانية، أي النتائج العملية للإيمان الديني، يرى راسل أن الدين كان، وما زال، عقبة في وجه التقدم الأخلاقي والفكري للبشرية.

موقف راسل من الدين مركَّب إذاً.

أولاً، يدافع راسل بشدة عن حق الجميع، من ملحدين ومؤمنين، في التعبير عن آرائهم، ويرفض كل أشكال قمع حرية التعبير.

ثانياً، موقفه الشخصي من الدين أنه إيمان لا عقلاني؛ ولكنه ليس بملحد، طالما أن الإلحاد كالإيمان لا يستند إلى أي دليل عقلاني.

ثالثاً، الدين بشكله الدوغمائي المنتشر يحول دون نشر الأخلاق والفضيلة والعقلانية بين البشر.

ثالثاً، العقلانية والفلسفة

دافع راسل عن العقلانية طيلة حياته، ورفض الإيمان بأية قضية أو رأي لا تدعمها الأدلة بشكل عقلاني واضح[1]. من جهة أخرى، متبعاً

---

1 من هنا، يستخدم راسل كلمة دوغما كثيراً في نصوصه، و التي تعني مجموع التعاليم التي يؤمن بها الناس دون أدلة عقلانية.

هيوم بشكل رئيس، يرى راسل أن للعقل حدوداً، وأن الموقف العقلاني أيضاً يقتضي بأن نسلّم بأن فهمنا للعالم محدود بحدود العقل.

رفض راسل، وبشدة، التيارات اللاعقلانية التي انتشرت في القرن العشرين، والتي دعت إلى التخلي عن العقل والتسليم بالخرافات، تحت ذرائع مختلفة، منها نجاحات علم النفس الفرويدي والحربين العالميتين وانتشار البراغماتية والنسبوية ودعاة الحقائق النسبية المحلية.

في المقابل، تيارات لاعقلانية، كفلسفة نيتشه، عادت المسيحية ودعت إلى أخلاق القسوة والوحشية؛ وقد استخدم النازيون نيتشه بنجاح باهر كما نعلم. التيارات التاريخانية، التي تدعي أنها تثبت أن الدين بأكمله خاطئ، وينتمي إلى مرحلة تاريخية مختلفة متخلِّفة، كفلسفة ماركس وأتباعه وغيره من التاريخانيين، أدت إلى فرض الإلحاد، ورفض التسامح، طالما أنها تملك الحقيقة. موقف راسل العقلاني الليبرالي المنفتح، هو في العمق موقف متسامح قائم على قبول الآخر واحترام رأيه. نتمنى من القارئ أن يفكر ملياً في هذه المواقف الثلاثة، وفي مآلاتها في الفلسفة الغربية والتاريخ الغربي، وفي انعكاساتها على ثقافتنا.

في الظروف الاستثنائية التي نعيشها اليوم، نحن بأمسِّ الحاجة إلى فكر يلهمنا في معاركنا مع الفاشيات. دفاع راسل الواضح عن حرية التعبير للجميع، ونقاشه العقلاني للدين، وعقلانيته الفلسفية، ستتيح لنا أن نتفكّر بظروفنا، وأن نسعى إلى غرس قيم العقلانية والتحرر والتسامح، مهما اشتدت الظلمات.

تتوزّع المقالات في هذا الكتاب على أربعة أقسام، تتداخل وتتقاطع بشكل كبير.

القسم الأول يحتوي على كتيّب راسل الصغير «ما الذي أؤمن به؟»، والذي يشرح فيه رؤيته الفلسفية للأخلاق والإنسان والطبيعة بطريقة مبسّطة وأخّاذة.

القسم الثاني مخصص لمقالات الدين، ويحتوي على ست مقالات: «لماذا لست مسيحياً؟»، «هل قدّم الدين مساهمات مفيدة للحضارة؟»، «من هو اللاأدري؟»، «هل ننجو من الموت؟»، «إيمان العقلاني»، والمقال الأدبي «عبادة الإنسان الحر».

القسم الثالث مخصص لقضايا الحرية، يحتوي على مقالين اثنين: «التفكير الحر والبروباغندا الرسمية»، «الحرية والجامعات».

القسم الرابع والأخير يضم مقالين ساخرين لراسل، «الناس الطيبون» و«كيف تصبح عبقرياً؟».

حصل برتراند راسل على جائزة نوبل للآداب عام 1950، تقديراً لجهوده في تعميم الفلسفة ودوره السياسي والأخلاقي في الدفاع عن الحريات ونثره المميز الساحر. يضم هذا الكتاب بعض أكثر مقالاته مبيعاً وقراءةً في العالم الناطق بالإنكليزية، مثل «ما الذي أؤمن به» و«لماذا لست مسيحياً» و«عبادة الإنسان الحر». أتمنى أن أكون قد وفّقت في نقل أسلوب راسل الرشيق والمحبب إلى العربية.

سأترك القارئ الآن مع هذه الأعمال، متمنياً له الاستمتاع بالنثر الفني، وبالفكر الحر. آمل أن تحرّض هذه المقالات القرّاء على التفكير

بعقلانية فيما يعترضنا من صعوبات، وأن تزرع روح التسامح في القلوب.

يختصر راسل رؤيته للحياة الجيدة في عبارة صغيرة، نأمل أن يستذكرها القارئ طويلاً بعد قراءة الكتاب:

«الحياة الجيدة هي تلك التي يلهمها الحب وتقودها المعرفة».

ما الذي أؤمن به؟

ما الذي أؤمن به طبع ككتاب صغير عام 1925. أثناء محاكمة راسل في نيويورك سنة 1940 كان أحد الكتب التي قدمها الادعاء كدليل على أنه لا يصلح للتعليم الجامعي.

الطبيعة والإنسان

الإنسان جزء من الطبيعة، وليس شيئاً مناقضاً لها. أفكاره وحركاته الجسدية تخضع لنفس القوانين التي تصف حركات النجوم والذرات. العالم الفيزيائي ضخم مقارنةً بالإنسان، أضخم مما كان يعتقد أيام دانتي ولكنه ليس ضخماً إلى الدرجة التي بدا عليها قبل مئة عام. صعوداً ونزولاً، في الاتساع وفي الصغر، يبدو أن للعلم حدوداً يقف عندها. يُعتقد أن للعالم حدوداً نهائية في الفضاء، وأن الضوء يستطيع أن ينتقل فيه خلال مئات الملايين من السنين. يُعتقد أن المادة تتكون من البروتونات والإلكترونات، التي لها حجم محدد وكمية محددة في هذا العالم. تغيراتها

ليست مستمرة غالباً، كما كان يعتقد، وتنشأ عن الاهتزازات، اهتزازاتٍ لها حد أدنى. يمكن تلخيص قوانين هذه التغيرات بوضوح من خلال بعض المبادئ العامة، والتي يمكن أن تحدد ماضي ومستقبل هذا العالم إذا عُرِفَ أي جزء صغير من تاريخه.

علم الفيزياء يقترب من مرحلة الكمال، وبالتالي سيصبح غير مثير. إذا أُعطينا القوانين التي تحكم حركات البروتونات والإلكترونات، لن يتبقى سوى عمل جغرافي، مجموعة من الوقائع الخاصة تخبرنا بتوزعهم في فترةٍ ما من تاريخ العالم. إن العدد الكامل لوقائع الجغرافية المطلوب لتحديد تاريخ العالم هو على الأغلب محدود، نظرياً من الممكن كتابة كل تلك الوقائع في كتاب كبير يُحفظ في سومرست هاوس مع آلة حاسبة متصلة به، وبإدارة المقبض نستطيع أن نعرف الوقائع في أية فترة زمنية أخرى. من الصعوبة بمكان أن نتخيّل أي شيءٍ أقل تشويقاً من ذلك أو أكثر اختلافاً عن المتعة المشبوبة لاكتشاف الحقائق. يشبه ذلك تسلق جبل شاهق لا نجد على قمته شيئاً سوى مطعماً يقدّم البيرة، محاطاً بالضباب لكنه مزود بخدمة الاتصال اللاسلكي. ربما في أيام «أحمس» كان جدول الضرب شيئاً مثيراً.

الإنسان جزء من هذا العالم الفيزيائي، غير المثير بحد ذاته. جسد الإنسان، كأية مادة أخرى، يتكون من بروتونات وإلكترونات، وكما نعلم إلى حدّ الآن، يخضع لنفس القوانين التي تخضع لها النباتات والحيوانات. لا يزال البعض يؤكد أنه من المستحيل إرجاع الفيزيولوجيا إلى الفيزياء، ولكن حجتهم ليست مقنعة تماماً ويبدو أنه من الحصافة الافتراض بأنهم

مخطئين. يبدو أن ما نسميه «أفكارنا» تعتمد على سبل تسلكها في الدماغ بنفس الطريقة التي تعتمد بها الرحلات على سبل تسلكها على الطرقات وسكك الحديد. ويبدو أن الطاقة المستخدمة في التفكير لها أصل كيمائي. على سبيل المثال، نقص اليود سوف يحوّل رجلاً ذكياً إلى أحمق. يبدو أن الظواهر العقلية مرتبطة بالتركيب المادي.

إذا كان الأمر كذلك، فلا أستطيع الافتراض أن البروتون أو الإلكترون المفرد يستطيع «التفكير»، كما أننا لا نفترض أنه يستطيع ممارسة كرة القدم. أيضاً لا نستطيع الافتراض أن تفكير الفرد سيبقى بعد موت جسده، بما أن ذلك يدمر تنظيم الدماغ ويبدد الطاقة التي تستخدمها السبل الدماغية.

الله والخلود، العقائد الأساسية في الدين المسيحي، لا تجدان أي دعم من العلم. لا يمكن القول أن أياً منهما جوهري للدين، بما أن كليهما غير موجود في البوذية. (فيما يتعلق بالخلود، الحكم المطلق قد يكون مضللاً، لكنه صحيح في التحليل النهائي). ولكننا في الغرب نعتقد أنهما العنصران الأساسيان في اللاهوت. بلا شك سوف يستمر الناس بالإيمان بهما، لأنهما يبعثان السرور، كما يبعث السرور الاعتقاد بأننا أخيار وأن أعداءنا أشرار. ولكن بالنسبة إليَّ لا أجد سنداً لأي منهما. أنا لا أدعي أنني قادر على إثبات أن الله غير موجود. وبنفس الوقت أنا لا أستطيع أن أثبت أن الشيطان وهم. قد يكون إله المسيحية موجوداً، وكذلك آلهة الأولمب، أو مصر القديمة، أو بابل. ولكن ليست إحدى هذه الفرضيات أكثر احتمالاً من الأخرى: توجد جميعها خارج سلطان المعرفة الممكنة، ولذلك لا

يوجد أي سبب لنأخذ أياً منها على محمل الجد. لن أجادل مطولاً في هذا الأمر، لأنني قد بحثت فيه في مكانٍ آخر[2].

يعتمد السؤال حول الخلود الفردي على أرضية مختلفة نوعاً ما. هنالك احتمال أن نجد هنا برهاناً سلبياً أو إيجابياً. الأفراد جزء من العالم اليومي الذي يهتم به العلم، والشروط التي تقرر وجودهم ممكنٌ اكتشافها. قطرة الماء ليست خالدة، فنحن نستطيع تفكيكها إلى أوكسجين وهيدروجين. لذلك، إذا ادّعت قطرة الماء أن لها خاصية مائية سوف تبقى بعد تفككها لكنّا مجبرين على الشك في هذا الادعاء. بأسلوب مماثل نعرف أن الدماغ ليس خالداً، وأن الطاقة العضوية للجسم الحي تنتهي مع الموت وتصبح غير فعّالة. كل الأدلة تشير إلى أن ما نعتبره حياتنا العقلية مرتبط بالبنية الدماغية وبالطاقة الجسدية العضوية. لذلك من المنطقي أن نفترض أن الحياة العقلية تتلاشى عندما تتلاشى الحياة الجسدية. البرهان احتمالي فقط، ولكنه بقوة تلك البراهين التي تعتمد عليها النتائج العلمية.

هنالك العديد من النقاط التي يمكن الاعتراض عليها في هذه النتيجة. تؤكد الدراسات النفسية وجود أدلة عملية فعلية على البقاء، وبدون شك فإن نهجها، من حيث المبدأ، صحيح علمياً. ربما تكون الأدلة من هذا النوع قوية بشكل لا يسمح لأي شخص ذي ميل علمي برفضها. القيمة التي يجب إعطاؤها لهذا الدليل تعتمد على الاحتمالية السابقة لفرضيات البقاء. يوجد عدة طرق مختلفة لتفسير مجموعة من الظواهر، ويجب الاختيار، لدعم هذا الدليل، من هذه الطرق تلك

2- انظر كتابي «فلسفة ليبنتز» الفصل الخامس عشر.

التي هي مسبقاً أقل احتمالاً. فأولئك الذين يرون أننا نبقى بعد الموت سوف يكونون جاهزين لتبني هذه النظرية كي تفسر الظواهر النفسية. أما أولئك الذين، وعلى أسس مختلفة، يرون أن هذه النظرية غير معقولة سوف يبحثون عن تفسيراتٍ أخرى. بالنسبة إليَّ، أعتقد أن الدليل المقدّم من خلال الأبحاث النفسية أضعف بكثير من ذلك المقدم من خلال الأبحاث الفيسيولوجية. ولكنني أعترف بشكل كامل بأنه من الممكن في أية لحظة أن يصبح الدليل الأول أقوى، وفي هذه الحالة يصبح عدم إيماننا بالبقاء لا علمي.

ومع ذلك فإن البقاء بعد وفاة الجسد أمرٌ مختلف عن الخلود: قد يعني ذلك تأجيل الوفاة النفسية فقط. يسعى البشر إلى الإيمان بالخلود. سيعترض المؤمنون بالخلود على الحجج الفيسيولوجية التي استخدمتها لأنهم يعتقدون أن الجسد والروح منفصلان تماماً، وأن الروح شيء مختلف تماماً عن تجلياتها الامبريقية من خلال أجسامنا المتعضية. أنا أعتقد أن هذه خرافة ميتافيزيقية. المادة والعقل، كلاهما، مصطلحاتٌ مناسبة لكنهما ليسا حقائق مطلقة. الإلكترونات والبروتونات، كالروح، وهمان منطقيان، كل واحدٍ منهم هو تاريخ، سلسلة من الأحداث. ولكنه ليس وجوداً متواصلاً. في حالة الروح، الأمر واضح عن طريق حقائق النمو. كل من يفكر في زمن الحمل والطفولة لا يمكن أن يكون جاداً بإيمانه بالروح كشيء غير منقسم ومثالي وكامل خلال هذه العملية. من الواضح أنها تنمو كالجسد، وتنشأ من الحيوانات المنوية والبويضة معاً، لذا فمن غير الممكن أن تكون غير منقسمة. هذا ليس ماديةً: إنه فقط الاعتراف بأن كل ما هو مثير للاهتمام يعود للتنظيم، وليس لمادةٍ أساسيةٍ.

لقد قدم الميتافيزيقيون عدداً هائلاً من الحجج كي يبرهنوا على خلود الروح. هنالك اختبار بسيط يستطيع دحض جميع هذه الحجج. جميع الحجج تؤكد أن على الروح أن تعم الفضاء بأكمله. وبما أننا لسنا توّاقين كفايةً كي نصبح بهذه البدانة كي نعيش طويلاً، لم يلحظ أي من الميتافيزيقيين هذا الاستعمال لمنطقهم. هذا مثال على قوة الرغبة في جعل أناسٍ بمنتهى الذكاء يخطئون في أمورٍ بمنتهى الوضوح. لو لم نكن خائفين من الموت، لما وجدت فكرة الخلود.

الخوف أساس الدين، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العديد من الأمور في حياة البشر. الخوف من البشر، مجتمعين أو منفصلين، يسيطر على مساحة واسعة من حياتنا الاجتماعية، ولكن الخوف من الطبيعة كان أساس الدين. التناقض بين العقل والمادة، كما رأينا، هو بشكل ما وهمي، ولكن هنالك تناقضٌ آخر أكثر أهمية: إنه التناقض بين الأشياء التي نستطيع التأثير عليها عندما نرغب وتلك التي لا نستطيع. الخط الفاصل بينهما ليس حاداً ولا ثابتاً: مع تقدم العلوم، الكثير من الأشياء أصبحت خاضعة للبشر. مع ذلك هنالك أشياء تبقى تعريفاً خارج متناولنا. منها كل الوقائع الضخمة في عالمنا، كالوقائع التي يدرسها علم الفلك. فنحن نستطيع تعديل الوقائع التي تقع على أو قرب سطح الأرض، وإلى حدٍّ ما فقط، تبعاً لرغباتنا. وحتى على سطح الأرض قوانا محدودة جداً. قبل كل شيء، لا نستطيع إيقاف الموت، رغم أننا نستطيع تأخيره.

الدين محاولة للتغلب على هذه التناقضات. إذا كان الله يدير العالم، وإذا كنا نستطيع التأثير عليه بصلواتنا، فقد شاركنا في قدرته الكلية. في

الماضي، كانت تحدث المعجزات استجابةً للصلوات، ومازال الأمر كذلك في الكنيسة الكاثوليكية، في حين أن البروتستانت فقدوا هذه القدرة. بكل الأحوال، من الممكن الاستغناء عن المعجزات، بما أن العناية الإلهية قد قررت أن ما ينتج عن القوانين الطبيعية هو أفضل النتائج الممكنة. وهكذا، فالإيمان بالله يساعد في أنسنة العالم الطبيعي ويجعل البشر يشعرون أن القوى المادية حلفاءهم بحق. وبطريقة مماثلة، يلغي الخلود الخوف من الموت. ربما نتوقع من أولئك الذين يؤمنون أنهم عندما يموتون سوف يحصلون على النعيم الأبدي أن يجابهوا الموت دون رعب، بالرغم من أن هذا، لحسن حظ الأطباء، لا يحدث دائماً. ولكنه يخفف من مخاوف البشر حتى لو لم يتغلب عليها كلياً.

بما أن مصدر الدين هو الرعب، فقد بجّل بعض أنواع الرعب وجعل البشر يعتقدون أنها ليست مخزية. وبهذا فقد أساء بشدة إلى البشرية: كل أنواع الخوف سيئة. أنا أؤمن أنني عندما أموت سأفنى، ولن يبقى شيئاً من أناي. لست شاباً، وأعشق الحياة. لكنني سأحتقر نفسي إذا ما ارتجفت من رعب فكرة فنائي الشخصي. ليست السعادة سعادةً غير حقيقية لأنها يجب أن تصل إلى نهايتها، ولا يفقد الفكر والحب قيمتهما لأنهما ليسا أبديين. الكثير من الرجال قد صمدوا بفخر أمام حبل المشنقة، بالتأكيد يجب أن يعلمنا هذا الفخر ذاته كيف نفكر بصدق في الموقع الذي يحتله البشر في العالم. حتى لو جعلتنا النوافذ المفتوحة للعلم نرتجف بعد الدفء المحبب لمنزلنا القابع في الأساطير التقليدية المؤنسنة، ففي النهاية سيجلب الهواء الطلق النشاط، وللفضاءات الواسعة سناها الخاص.

فلسفة الطبيعة شيء، وفلسفة القيم شيءٌ مختلفٌ تماماً. ولن نجني إلا الأضرار من خلطهما معاً. ما نعتقد أنه جيد، وما الشيء الذي يجب أن نفضله، ليس له أية علاقة مع ما هو كائن، الذي يخضع بدوره لأسئلة فلسفة الطبيعة. ومن جهة أخرى، لا نستطيع أن نلوم أنفسنا على تبجيلنا لهذا أو ذاك من الأمور لأن العالم غير الإنساني لا يبجّلها، وكذلك لا يجب أن نجبر أنفسنا على الإعجاب بشيء ما فقط لأنه «قانون طبيعي». نحن جزء من الطبيعة بلا شك، وهي التي تنتج رغباتنا، آمالنا ومخاوفنا، تبعاً للقوانين التي يكتشفها الفيزيائيون. بهذا المعنى فنحن جزء من الطبيعة، نحن خاضعون للطبيعة، ونتاجٌ للقوانين الطبيعية، وضحايا لها على المدى الطويل.

يجب ألا تكون فلسفة الطبيعة أرضيةً بإفراط، لأن الأرض ليست إلا أحد أصغر الكواكب التابعة لأحد أصغر النجوم في درب التبانة. سيكون من السخف أن نحرّف فلسفة الطبيعة كي نصل إلى نتائج ترضي تلك الطفيليات الصغيرة التي تعيش فوق هذا الكوكب التافه. وبهذا المعنى فالمذهب الحيوي في الفلسفة، وكذلك المذهب التطوري، يظهران نقصاً في فهم النسب والصلة المنطقية[3]. إنهما يعتبران حقائق الحياة، والتي لها أهمية شخصية بالنسبة إلينا، كحقائق كونية عظمى، وليس كحقائق هامة لسكان الأرض فقط. التشاؤم والتفاؤل، كفلسفات كونية، يظهران نفس الأنسنة الساذجة. الكون العظيم، كما نعرفه من خلال فلسفة الطبيعة،

3- يقصد راسل المذاهب الحيوية و التطورية التي ترى أن الكون تطوّر وصولاً إلى الإنسان، الذي هو قمة التطور، أو أن الروح التي تسري في الكون بأجمعه تعود إلى الإنسان. (المترجم).

ليس جيداً ولا سيئاً، لا يعنيه في شيء أن يجعلنا سعداء أو تعساء. كل هذه الفلسفات تنبع من الاهتمام الذاتي وتُصحح بشكل ممتاز بفضل بعض المعرفة الفلكية.

ولكن فيما يتعلق بفلسفة القيم فالأمر معاكس. الطبيعة تشكل جزءاً فقط مما يمكننا تخيله؛ نستطيع تقييم أي شيءٍ، حقيقياً كان أم متخيلاً، ولا يوجد أي معيار خارجي يؤكد لنا أن تقييمنا خاطىء. الإنسان هو الحكم المطلق وغير القابل للدحض في مجال القيم، وفي عالم القيم لا تشكل الطبيعة إلا جزءاً فقط. لأننا في عالم القيم أعظم من الطبيعة. في عالم القيم، الطبيعة بحد ذاتها حيادية، لا جيدة ولا سيئة، ولا تستحق الإعجاب أو اللوم. نحن ورغباتنا من نخلق القيم. في هذا المملكة نحن الملوك، وسوف نحط من قدر مملكتنا إذا انحنينا للطبيعة. الأمر عائدٌ لنا كي نقرر ما هي الحياة الجيدة، وليس للطبيعة، وليس حتى لطبيعةٍ مشخصة كالله.

الحياة الجيدة

هناك مفاهيم مختلفة عن الحياة الجيدة في أزمان مختلفة وبين أناس مختلفين. بعض هذه الاختلافات كانت بسيطة، كما هو الحالة عندما يختلف البشر حول السبل التي تؤدي إلى هدفٍ مقرر سلفاً. يعتقد البعض أن السجن أسلوب جيد لمنع الجرائم، في حين يرى آخرون أن التربية أسلوب أفضل. نستطيع حسم هذا الخلاف بالأدلة المتوفرة. ولكن بعض الخلافات لا يمكن حسمها بهذه الطريقة. تولستوي أدان كل الحروب،

في حين يرى آخرون أن الجندي الذي يخاطر بحياته في سبيل هدفٍ خيّرٍ يقوم بعمل نبيل. نجد هنا اختلافات حقيقية تتعلق بالهدف النهائي. أولئك الذين يمدحون الجنود عادةً ما يرون أن عقاب المسيئين أمر جيد، تولستوي يرى العكس. في أمر كهذا لا يوجد حجة حاسمة. ولذلك لا أستطيع أن أبرهن أن رؤيتي للحياة الجيدة هي الصحيحة، كل ما أستطيع فعله هو أن أعرض وجهة نظري وأتمنى أن يوافق معظم البشر عليها. ورؤيتي هي التالية:

الحياة الجيدة هي تلك التي يلهمها الحب وتقودها المعرفة.

لا توجد حدود للحب والمعرفة؛ لذلك، مهما تكن الحياة جيدةً، نستطيع تخيّل حياةٍ أفضل. لا يستطيع الحب دون معرفة أو المعرفة دون حب تقديم حياةٍ جيدة. في العصور الوسطى، عندما يظهر الطاعون في بلدٍ ما، كان الرهبان ينصحون الناس بالتجمع بالكنائس والصلاة من أجل الخلاص، والنتيجة كانت أن العدوى انتشرت بسرعةٍ قياسية بين الحشود المبتهلة. هذا مثال عن الحب دون معرفة. الحرب الأخيرة[4] قدمت مثالاً عن المعرفة دون حب.

في كلتا الحالتين، كانت النتيجة انتشار الموت والخراب. بالرغم من أن كلاً من الحب والمعرفة ضروريان، إلا أن الحب بمعنى ما أكثر جوهرية، بما أنه يجعل الناس الأذكياء يسعون إلى المعرفة، كي يستفيد أولئك الذين يحبونهم. ولكن إذا لم يتمتع الناس بالذكاء، فسيكتفون بالإيمان بما يقال لهم وقد يسببون الأذى على الرغم من محبتهم الكبيرة للآخرين. يقدم

4- يقصد الحرب العالمية الأولى. (م).

الطبيب أفضل مثال على ما أعنيه. الطبيب الجيد أكثر فائدة للمريض من أفضل أصدقائه، والتقدم في المعرفة الطبية أفضل للصحة في المجتمع من محبي البشرية قليلي المعرفة. مع ذلك، عنصر المحبة جوهري حتى في هذه الحالة كي لا ينتفع فقط الأغنياء من الاكتشافات العلمية.

الحب كلمة تغطي أنواع مختلفة من المشاعر، وقد استخدمتها بحيث تتضمن هذه المشاعر كلها. الحب كعاطفة وهو الذي أعنيه، لأن الحب «كمبدأ» لا يبدو أصيلاً بالنسبة إليّ، يتأرجح بين قطبين: من جهة أولى، بهجة صافية في التأمل، ومن جهة أخرى، نزعة صافية نحو الخير. عندما يتعلق الأمر بموضوعاتٍ غير حية، فإننا لا نجد سوى البهجة، لا نستطيع أن نشعر بنزعة الخير تجاه منظرٍ طبيعي أو سوناتا. من المحتمل أن هذا النوع من المتعة هو مصدر الفن. وهو أقوى، كقاعدة، عند الأطفال الصغار منه عند البالغين، حيث أن البالغين يميلون إلى النظر إلى الأشياء بروحٍ نفعية. كما يلعب دوراً كبيراً في تحديد مشاعرنا تجاه البشر، حيث يملك بعضهم سحراً ما ولا يملكه البعض الآخر، عندها نفكر فيهم كمواضيع للتأمل الجمالي.

القطب المعاكس في الحب هو النزعة الصافية نحو الخير. لقد ضحّى البشر بحياتهم لمساعدة المجذومين، وفي هذه الحالة فإن الحب لم يتضمن أي عنصرٍ من البهجة الجمالية. يوجد في العاطفة الأبوية متعة في مظهر الطفل ولكن تبقى هذه العاطفة قوية حتى في الغياب الكامل لهذا العنصر. قد يبدو شاذاً أن ندعو اهتمام الأم بطفلها المريض «نزعةً نحو الخير»، لأننا اعتدنا على استخدام هذه الكلمة لوصف شعور باهت

أقرب إلى الدجل. ولكن يصعب عليَّ إيجاد كلمة أخرى تصف الرغبة في إسعاد الآخرين. في الواقع إن رغبة من هذا النوع قد تصل إلى أعلى درجة ممكنة في حالة المشاعر الأبوية. في حالاتٍ أخرى هذه النزعة أقل حدّة بكثير، وفي الواقع يبدو أن كل المشاعر الغيرية هي فائض من المشاعر الأبوية، أو في بعض الأحوال تصعيدٌ لها. ولغياب تعبير أفضل، سوف أستخدم «النزعة نحو الخير». ولكنني أريد أن أوضح أنني أتكلم عن عاطفة، وليس عن مبدأ، وأنني لا أضمّن الكلمة أي شعور بالتفوق كما قد يُفهم في بعض الحالات. كلمة «تعاطف» تحمل بعضاً مما أعنيه ولكنها لا تحمل عنصر الفعالية الذي أودِ أن يكون حاضراً هنا.

الحب بمعناه الكامل تركيب غير قابل للانفصام بين العنصرين، البهجة والرغبة في الخير. متعة الأهل بطفل جميلٍ وناجح تتضمن العنصرين، وكذلك الحب الجنسي في أفضل أحواله. ولكن في الحب الجنسي لن نجد النزعة نحو الخير إلا في حالة التملك المطمئن، وبغيابها ستدمّر الغيرة هذه النزعة، بينما قد يزيد حضورها بهجة التأمل. البهجة دون الرغبة في الخير قد تصبح قاسية؛ الرغبة في الخير دون البهجة قد تميل إلى أن تصبح باردة مع شعور ما بالتفوق. الشخص المحبوب يتمنى في الحقيقة أن يكون موضوع حبٍّ يتضمن العنصرين معاً، باستثناء حالات الضعف الشديد، كما هو حال الأطفال والمرضى بأمراضٍ شديدة. في هذه الحالات فإن النزعة نحو الخير هي كل ما يرغبونه. وبالعكس، في حالات القوة المتطرفة، فالإعجاب يكون مرغوباً أكثر من النزعة نحو الخير: هذه هي الحالة العقلية للحكام والجمال المشهور. نحن نرغب

في نوايا الآخرين الجيدة فقط عندما تتناسب مع ما نشعر به من حاجتنا للمساعدة أو خوفنا من أن يؤذوننا. على الأقل، يبدو لي أن هذا هو المنطق البيولوجي، ولكنه ليس صحيحاً تماماً في الحياة. نحن نتوق إلى المحبة كي نتخلص من شعورنا بالوحدة، أي، كما نقول، «أن يفهمنا الآخرون». هذا يتعلّق بالتعاطف، وليس بالنزعة نحو الخير فقط؛ لا يجب على الشخص الذي ترضينا محبته أن يتمنى لنا الخير فقط بل يجب أن يعرف ما الذي يسعدنا. ولكن هذا يخص العنصر الآخر من الحياة الجيدة: المعرفة.

في عالم مثالي، كل كائن حساس موضوع حبٍّ كلّي لكل كائنٍ آخر، هذا الحب مركب من خليطٍ لا ينفصل من البهجة والنزعة نحو الخير والفهم. لا يعني هذا، أننا في هذا العالم الفعلي، يجب أن نحاول حيازة هذه المشاعر لجميع الكائنات الحساسة التي نصادفها. فنحن لا نستطيع أن نشعر بالبهجة عندما نلتقي بعض الناس، لأنهم مثيرون للاشمئزاز؛ إذا أجبرنا أنفسنا على رؤية الجمال فيهم، سنؤذي الحساسية الطبيعية لدينا لتذوق الجمال. إذا وضعنا الكائنات البشرية جانباً، سنجد البراغيث والحشرات والقمل. يجب أن نكون أقوياء إلى درجة تماثل تلك التي كان يمتلكها البحارة القدامى قبل أن نستطيع إيجاد البهجة في تأمل هذه المخلوقات. صحيحٌ أن بعض القديسين أطلقوا عليهم تسمية «لآلئ الله»، ولكن الأمر الذي استمتع به هؤلاء الرجال هو الفرصة لعرض قداستهم الشخصية.

زيادة النزعة نحو الخير بشكل واسع أسهل من زيادة البهجة، ولكن حتى هذه النزعة لها حدود. إذا أراد شخص ما أن يتزوج من امرأة،

فلا يجب أن نصدّق أنه من الأفضل أن ينسحب عندما يجد رجلاً آخر يريد الزواج منها: يجب أن نعتبر هذا مكاناً عادلاً للمنافسة. كذلك فإن مشاعره اتجاه منافسه لا يمكن أن تميل نحو الخير بشكل كامل. أعتقد أن كل التوصيفات للحياة الجيدة على هذه الأرض يجب أن نفترض أساساً معيناً من الحيوية والغريزة الحيوانية، بدونها تصبح الحياة مملة وتافهة. يجب أن تكون الحضارة شيئاً يضاف إليها، وليس بديلاً عنها. بهذا المعنى يفشل القديس الزاهد والحكيم المنعزل في أن يكونا بشراً كاملين. إن عدداً صغيراً منهم قد يُغني المجتمع، ولكن عالماً مكوّناً من أمثالهما سيكون مضجراً لدرجة قاتلة.

هذه الاعتبارات تقودنا إلى التأكيد على عنصر البهجة كجزء مقوم للحب الأكمل. البهجة، في هذا العالم الفعلي، انتقائية بشكل لا مفر منه، وتمنعنا من حيازة نفس المشاعر اتجاه البشرية جمعاء. عندما ينشأ نزاع بين البهجة والنزوع نحو الخير، يجب، كقاعدة، أن يتم الحسم عن طريق المساومة، وليس عن طريق استسلام أحدهما. للغريزة حقوقها، وإذا حاربناها أكثر مما يجب فسوف تنتقم منا بطريقة مناسبة. ولذلك عندما نهدف إلى حياة جيدة فإن حدود الإمكانيات البشرية يجب أن تؤخذ بالحسبان. هنا مرةً أخرى، نعود إلى ضرورة المعرفة.

عندما أتكلم عن المعرفة كجزء من الحياة الجيدة، فأنا لا أقصد المعرفة الأخلاقية بل المعرفة العلمية ومعرفة الحقائق المستقلة. أنا لا أعتقد أنه يوجد، كي أكون دقيقاً، معرفة أخلاقية. إذا أردنا الوصول إلى شيءٍ ما، ترينا المعرفة السبيل، ومن الخطأ أن ندعو هذه بالمعرفة بالأخلاقية.

وأنا لا أعتقد أنه بإمكاننا أن نقرر فيما إذا كان سلوكٌ ما سيئاً أم جيداً إلا بالإشارة إلى نتائجه المحتملة. إذا أُعطيت هدفاً ما كي أحققه، العلم يكتشف السبيل إلى ذلك. نستطيع اختبار جميع القواعد الأخلاقية بأن نسأل هل تؤدي إلى تحقيق الأهداف التي نرغبها. أقول الأهداف التي نرغبها، وليس الأهداف التي يجب أن نرغبها. ما «يجب» أن نرغبه ليس إلا ما يتمنى شخصٌ آخر أن نرغبه. عادةً هو ما تتمنى السلطات أن نرغبه: الأهل، أساتذة المدارس، الشرطة والقضاة. إذا قلت لي: «يجب أن تفعل كذا وكذا»، فالقوة المحركة لقولك هذا تكمن في رغبتي في نيل استحسانك، غالباً مع المكافآت أو العواقب المرتبطة باستحسانك أو استهجانك. بما أن أي سلوك ينبع من الرغبات، فمن الواضح أنه لا توجد أية أهمية للأفكار الأخلاقية باستثناء تلك التي تؤثر على الرغبات. ويحصل ذلك عن طريق الرغبة في الاستحسان والخوف من الاستهجان. هذه قوى اجتماعية مؤثرة، ويجب أن نسعى إلى كسبهم إلى جانبنا إذا أردنا تحقيق أي هدفٍ اجتماعي. عندما أقول إن أخلاقية سلوك ما يجب أن يحكم عليها بالنظر إلى نتائجه المحتملة، فما أقصده هو أنني أرغب في رؤية استحسان لسلوك من المرجح أن يحقق هدفاً اجتماعياً نرغب فيه، واستهجان لسلوكٍ معاكس. حالياً الأمور ليست كذلك، بل يوجد قواعد تقليدية معينة يوزّع على أساسها الاستحسان والاستهجان بغض النظر عن النتائج. سنناقش هذا الموضوع في القسم التالي.

الأخلاق النظرية غير ضرورية، وهذا واضح في القضايا البسيطة. فلنفرض مثلاً أن ابنك مريض. الحب يجعلك ترغب في شفائه، والعلم

يخبرك كيف تقوم بذلك. لا يوجد مرحلة وسطى من الأخلاق النظرية، حيث يُشرح أنه من الأفضل لطفلك أن يشفى. تصرفك ينبع من رغبتك في تحقيق الهدف، مع معرفتك بالوسيلة. ينطبق هذا على جميع الأفعال بصورة متساوية، السيئة والجيدة على حد سواء. الأهداف تختلف، والمعرفة تكون أدق في بعض الحالات. ولكن لا توجد طريقة ممكن تخيّلها تجعل البشر يقومون بأشياء لا يرغبونها. ما يمكننا عمله هو تعديل رغباتهم عن طريق نظام من المكافآت والعقوبات، وضمن هذا النظام فإن الاستحسان والاستهجان الاجتماعي يملكان فعالية كبيرة. لذلك، فإن سؤال المشرِّع الأخلاقي هو التالي: كيف نستطيع ترتيب نظام العقوبات والمكافآت بحيث يحقق أقصى ما ترغب فيه السلطة التشريعية؟ إذا قلت إن للسلطة التشريعية رغباتٍ سيئة، فأنا أقصد أن رغباتها تتعارض مع رغبات أحد أجزاء المجتمع الذي أنتمي إليه. لا يوجد معيار أخلاقي يأتي من خارج إطار الرغبات البشرية.

بالتالي، ما يميز الأخلاق عن العلم ليس نوعاً ما من المعرفة بل الرغبة فقط. المعرفة المطلوبة في الأخلاق هي بالضبط نفس المعرفة في أي مجالٍ آخر؛ الشيء الخاص في الأخلاق هو الأهداف المرغوبة، والسلوك الصحيح هو الذي يفضي إلى هذه الأهداف. بالطبع، إذا أردنا أن يحظى تعريف السلوك الصحيح بموافقة واسعة، إذاً لوجب أن ترغب قطاعات واسعة من البشرية بالأهداف. إذا عرّفت السلوك الصحيح بأنه ذلك الذي يزيد من ثروتي الشخصية، لن يوافق القراء. التأثير الكامل لأية نظرية أخلاقية يكمن في جزئها العلمي، أي في البرهان على أن نوعاً من

السلوك، وليس نوعاً آخر، هو السبيل إلى الهدف المنشود. وبكل الأحوال، فأنا أميز بين الحجة الأخلاقية والتربية الأخلاقية. فهذه الأخيرة تتألف من تقوية بعض الرغبات، وإضعاف البعض الآخر. وهذه عملية مختلفة تماماً، وسوف نناقشها بشكل منفصل في مرحلة لاحقة.

نستطيع أن نشرح الآن بشكل أدق فحوى تعريف الحياة الجيدة الذي افتتحنا به هذا القسم. عندما قلت إن الحياة الجيدة تتشكل من الحب الذي تقوده المعرفة، الرغبة التي دفعتني هي الرغبة في أن أحيا هذه الحياة إلى أقصى درجة ممكنة، وأن أرى الآخرين يعيشون بنفس الطريقة؛ والمحتوى المنطقي لهذه المقولة هو التالي: في مجتمعٍ يحيا به البشر وفق هذه الطريقة سيتم إرضاء رغباتٍ أكثر من مجتمع آخر يكون فيه الحب أقل أو المعرفة أقل. أنا لا أعني أن حياةً كهذه «فاضلة» أو أن نقيضتها «آثمة»، لأنني لا أعتقد أنه يوجد تسويغ علمي لهذه المفاهيم.

القواعد الأخلاقية

الحاجة العملية للأخلاق قد تولدت من صراع الرغبات، سواء بين مختلف الأشخاص أو عند الشخص نفسه في أوقاتٍ مختلفة أو في الوقت نفسه. يرغب الرجل في الشرب، وأيضاً في أن يكون قادراً على العمل في الصباح التالي. نحن نعتقد أنه لا أخلاقي إذا تصرّف بما يؤدي إلى الإشباع الأقل لرغباته. ولا نكوّن رأياً حسناً عن أولئك الناس المبذرين أو المتهورين، حتى لو لم يسيئوا لأحد إلا لأنفسهم. افترض بنثام أنه بإمكاننا اشتقاق الأخلاق بأكملها من «المصلحة الذاتية المتنوِّرة»، وأن المرء الذي

يتصرف دوماً من أجل الإشباع الأقصى لرغباته على المدى الطويل سوف يتصرف دوماً بشكل صحيح. أنا لا أستطيع قبول هذا الرأي. كان بعض الطغاة يستمدون متعة شديدة من مشاهد التعذيب، لا أستطيع أن أمتدح هؤلاء الرجال عندما يجعلهم التبصّر يطيلون حياة ضحاياهم يوماً آخر كي يستمتعوا بعذابهم لمدةٍ أطول. مع ذلك، عندما تكون الأمور الأخرى متساوية، فالتبصّر جزء من الحياة الجيدة. حتى روبنسون كروزو كان لديه الفرصة كما يمارس الصناعة والتحكم بالنفس والتبصّر، والتي يجب اعتبارها كمزايا أخلاقية، بما أنها تزيد من المجموع العام للإشباع لديه دون أذىً للآخرين، يوازي ذلك الإشباع. يلعب هذا الجزء من الأخلاق دوراً هاماً في تثقيف الأطفال الذين لديهم ميل قليل للتفكير في المستقبل. إذا تمت هذه الممارسة بشكل أكبر في حياتنا المقبلة، سيتحول هذا العالم بسرعة إلى فردوس، بما أنها سوف تكون كافية لمنع الحروب، التي تنتج من العاطفة، لا من العقل. مع ذلك، وبالرغم من أهمية التبصر فهو ليس الجزء الأكثر إثارة من الأخلاق، كما أنه ليس الجزء الذي يثير المشكلات الفكرية، بما أنه لا يتعلق بأي شيء وراء المصلحة الذاتية.

الجزء من الأخلاق الذي لا يتضمنه التبصر هو في الجوهر، مناظر للقانون، أو لقواعد النادي. إنها طريقة تسمح للبشر بأن يعيشوا سويةً في المجتمع على الرغم من احتمال أن تتصارع رغباتهم. ولكن هنا نجد طريقتين مختلفتين تماماً. هنالك طريقة القانون الجنائي، والتي تهدف إلى التناغم الخارجي فقط عن طريق ربط النتائج المستهجنة بعقوباتٍ تحبط الرغبات بأساليب معينة. هذه هي أيضاً طريقة اللوم الاجتماعي: أن

يكوّن المجتمع رأياً سيئاً عن أحدهم هو شكلٌ من أشكال العقاب، حيث يبتعد الناس عن ذلك الذي ينتهك قواعدهم الأخلاقية. ولكن هناك طريقة أخرى، أكثر أصالة ومرضية بشكل أكبر عندما تنجح. وذلك بتعديل شخصيات ورغبات البشر بطريقة تخفف إلى الحد الأدنى حالات الصراع بجعل نجاح رغبات فرد واحد متلائمة قدر الإمكان مع رغبات الآخرين. لذا فالحب أفضل من الكره، لأنه يجلب التناغم بدلاً من صراع الرغبات. عندما يوجد حب بين شخصين سينسجمان معاً أو يفشلان معاً، ولكن عندما توجد الكراهية بينهما فإن نجاح أحدهما يكون فشلاً للآخر.

إذا كنا محقين في قولنا أن الحياة الجيدة يلهمها الحب وتقودها المعرفة، فمن الواضح أن القواعد الأخلاقية لأي مجتمع ليست مطلقة ومكتفية ذاتياً، بل يجب أن يتم فحصها كي نرى هل تؤدي إلى الحكمة والنزعة نحو الخير. لم تكن القواعد الأخلاقية دائماً معصومة. كان الأزتيك يأكلون لحم البشر كي لا يختفي نور الشمس. لقد أخطؤوا في علمهم؛ وربما كانوا سيدركون خطأهم العلمي لو كان لديهم أي نوع من الحب لضحاياهم. تدفن بعض القبائل بناتها في الظلام من سن العاشرة حتى السابعة عشرة خوفاً من أن تجعلهم أشعة الشمس حوامل. ولكن قواعدنا الأخلاقية الحديثة بالتأكيد لا تحوي أي شيء مشابه لهذه الممارسات الوحشية؟ وبالتأكيد فنحن نحرّم الأشياء المؤذية بحق، أو بكل الأحوال تلك الأشياء البغيضة التي لا يستطيع أي إنسان محترم الدفاع عنها؟ لست واثقاً تماماً من ذلك.

الأخلاق الحالية مزيج غريب من المذهب النفعي والخرافات، ولكن للخرافات النصيب الأكبر، وذلك طبيعي، طالما أن الخرافات أصل القواعد الأخلاقية. في الأصل، كان يُعتقد أن أفعالاً معينة لا تسرّ الآلهة وتم حظرها قانونياً لأن العقاب الإلهي كان سيصيب المجتمع، وليس الأفراد الآثمين فقط. من هنا نشأ مفهوم الخطيئة الذي يعني الفعل الذي لا يسرّ الآلهة. لا يمكن تحديد أي سبب يجعل الآلهة غير مسرورة من أفعال معينة؛ سوف نجد صعوبة بالغة مثلاً، في فهم لماذا لا تسرّ الآلهة عندما نطبخ الماعز الصغير في حليب الأم[٥]. ولكن كان معروفاً عن طريق الوحي أن الآلهة لا تسرّ لذلك. أحياناً يتم تأويل الأوامر الإلهية بطريقة عجيبة. مثلاً، لقد أُمرنا بألا نعمل في أيام السبت، واستنتج البروتستانت من ذلك أننا يجب ألا نلهو أيام الأحد. واعتبروا نفس القوة المقدّسة تسري على الحظر الجديد كما على القديم.

من الواضح أن المرء ذا الرؤية العلمية للحياة لا يستطيع أن يقبل بأن تخيفه نصوص الكتاب المقدس أو تعاليم الكنيسة. لا يستطيع أن يكون راضياً بقوله «هذا الفعل أو ذاك آثم، انتهى الأمر». سوف يبحث فيما إذا كان الفعل يسبب أي ضرر، أو على العكس، إذا كان الإيمان بأن الفعل آثم يسبب ضرراً. وسوف يجد، خاصة فيما يتعلق بالجنس، أنّ أخلاقنا الحالية تتضمن مقداراً كبيراً من الأمور التي يرجع أصلها إلى الخرافة البحتة. وسوف يجد أيضاً أن هذه الخرافات، كخرافات الأزتيك، تحتوي على قسوة غير مبررة، وأنه من الممكن التخلص منها إذا كانت دوافع

٥- يشير راسل هنا إلى سفر التثنية، الأصحاح الرابع عشر، «لا تطبخ جدياً بلبن أمه». (م).

البشر نبيلة اتجاه جيرانهم. ولكن نادراً ما يكون للمدافعين عن الأخلاق التقليدية مشاعر دافئة، كما هو واضح من محبة الروح العسكرية عند قادة الكنائس. بل إن المرء يعتقد أنهم يثمنون الأخلاق لأنها تقدم منفذاً لرغبتهم في إيلام الآخرين؛ الآثم يستحق العقاب، ولذا وداعاً للتسامح.

لنتابع مجرى حياة فرد عادي من الحمل إلى القبر ولنسجل أين تقوم الأخلاق الخرافية بإنزال عذابات من الممكن تجنبها. سوف أبدأ بالحمل، لأن تأثير الخرافات يستحق الملاحظة بشكل خاص في هذه المرحلة إذا لم يكن الوالدان متزوجين. فسوف يوصم الولد بالعار، وهو أمر لا يستحقه أبداً. إذا كان أحد الوالدين مصابٌ بمرض تناسلي، فسيرث الطفل ذلك المرض في الغالب. إذا كان لديهما عدة أطفال سلفاً سيتأثر الوضع المالي، سنرى الفقر، وسوء التغذية، والازدحام في المنزل، وغالباً سفاح القربى. ومع ذلك يعتقد معظم الأخلاقيين، أنه من الأفضل ألا يعرف الوالدان كيفية إيقاف هذا البؤس عن طريق منع الحمل. كي يرضى هؤلاء الأخلاقيون، يعيش الملايين من البشر، كان من المفترض ألا يولدوا في الأصل، حياة بائسة، فقط بسبب الافتراض القائل بأن العلاقات الجنسية آثمة ما لم تهدف إلى التناسل، ولكنها ليست آثمة إذا كانت الرغبة في التناسل حاضرة، حتى لو كان التناسل بائساً بشكل مؤكد. أن يُقتل المرء فجأةً ثم يتم التهام جثته، كما كان قدر ضحايا الأزتيك، لهو عذاب أقل من عذاب الطفل الذي يولد في محيط بائس ومصاب بأمراض تناسلية. مع ذلك فهذا العذاب الأكبر هو الذي ينزله الرهبان والسياسيون بالبشر باسم الأخلاق. لو كان لديهم ومضة من الحب أو الشفقة لهؤلاء الأطفال لما استطاعوا مساندة قواعد أخلاقية تتضمن تلك الوحشية الشيطانية.

عند الولادة والطفولة المبكرة، يعاني الطفل العادي من الأوضاع الاقتصادية أكثر مما يعاني من الخرافات. عندما تلد امرأة ثرية أطفالاً، تحصل على أفضل الأطباء، أفضل الممرضات، أفضل حمية، أفضل راحة وأفضل التمارين. لا تستمتع امرأةٌ من الطبقة العاملة بهذه المزايا، وعادةً ما يموت أطفالهن بسبب غياب تلك المزايا. لا تفعل السلطات العامة الكثير للعناية بالأمهات، والذي يفعلونه، يفعلونه بحقد. عندما تقوم السلطات العامة بإلغاء تزويد الأمهات بحليب الأطفال خفضاً للنفقات، فإنها تنفق كميات ضخمة من الأموال لرصف الأحياء السكنية للأغنياء، حيث لا يوجد ازدحام في الأصل. يجب أن يعلموا أنهم باتخاذهم هذا القرار فهم يحكمون على أطفال الطبقة العاملة بالموت لارتكابهم جريمة الفقر، مع ذلك يتمتع الحزب الحاكم بدعم الأكثرية المطلقة من رجال الدين، الذين، وعلى رأسهم البابا، جعلوا القوى الضخمة للخرافات حول العالم تدعم الظلم الاجتماعي.

تأثير الخرافات في كل مراحل التعليم كارثي. تملك نسبة معينة من الأطفال عادة التفكير، ويبدو أن أحد أهداف التربية شفاؤهم من هذه العادة. حيث يجاب على الأسئلة غير الملائمة بـ«هش- هش» أو بالعقاب. ويتم استخدام العواطف الجمعية لغرس أنواع معينة من الاعتقاد، وبشكلٍ خاص المشاعر الوطنية. يتعاون الرأسماليون والعسكريون والكهنة في التربية، لأن قوتهم تعتمد على سيطرة الانفعالات وندرة الأحكام النقدية. بمساعدة الطبيعة البشرية، تنجح التربية في زيادة وتكثيف هذه الميول عند المواطن العادي.

تؤدي الخرافات التربية بطريقة أخرى هي التأثير الذي تمارسه في اختيار المعلمين. لأسباب اقتصادية، يجب ألا تكون المعلمة متزوجة؛ لأسباب أخلاقية، يجب ألا يكون لها علاقات جنسية غير شرعية. ولكن كل من درس السيكولوجيا المرضية يعرف أن إطالة فترة العذرية، كقاعدة، تضر بشكل هائل بالنساء، تضر إلى درجة أنه، في مجتمع عقلاني، سوف تحارب هذه الظاهرة بشدة بين المعلمات. على حين أن القيود المفروضة عندنا تؤدي بشكل مستمر إلى أن ترفض النساء، خاصةً اللواتي يتمتعن بالطاقة والإقدام، الدخول في السلك التعليمي. السبب في ذلك هو التأثير المتعاظم للزهد الخرافي.

الأمور أسوأ في مدارس الطبقات الوسطى والعليا، حيث توجد الخدمات الكنسية، ورعاية الأخلاق تكون بين أيدي الكهنوت. يفشل الكهنة غالباً كمعلمين للأخلاق بطريقتين: يدينون أفعالاً لا تسبب أي ضررٍ ويتغاضون عن أفعالٍ تؤدي إلى الكثير من الضرر. كلهم يدينون العلاقات الجنسية بين غير المتزوجين المغرمين ببعضهم بعضاً ولكنهم غير متأكدين حتى تلك اللحظة إن كانوا يريدون أن يحيوا معاً دائماً. معظمهم يدين تحديد النسل. لا يدين أي منهم وحشية الزوج الذي يسبب وفاة زوجته بسبب حالات الحمل المتكرر. أعرف كاهناً حديثاً ولدت زوجته تسعة أطفال في تسع سنين. أخبره الأطباء أنها ستموت في المرة المقبلة. في السنة التالية ولدت طفلاً آخر ثم ماتت. لم يدنه أحد، لقد احتفظ بحقوقه وتزوج مرةً أخرى. طالما يستمر الكهنة في التغاضي عن الوحشية وإدانة اللذة البريئة، فلن يسببوا إلا الأذى كحراس لأخلاق الشبيبة.

التأثير السيء الآخر للخرافات على التربية هو غياب تعليم الحقائق الجنسية. يجب تعليم الحقائق الفيسيولوجية الرئيسية بشكل بسيط وطبيعي قبل البلوغ عندما لا يكون الأطفال مثارين بعد. عند البلوغ، يجب تعليم العناصر غير الخرافية للأخلاق الجنسية. يجب تعليم الصبيان والبنات أنه لا يمكن قبول العلاقات الجنسية إلا عندما يوجد ميلٌ متبادل. هذا مناقض لتعليم الكنيسة، التي ترى أن العلاقات الجنسية مقبولة عندما يكون الطرفان مرتبطين بالزواج وأن يرغب الرجل في طفلٍ آخر، مهما كانت معارضة الزوجة كبيرة. يجب على الصبيان والبنات تعلم احترام حرية الآخر؛ يجب أن يتعلموا الشعور بأن لا شيء يعطي لفردٍ ما حقوقاً على الآخر، وأن الغيرة وحب التملك تقتل الحب. يجب أن يتعلموا أن ولادة إنسانٍ جديد إلى هذا العالم أمر في منتهى الجدية، ويجب ألا يتم هذا الأمر إلا عندما تتوفر إمكانيات مناسبة للاعتناء بصحته، وكذلك محيط جيد، ورعاية أبوية. ولكن يجب أيضاً تعليمهم وسائل تحديد النسل، كي يتم التأكد من ألا يأتي الأطفال إلا عندما يريدون. أخيراً يجب تعليمهم مخاطر الأمراض التناسلية، ووسائل تجنب وشفاء هذه الأمراض. التوقعات حول زيادة السعادة البشرية عن طريق هذه التربية الجنسية غير محدودة.

يجب الاعتراف أنه في حالة غياب الأطفال، تكون العلاقات الجنسية أمراً شخصياً فقط لا علاقة للدولة أو الجيران به. إن نماذج معينة من الجنس لا تؤدي إلى الحمل يتم عقابها حالياً بواسطة القانون الجنائي: هذا تطيّر لا غير، بما أن الأمر لا يؤثر على أيّ كان سوى الطرفين المعنيين. إذا

كان لديهما أطفال، فإنه لخطأ الافتراض بأنه من الضروري جعل الطلاق في منتهى الصعوبة. إدمان الخمر والقسوة والبلاهة تشكل أسباب كافية لجعل الطلاق ضرورياً لمصلحة الأطفال وكذلك لمصلحة الزوج أو الزوجة. الأهمية الخاصة التي يتم إعطاؤها لموضوع الزنا غير عقلانية أبداً. فمن الواضح أنه يوجد عدة أشكال من السلوك السيئ مدمرة بشكل أكبر للزواج من الخيانة العابرة. الإصرار الذكوري على الحصول على طفل كل عام، والذي لا تراه الأعراف كسلوك سيء، أو كوحشية، هو الأكثر تدميراً على الإطلاق.

لا يجب أن تجعل القواعد الأخلاقية السعادة الغريزية مستحيلة. ولكن ذلك أحد تأثيرات الزواج الأحادي الصارم حيث لا تكون أعداد الجنسين متساوية. بالطبع، تحت ظروف كهذه، تُنتهك القواعد الأخلاقية. ولكن عندما لا يمكن إطاعة القوانين الأخلاقية إلا بتقليص هائل لسعادة المجتمع، وعندما يكون من الأفضل انتهاك القواعد بدلاً من قبولها، فقد حان بالتأكيد الوقت الذي يجب فيه تغيير تلك القواعد. إذا لم يتم ذلك، سوف يواجه العديد من الناس الذين يتصرفون بطريقةٍ غير مناقضة للمصلحة العامة أحد الخيارين التاليين بالرغم من أنهم لا يستحقون ذلك: النفاق أو الخزي. الكنيسة لا تعارض النفاق، الذي يشكل تملقاً لقوتها؛ ولكن خارج الكنيسة أصبح من المعترف به أننا يجب ألا نتسامح معه.

تؤدي الخرافات القومية إلى أضرار أكبر من الخرافات اللاهوتية، تلك التي تقول بواجب الفرد نحو أمته وليس نحو أيّة أمة أخرى.

ولكنني لن أناقش هذا الأمر هنا بل سأشير فقط إلى أن اقتصار الفرد على مواطنيه مناقض لمبدأ الحب الذي اعترفنا به كمكوِّن للحياة الجيدة. وهو معاكس أيضاً، بالطبع، لمبدأ المصلحة الذاتية المتنوِّرة، بما أن الوطنية الحصرية لا تفيد حتى الأمم المنتصرة.

أحد الأمور التي يعاني منها مجتمعنا بسبب المفهوم اللاهوتي لـ «الخطيئة» هو التعامل مع المجرمين. لا تستطيع الأخلاق العقلانية أن تدعم وجهة النظر التي ترى أن المجرمين «أشرار» و«يستحقون» العقاب. بلا شك يقوم بعض الأشخاص بأمور يرغب المجتمع في منعها ومن الجيد منعهم قدر الإمكان. لنأخذ القتل كأبسط مثال. من الواضح أنه لقيام المجتمع ولكي نستمتع بمزاياه وفوائده، لا نستطيع أن ندع الناس يقتلون بعضهم البعض كلما وجدوا دافعاً للقيام بذلك. ولكن يجب التعامل مع هذه المسألة بروح علمية صرفة. يجب أن نسأل ببساطة: ما هي أفضل السبل لمنع القتل؟ يجب أن نختار من بين طريقتين فعالتين لمنع القتل، الطريقة التي تسبب أقل أذى للقاتل. الأذى الذي نسببه للقاتل يدعو للأسف بشكل كامل، كالألم الذي تسببه العملية الجراحية. قد يكون ضرورياً مثله، ولكنه ليس أمراً مفرحاً. الشعور الانتقامي الذي ندعوه «النقمة الأخلاقية» ليس إلا أحد أشكال الوحشية. لا يمكن تبرير التعذيب الذي يتعرض له المجرم عن طريق فكرة العقاب الانتقامي. إذا كانت التربية التي تضم إليها الشفقة فعالة، فيجب أن نفضلها؛ ولكن يجب أن نفضلها أكثر إذا كانت أكثر فعالية. بالطبع، منع الجريمة وعقاب الجريمة هما مسألتان مختلفتان؛ يفترض البعض أن الهدف من إلحاق الألم بالمجرمين هو الردع. إذا كانت السجون إنسانية جداً بحيث أن

المساجين يحصلون على تربية جيدة دون مقابل، لارتكب الناس الجرائم كي يتمكنوا من دخول السجون. بلا شك يجب أن يكون السجن أقل متعة من الحرية، ولكن السبيل الأفضل لتحقيق ذلك هو جعل الحرية أكثر متعة مما هي حالياً في بعض الأحيان. بكل الأحوال، لا أريد الآن أن أخوض في موضوع الإصلاح الجزائي. أريد فقط أن أقترح أننا يجب أن نعامل المجرم كما نعامل المصاب بالطاعون. كل منهما يشكل خطراً على المجتمع، كلٌّ منهما يجب احتجازه إلى أن يكف عن كونه خطراً. ولكن المصاب بالطاعون يتم التعاطف معه والرثاء له، بينما يُلعن المجرم. هذا الأمر لاعقلاني تماماً. وبسبب هذا الموقف فإن سجوننا أقل نجاحاً في معالجة الميول الإجرامية من مشافينا التي تشفي الأمراض.

الخلاص: فردياً واجتماعياً

أحد عيوب الدين التقليدي هو فردانيته، وينطبق هذا على الأخلاق التي تصاحب هذا الدين. تقليدياً، كانت الحياة الدينية حواراً بين الله والروح. كانت الفضيلة إطاعة إرادة الله، وكان ذلك ممكناً للفرد الذي لا يهتم بأحوال مجتمعه. لقد طورت الطوائف البروتستانتية فكرة «إيجاد الخلاص»، ولكن هذه الفكرة كانت حاضرة دوماً في التعليم المسيحي. كان لهذه الفردانية وللروح المنفصلة قيمتها في مراحل معينة من التاريخ، لكننا في العالم الحديث نحتاج مفهوماً اجتماعياً أكثر من المفهوم الفردي للخير. أود في هذا الفصل أن أناقش كيف يؤثر هذا المفهوم على الحياة الجيدة.

نشأت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية بين سكانٍ محرومين بالكامل من القوة السياسية، حيث دُمّرت دولهم الوطنية واندمجوا في مجموعٍ هائلٍ لا شخصي. خلال القرون الثلاثة الأولى من التاريخ المسيحي لم يستطع الأفراد الذين اعتنقوا المسيحية أن يبدّلوا شيئاً في المؤسسات الاجتماعية أو السياسية التي كانوا يعيشون في ظلها، بالرغم من أنهم كانوا مقتنعين بشكل كامل بمساوئها. في هذه الظروف، كان طبيعياً أن يتبنوا الاعتقاد القائل بأنه من الممكن أن يكون الفرد مثالياً في عالم لا مثالي، وأنه لا يوجد علاقة بين الحياة الجيدة وهذا العالم. قد يصبح ما أقوله واضحاً بالمقارنة مع جمهورية أفلاطون. عندما أراد أفلاطون أن يصف الحياة الجيدة، وصف المجتمع بأكمله، وليس الفرد؛ وقد فعل ذلك كي يعرّف العدالة، وهي في جوهرها مفهوم اجتماعي. كان معتاداً على مواطني الجمهورية، الذين اعتبروا المسؤولية السياسية مسلّماً بها. مع فقدان الإغريق لحريتهم نشأت الرواقية، التي كالمسيحية، وعلى النقيض من أفلاطون، كان لديها مفهوم فرداني حول الحياة الجيدة.

نحن الذين ننتمي إلى ديمقراطياتٍ عريقة، يجب أن نجد أن أخلاق أثينا الحرة أكثر ملائمة لنا من طغيان الإمبراطورية الرومانية. في الهند، حيث الظروف السياسية مشابهة ليهودا زمن المسيح، نجد غاندي يعظ بأخلاق تشبه كثيراً أخلاق يسوع، ويعاقب عليها من قبل الورثة المسيحيين لبيلاطس النبطي. ولكن الهنود الوطنيين الأكثر تطرفاً لا يوافقون على مذهب الخلاص الفردي: إنهم يريدون الخلاص الوطني. في هذا الأمر لقد تبنوا وجهة نظر الديمقراطيات الحرة في الغرب. أود

أن أشير إلى بعض النقاط المتعلقة بوجهة النظر هذه، والتي تحت تأثير المسيحية، ليست واضحة ومفهومة بشكل كاف، بل ما تزال مشوشة بسبب الإيمان بالخلاص الفردي.

الحياة الجيدة، كما أفهمها، تتطلب بعض الشروط الاجتماعية، ولا يمكن تحقيقها ما لم تتوفر هذه الشروط. الحياة الجيدة، كما قلنا، يلهمها الحب وتقودها المعرفة. لا يمكن أن توجد المعرفة المطلوبة إلا إذا كرست الحكومات أو الأغنياء أنفسهم من أجل اكتشافها ونشرها. على سبيل المثال: يشكل انتشار السرطان خطراً، ما الذي يجب فعله حيال ذلك؟ في هذه اللحظة، لا يستطيع أحد الإجابة بسبب نقص المعرفة، وليس من المرجح أن تأتي هذه المعرفة إلا عن طريق الأموال التي نخصصها للأبحاث. وأيضاً يجب أن يتمكن أولئك الذين يرغبون في المعرفة العلمية والتاريخية والأدبية والفنية من إحرازها، وهذا يتطلب نظاماً محكماً تشرف عليه السلطات العامة وليس نوعاً ما من الاهتداء الديني. ثم لدينا التجارة الخارجية، التي بدونها سوف يعاني نصف سكان بريطانيا العظمى من الجوع؛ وإذا كنا نعاني من الجوع فإن قلّة صغيرة فقط منا ستتمكن من أن تحيا حياةً جيدة. ليس ضرورياً أن نعطي الكثير من الأمثلة. الأمر المهم هو التالي: من بين كل الأمور التي تميز الحياة الجيدة عن تلك السيئة، فإن العالم عالم واحد، والمرء الذي يتظاهر بأنه يحيا مستقلاً هو طفيلي إن أدرك ذلك أم لا.

فكرة الخلاص الفردي، التي واسى المسيحيون الأوائل أنفسهم بها بسبب خضوعهم السياسي، تصبح مستحيلة ما أن نتخلص من المفهوم

الضيق جداً للحياة الجيدة. في المفهوم المسيحي التقليدي، الحياة الجيدة هي الحياة الفاضلة، والفضيلة تكمن في إطاعة إرادة الله، وتظهر إرادة الله لكل فرد من خلال صوت الضمير. هذا المفهوم بأكمله هو لأولئك البشر الخاضعين لطغيان أجنبي. تتضمن الحياة الجيدة الكثير من الأشياء، بالإضافة إلى الفضيلة، كالذكاء مثلاً. والضمير هو الدليل الأكثر خداعاً، بما أنه يتألف من ذكريات غامضة لأفكار تم سماعها أثناء الطفولة، ولذا فليس الضمير أكثر حكمة من مربية أو والدة هذا الشخص. لكي يحيا المرء حياة جيدة بكل معنى الكلمة يجب أن يحصل على تربية جيدة، على الأصدقاء، على الحب، على الأبناء (إذا رغب في ذلك)، على دخلٍ كافٍ كي لا يشعر بالحاجة والقلق المزعج، على الصحة الجيدة، وعلى عمل ممتع. كل هذه الأمور، وبدرجات مختلفة، تعتمد على المجتمع، ونقترب أو نبتعد عنها بحسب الأوضاع السياسية. يجب أن تحيا الحياة الجيدة في مجتمع جيد ولا يمكن التمتع بها بشكل كامل بأية طريقة أخرى.

هذا هو الخطأ الأساسي في المثل الأرستقراطي. إن أموراً جيدة محددة، كالفن والعلم والصداقة يمكن أن تزدهر بشكل جيد في المجتمع الأرستقراطي. لقد رأينا هذه الأمور في اليونان قائمة على قاعدة العبودية، وفي مجتمعنا على قاعدة الاستغلال. ولكن الحب، على نمط التعاطف، أو النزعة نحو الخير، لا يمكن أن يوجد بحريّة في المجتمع الأرستقراطي. على الأرستقراطي أن يقنع نفسه أن العبد أو البروليتاري أو الرجل الملوّن من طينةٍ أدنى، وأن عذابه لا يعني شيئاً. في أيامنا هذه، يجلد السادة الإنكليز المهذبون الأفارقة بطريقة وحشية بحيث يموتون

بعد عدة ساعات من ألم مبرح لا يمكن وصفه. حتى لو كان هؤلاء السادة مثقفين بشكل جيد، ويتمتعون بذوقٍ فني عالٍ، ويتحدثون ببراعة، لا أستطيع الاعتراف بأنهم يحيون حياة جيدة. تفرض الطبيعة البشرية بعض الحدود على التعاطف، ولكن ليس إلى هذه الدرجة. في مجتمع ذي عقلية ديمقراطية، المجنون فقط سيتصرف بهذه الطريقة. تشكل حدود التعاطف للمثال الأرستقراطي إدانة لهذا المثال. الخلاص مثال أرستقراطي، لأنه فرداني. لهذا السبب فإن فكرة الخلاص الفردي، كيفما تم تأويلها وتوسيعها، لا تستطيع أن تكون تعريفاً للحياة الجيدة.

هنالك صفة مميزة أخرى للخلاص هي أنه ينتج من تغييرات مأساوية، كما في استنارة القديس بولس. تقدم قصائد شيللي مثالاً على هذا المفهوم عند تطبيقه على المجتمعات؛ تأتي اللحظة التي يهتدي فيها المجتمع، حيث تنتهي الفوضى، و«العصر الجديد للعالم يبدأ من جديد». قد يقال إن الشاعر شخصٌ غير هام وأن لا أحد يستمع إليه. ولكنني مقتنع بأن نسبة كبيرة من القادة الثوريين كانت لهم أفكار تشبه كثيراً أفكار شيللي. لقد اعتقدوا أن سبب البؤس والوحشية والانحطاط يكمن في الكهنة أو الرأسماليين أو الطغاة أو الألمان، وأنه إذا تم التخلص من مصادر الشر هذه فسوف يحدث تغيير شامل في القلب وسوف نعيش في سعادة أبدية. وبإيمانهم هذا، فقد أرادوا أن يشنوا «حرباً تنهي الحروب». كان الذين هزموا أو ماتوا محظوظين نسبياً، أما الذين جعلهم سوء الحظ ينتصرون فقد تحولوا إلى اليأس والكلبية لفشلهم في تحقيق آمالهم المتوهجة. المصدر الأساسي لهذه الآمال كان التعليم المسيحي القائل بالاهتداء المأساوي.

لا أود القول إن الثورات غير ضرورية أبداً، ولكنني أود القول إنها ليست طرقاً مختصرة إلى العصر الذهبي. لا يوجد طريق مختصرة إلى الحياة الجيدة، بالنسبة إلى الفرد أو المجتمع. للوصول إلى الحياة الجيدة، يجب أن نتمتع بالذكاء وضبط النفس والتعاطف. ذلك أمر كميّ، يتعلق بالتحسّن التدريجي، بالتدريب المبكر، وبالخبرة التربوية. التهور فقط يولد الإيمان بإمكانية التحسّن المفاجئ. إمكانية التحسن التدريجي والطرق التي تؤدي إليه هما موضوعان للعلم في المستقبل. ولكن هنالك ما يمكن قوله الآن. بعض ما نستطيع قوله سوف أشير إليه في القسم الأخير.

العلم والسعادة

غاية الأخلاقي تحسين سلوك البشر. إنه طموح مجيد، بما أن سلوكهم يدعو للأسف في معظم الأحيان. ولكنني لا أستطيع أن أثني على الأخلاقي سواء فيما يتعلق بالتحسينات الخاصة التي يرغب فيها أو بالطرق التي يتبناها لإحراز تلك التحسينات. يزعم الأخلاقي أن طريقته هي النصائح الأخلاقية، أما طريقته الحقيقية (إذا كان تقليدياً) فهي منظومة اقتصادية من المكافآت والعقوبات. ليس للطريقة الأولى أية تأثيرات هامة أو دائمة، كان تأثير الوعّاظ، من سافونارولا فصاعداً، عابراً دوماً. أما الطريقة الثانية، المكافآت والعقوبات، فلها تأثيرات هامة. فهي تجعل الرجل، على سبيل المثال، يفضل العلاقات السريعة مع العاهرات على التزام طول الأمد مع العشيقة، لأنه يجب أن يبحث عن الطريق التي يستطيع إخفاءها بسهولة. ويؤدي ذلك إلى وجود

أعداد كبيرة ممن يعملون بمهن في منتهى الخطورة وإلى انتشار الأمراض التناسلية. وليست هذه هي الأهداف التي يرغبها الأخلاقي، ولكنه غير علمي تماماً إلى درجة أنه لن يلاحظ أن هذه هي الأهداف التي يحرزها.

هل يوجد ما هو أفضل لكي نستبدل به هذا الخليط غير العلمي من الوعظ والرشوة؟ أعتقد أنه يوجد سبيل أفضل.

أفعال البشر مؤذية إما بسبب الجهل أو الرغبات السيئة. نستطيع تعريف الرغبات «السيئة»، من وجهة النظر الاجتماعية، بأنها تلك التي تميل إلى إحباط رغبات الآخرين، أو، بشكلٍ أدق، تلك التي تحبط عدداً أكبر من الرغبات من تلك التي تساعد على تحقيقها. ليس ضرورياً أن نبحث في الأذى الذي ينبع من الجهل؛ هنا، كل ما هو مطلوب أن نعرف أكثر، لذا فالطريق إلى التحسن يكمن في مزيدٍ من الأبحاث ومزيد من التربية. ولكن الأذى الذي ينبع من الرغبات السيئة هو أمر أصعب.

يوجد مقدار معين من الحقد الفعال داخل الرجل العادي والمرأة العادية، على شكل النية السيئة الموجّهة إلى أعداء محددين والمتعة اللاشخصية العامة التي يشعر بها الفرد تجاه مصاعب الآخرين. يجري عادة تغطية هذه المشاعر بعبارات مناسبة؛ تشكل نصف الأخلاق التقليدية تقريباً عباءة لذلك. ولكن يجب مواجهة هذا الحقد إذا أردنا تحقيق هدف الأخلاقي في تحسين أفعالنا. نجد هذا الحقد بألف طريقة، كبيرة وصغيرة: في مرح الناس عندما يصدقون ويكررون الفضائح، في المعاملة السيئة للمجرمين على الرغم من البرهان الواضح أنّ معاملة أفضل سوف تكون أكثر تأثيراً في إصلاحهم، في البربرية غير المعقولة

التي تعامل بها العروق البيضاء الزنوج، وفي الحيوية البالغة التي يتكلم بها العجائز والكهنة حول واجب الخدمة العسكرية للشباب أثناء الحرب. حتى الأطفال قد يكونون عرضةً لوحشية جائرة: لم يكن ديفيد كوبرفيلد وأوليفر تويست من صنع الخيال. هذا الحقد الفعال أسوأ مظهر للطبيعة البشرية وهو ما يجب تغييره حتماً إذا أردنا أن نصنع عالماً أفضل. وهو غالباً السبب الرئيس للحروب أكثر من الأسباب الاقتصادية والسياسية معاً.

كيف نستطيع التخلص من الحقد؟ لنحاول أولاً أن نفهم أسباب هذا الحقد. أعتقد أن جزءاً من هذه الأسباب اجتماعي، والجزء الآخر فيسيولوجي. العالم، الآن كما كان في أية فترة ماضية، قائم على صراع الموت والحياة، لقد كان السؤال أيام الحرب هل يجب أن يموت أطفال الألمان أو الحلفاء من الحاجة والجوع (بغض النظر عن الحقد بين الطرفين، لا يوجد أدنى سبب يمنع الأطفال في الجهتين من الحياة). لدى معظم الناس في خلفية تفكيرهم خوفٌ متواصل من الدمار، ويصح هذا بخاصة على من لديهم أطفال. يخاف الأغنياء أن يصادر البلاشفة أملاكهم؛ يخاف الفقراء من خسارة أعمالهم أو صحتهم. الجميع مشغولون بالمطاردة المسعورة لـ «الأمان» ويعتقدون أنهم سيحصلون عليه بإبقاء أعدائهم الافتراضيين في حالة خضوع. في لحظات الرعب تصبح القسوة أكثر انتشاراً وأكثر وحشية. تلجأ الرجعية في كل مكان إلى الخوف: في إنكلترا، الخوف من البلاشفة؛ في فرنسا، الخوف من ألمانيا، في ألمانيا، الخوف من فرنسا. والتأثير الوحيد لذلك هو زيادة الخطر الذي يتمنون زواله.

لذلك يجب أن تكون أحد الاهتمامات الرئيسة للأخلاقي العلمي أن يحارب الخوف. ونستطيع تحقيق ذلك بطريقتين: بزيادة الأمان وبصقل الشجاعة. أتكلم عن الخوف كشعور لا عقلاني، لا كتوقع عقلاني لمصيبة محتملة. عندما يشب حريق في مسرح، يتوقع الرجل العاقل الكارثة تماماً كالرجل المصاب بالرعب، ولكنه يسلك السبيل الذي يخفف من الكارثة، بينما الرجل المصاب بالرعب يزيد منها. أوروبا منذ عام 1914 تشبه الجمهور المصاب بالرعب في مسرح مشتعل؛ المطلوب هو الهدوء، وتعليمات موثوقة حول كيفية النجاة دون أن ندوس على بعضنا البعض. العصر الفيكتوري، مع كل خداعه، كان عصراً من التقدم السريع، لأن الأمل، لا الخوف، كان يسيطر على البشر. إذا أردنا التقدم مرة أخرى، يجب أن يسيطر الأمل ثانية.

كل الأمور التي تزيد من الأمان العام تقلل من الوحشية. وهذا ينطبق على التخلص من الحروب، سواء بواسطة عصبة الأمم أو بأية طريقة أخرى؛ وعلى التخلص من الفقر؛ وعلى الحصول على صحة أفضل عن طريق تحسين الطب، علم الصحة، وتعزيز الصحة العامة؛ وعلى كل الطرق التي تقلل من المخاوف التي تختبئ في أعماق الناس وتظهر في كوابيسهم عند النوم. ولكن لا يمكن تحقيق أي شيء إذا أردنا زيادة الأمان للبعض على حساب البعض الآخر: الفرنسيين على حساب الألمان، الرأسماليين على حساب العمال، البيض على حساب الصفر، وهكذا. سوف يؤدي ذلك إلى زيادة الرعب عند الجماعة المسيطرة، وزيادة الاستياء الذي يقود المحكومين إلى الثورة. العدالة وحدها تؤدي

إلى الأمان، وأقصد بـ«العدالة» الاعتراف بالحقوق المتساوية لجميع البشر.

بالإضافة إلى التغيرات الاجتماعية المقترحة لزيادة الأمان، يوجد طريقة أخرى مباشرة بشكل أكبر للتقليل من الخوف، وهي الحكومة التي تسعى لزيادة الشجاعة. بسبب أهمية الشجاعة في المعارك، اكتشف البشر مبكراً طرقاً لزيادتها عن طريق التربية والحمية. على سبيل المثال، افترض البعض أن أكل لحوم البشر مفيد. لكن الشجاعة العسكرية كانت امتيازاً للطبقة الحاكمة: الاسبارطيون أشجع من الهلّوت[6]، الضباط الانكليز أشجع من الجنود الهنود، الرجال أشجع من النساء، وهكذا. ولعدة قرون اعتقد الناس أنها امتياز للأرستقراطيين. وقد استخدمت كل زيادة في شجاعة الطبقة الحاكمة لزيادة أعباء المضطهدين، وبالتالي للمحافظة على أسباب الوحشية. يجب دمقرطة الشجاعة قبل أن يكون باستطاعتها جعل البشر إنسانيين.

إلى درجة كبيرة، تمت دمقرطة الشجاعة عن طريق الأحداث الأخيرة. لقد أظهرت المطالبات بمنح المرأة حق الاقتراع أنهن يملكن من الشجاعة ما يملكه أفضل الرجال، وكان عرض القوة هذا جوهرياً في كسبهن لحق الاقتراع. يحتاج الجندي العادي من الشجاعة في الحرب ما يحتاجه النقيب أو الملازم، وأكثر مما يحتاجه اللواء؛ ويعود هذا إلى عدم خدمته بعد تسريحه. البلاشفة، الذين يعلنون أنهم أبطال البروليتاريا، لا تنقصهم الشجاعة، مهما قيل عنهم؛ والدليل سجلاتهم ما قبل الثورة. في

6- الهلّوت: عبيد أسبارطة. (م).

اليابان، حيث كان الساموراي يحتكرون الروح العسكرية، نشر التجنيد الإجباري الحاجة إلى الشجاعة بين السكان الذكور. وهكذا، تغيرت الأمور في القوى العظمى في نصف القرن الماضي بحيث لم تعد الشجاعة حكراً على الأرستقراطية: لو كان الأمر مختلفاً عما هو عليه، لكان الخطر على الديمقراطية أكبر بكثير مما هو فعلاً.

ولكن الشجاعة في القتال ليست الشكل الوحيد للشجاعة، وربما ليس الأهم. هنالك الشجاعة في مواجهة الفقر، الشجاعة في مواجهة السخرية، الشجاعة في مواجهة عداء الجمهور الذي ينتمي إليه المرء. في هذه الحالات، غالباً ما يفشل أشجع الجنود بشكل مؤسف. وفوق كل شيء هنالك الشجاعة في التفكير بشكل عقلاني وهادئ في مواجهة الخوف، وفي التحكم بدوافع الخوف المستعر والغضب المستعر. تساعد التربية بالتأكيد على امتلاك هذه المزايا. ويصبح تعليم كل أشكال الشجاعة أسهل بوجود الصحة الجيدة، الجسم الصحيح، التغذية الملائمة، والانطلاق الحر للدوافع الحيوية الأساسية. ربما نتمكن من اكتشاف الدوافع الفيسيولوجية للشجاعة بالمقارنة بين دم القطط ودم الأرانب. في كل الأمور المشابهة لا يوجد حدود لما يستطيع العلم فعله لزيادة الشجاعة، وكأمثلة لدينا: تجريب الخطر، الحياة الرياضية؛ والحمية المناسبة. إلى درجة كبيرة يتمتع أبناء الطبقة العليا بهذه الأمور، ولكنها ما تزال امتيازاً للأغنياء. إن الشجاعة التي يتم حث الطبقات الفقيرة من المجتمع عليها هي الشجاعة بناءً على الأوامر، وليست من ذلك النوع الذي يتضمن المبادرة والقيادة. عندما تصبح المزايا التي تمنح القيادة متوفرة للجميع، لن نجد قادةً وأتباعاً، وسنصل إلى الديمقراطية أخيراً.

لكن الخوف ليس المصدر الوحيد للحقد، هنالك الحسد وخيبة الأمل أيضاً. يُضرب المثل بحسد الأعرج والأحدب كمصدرٍ للضغينة، ولكن مصائب أخرى تؤدي إلى نتائج مشابهة. إن الرجال أو النساء غير القادرين على ممارسة الجنس يشتعلون حسداً، وعادةً ما يأخذ هذا شكل الإدانة الأخلاقية للآخرين. معظم القوى المحركة للحركات الثورية ناشئة عن حسد الناس للأغنياء. الغيرة، بالطبع، نوع خاص من الحسد: حسد الحب. يحسد العجائز الشباب؛ وعندما يفعلون ذلك، فهم مرغمون على معاملتهم بقسوة.

لا يوجد، على حد علمي، طريقة لمعالجة الحسد إلا بجعل حياة الحسودين أسعد وأكثر امتلاءً، وأن نشجع الشباب على فكرة المشاريع الجماعية بدلاً من التنافس. نجد أسوأ أشكال الحسد عند أولئك الذين لا يجدون حياة مليئة في الزواج، أو الأولاد، أو العمل. نستطيع تجنب معظم هذه المصائب عن طريق مؤسسات اجتماعية أفضل. مع ذلك، يجب أن نعترف أنه من المرجح أن تبقى بعض رواسب الحسد.

يوجد أمثلة عديدة في التاريخ عن جنرالات يغارون من بعضهم البعض لدرجة أنهم يفضلون الهزيمة على تعزيز سمعة منافسيهم. قائدَين لحزب سياسي، أو فنانَين من نفس المدرسة سوف يغاران من بعضهما بالتأكيد. في حالاتٍ كهذه، يبدو أننا لا نستطيع فعل شيء إلا أن نضمن، قدر الإمكان، ألا يتمكن أحد الطرفين من إيذاء منافسه وألا ينتصر إلا من يستحق ذلك عن جدارة. عادةً لا تسبب غيرة الفنان الكثير من الأذى، لأن الطريقة الوحيدة الفعالة لإشباع رغباته هي برسم لوحاتٍ

أفضل من منافسه، بما أنه لا يستطيع تدمير لوحات منافسه. عندما لا نستطيع تجنب الحسد يجب استخدامه كحافز للجهود الفردية، لا كعائق أمام الآخرين.

لا تقتصر إمكانيات العلم في زيادة سعادة البشر على التقليل من أوجه الطبيعة البشرية التي تؤدي إلى الإحباط المتبادل، والتي لذلك ندعوها بـ«السيئة». على الأغلب لا يوجد حدود لما يستطيع العلم أن يفعله لزيادة الفضائل الإيجابية. لقد تم تحسين الوضع الصحي بشكل كبير؛ على الرغم من مراثي أولئك الذين يقدسون الماضي، فنحن نعيش أطول ونمرض أقل من أية أمة أو طبقة في القرن الثامن عشر. ومع القليل من التطبيقات للمعرفة التي بحوزتنا الآن، نستطيع العيش بشكل أصح مما نحن عليه الآن. والاكتشافات المستقبلية سوف تجعل هذه العملية تتصاعد بشكل كبير.

حتى الآن، كان للفيزياء التأثير الأكبر على حياتنا، ولكن من المرجح مستقبلاً أن تصبح الفيسيولوجيا والسيكولوجيا أكثر فعالية. عندما اكتشفنا كيف تعتمد الشخصية على الأحوال الفيسيولوجية، أصبحنا قادرين، إذا ما أردنا، على إنتاج ذلك النمط من البشر الذي نعجب به. بلا شك يستطيع العلم زيادة الذكاء، المقدرة الفنية، والنزعة نحو الخير. يبدو أنه لا توجد حدود لما يستطيع العلم أن يفعله لإيجاد عالم جيد، فقط إذا استطاع البشر أن يستخدموا العلم بحكمة. لقد عبرت في مكانٍ آخر عن مخاوفي من أن البشر لن يستخدموا القوة التي يمنحهم إياها العلم بحكمة[7].

7- انظر مقالي «إيكاروس».

هنا أبحث في الخير الذي يستطيع البشر تقديمه إذا أرادوا، لا ما إذا كانوا سيختارون الخير.

لدي بعض التعاطف مع موقف معين اتجاه التطبيقات العلمية على حياة البشر، بالرغم من أنني، في التحليل النهائي، لا أوافق عليه. إنه موقف أولئك الذين يخافون مما هو «غير طبيعي». روسو هو طبعاً زعيم هذه الرؤية في أوروبا. في آسيا، شرح لاوتسو رؤيته بشكل أكثر إقناعاً، قبل 2400 سنة. أعتقد أن هناك مزيجاً من الصحة والخطأ في الإعجاب بـ «الطبيعة»، ومن المهم أن نحلل هذا المزيج. لنبدأ بالتالي: ما هي «الطبيعة»؟ بشكل مبسط، هي أي شيء كان المتكلم معتاداً عليه في طفولته. لقد عارض لاوتسو الطرقات والعربات والقوارب، والتي على الأغلب لم يكن أيٌّ منها معروفاً في قريته التي ولد فيها. كان روسو معتاداً على هذه الأشياء ولم ير أنها ضد الطبيعة. ولكنه بلا شك كان سيثور ضد السكك الحديدية لو عاش حتى يراها. الثياب والطبخ عاداتٌ قديمة جداً إلى درجة أنه من غير المعقول أن يستنكرها معظم رسل الطبيعة، بالرغم من أن كليهما موضوعات للأزياء الحديثة. يعتقد البعض، ممن يتسامحون مع التبتّل، أن تحديد النسل عمل شرير، لأن تحديد النسل اعتداء حديث على الطبيعة بينما التبتل اعتداء قديم. في كل هذه الأمور نجد أن أولئك الذين يعظوننا حول «الطبيعة» غير منسجمين مع أنفسهم، ويبدو لي أننا يجب أن نعتبرهم كمحافظين فقط لا غير.

مع ذلك، هنالك بعض الصحة فيما يقولون. لنأخذ مثلاً اكتشاف الفيتامينات، الذي أدى إلى تغيير مفاجىء لمصلحة الطعام «الطبيعي».

بكل الأحوال، يبدو أننا نستطيع الحصول على الفيتامينات من زيت كبد السمك والإضاءة الكهربائية، والتي بالتأكيد ليست جزءاً من الغذاء «الطبيعي» للبشر. توضح هذه الحالة أنه بغياب المعرفة قد يحصل ضرر غير متوقع عن طريق الابتعاد الحديث عن الطبيعة، ولكن عندما نفهم هذا الضرر فنحن نستطيع التخلص منه بالطرق الاصطناعية الحديثة. فيما يتعلق بالمحيط المادي وبالوسائل المادية التي نشبع بها رغباتنا، لا أعتقد أن مذهب «الطبيعة» يبرر أي شيء، إلا حذراً تجريبياً من تبني وسائل جديدة. الثياب، مثلاً، ليست طبيعية ويجب أن يلحق بها ممارسة أخرى غير طبيعية: الغسيل، إذا كنا نريد تجنب الأمراض. ولكن هذه الممارسات تجعل المرء أكثر صحة من الهمجي الذي يرفض تلك الممارسات.

يوجد المزيد مما يجب قوله بالنسبة إلى «الطبيعة» في حقل الرغبات البشرية. أن نفرض على رجل، أو امرأة، أو طفل حياةً تعوق أقوى دوافعهم هو أمر قاسٍ وخطرٍ، بهذا المعنى، نوصي بالحياة وفقاً لـ«الطبيعة» مع بعض التحفظات. لا شيء أكثر اصطناعاً من السكك الكهربائية تحت الأرض، ولكننا لا نؤذي طبيعة الطفل عندما يسافر فيها؛ بل على العكس، يجد معظم الأطفال متعةً في هذه التجربة. الأشياء الاصطناعية التي تشبع رغبات البشر العاديين جيدة، في حال كانت بقية الأمور حيادية. ولكن لا نقول ذلك في مصلحة الحياة الاصطناعية التي نفرضها على البشر عن طريق السلطات أو الضرورات الاقتصادية. بلا شك، هذا الشكل من الحياة ضروري إلى حد ما في زمننا، السفر عبر المحيطات سوف يصبح بمنتهى الصعوبة في حال عدم وجود عمال يحرقون الوقود

في السفن البخارية. ولكن الضرورات من هذه النوع تدعو للأسف، ويجب أن نبحث عن أساليب لتجنبها. إن مقداراً معيناً من العمل لا يدعو للتذمر؛ في الواقع، في تسع حالات من عشر يجعل العمل البشر أكثر سعادة من الكسل الكلي. ولكن نوع ومقدار العمل الذي يفرض على معظم الناس في أيامنا هو شرٌّ بغيض: خصوصاً هذه العبودية طيلة الحياة للروتين. يجب أن تكون الحياة منظّمة وممنهجة بشكل كبير؛ يجب، قدر الإمكان، أن تتمتع دوافعنا عندما لا تكون مؤذية أو مدمرة للآخرين بالحرية الكافية؛ يجب أن نجد إمكانية للمغامرة. يجب أن نحترم الطبيعة البشرية، لأن دوافعنا ورغباتنا هي المادة التي نصنع منها سعادتنا. ليس من المفيد أن نقدم للبشر شيئاً مجرداً ندعوه «جيداً»؛ بل يجب أن نقدم لهم شيئاً يرغبون فيه أو يحتاجونه إذا أردنا أن نزيد سعادتهم. ربما يعلمنا العلم مع مرور الزمن أن نصوغ رغباتنا بشكل لا تتصارع فيه مع رغبات الآخرين كما هو الحال الآن، وبالتالي نستطيع أن نشبع نسبة أكبر من رغباتنا. بهذا المعنى، وبهذا المعنى فقط، سوف تصبح رغباتنا «أفضل». إن رغبة مفردةً ليست أفضل ولا أسوأ من غيرها، إذا أُخذت بشكل منعزل؛ لكن مجموعة من الرغبات أفضل من مجموعة أخرى إذا استطعنا إشباع كل رغبات المجموعة الأولى في وقتٍ واحد، بينما في المجموعة الثانية كانت بعض الرغبات غير متوافقة مع بقية الرغبات. لذلك فالحب أفضل من الكراهية.

من الحمق احترام الطبيعة المادية، يجب أن ندرس الطبيعة المادية بهدف جعلها تخدم أهداف البشر قدر الإمكان، ولكنها تبقى أخلاقياً

لا جيدة ولا سيئة. وعندما تتفاعل الطبيعة البشرية والطبيعة المادية، كما في مسألة زيادة عدد السكان، فليس من الضروري أن نستسلم ونقبل الحروب والأوبئة والمجاعات كسبيل وحيد للتعامل مع الزيادة الكبيرة في نسب المواليد. يرى المتدينون أنه عمل شرير أن نطبّق العلم على الجانب المادي من هذه المشكلة، وأننا يجب أن نطبّق الأخلاق على الجانب البشري ونمارس التقشف. بغض النظر عن أن الجميع، بما فيهم المتدينون، يعلمون أن نصيحتهم غير فعالة، لماذا سيكون تبني الوسائل المادية لمنع الحمل عملاً شريراً إذا كان سيحل مشكلة السكان؟ لا يقدم أحد لنا جواباً إلا ذلك الجواب الذي يستند على العقائد القديمة. ومن الواضح أن الضرر الذي يلحقه المتدينون بالطبيعة البشرية هو على الأقل على نفس الدرجة من الذي يقوم به أولئك الذين يدعون إلى تحديد النسل. يفضل المتدينون الإساءة للطبيعة البشرية، والذي، عند نجاحه، يؤدي إلى اللاسعادة، الحسد، الميل للاضطهاد، وغالباً الجنون. أنا أفضل «الإساءة» للطبيعة المادية والذي هو من نفس النوع الذي نراه في المحرك البخاري أو حتى في استخدام المظلة. يوضح هذا المثال مدى الغموض والشك في تطبيق مبدأ اتباع «الطبيعة».

الطبيعة، بما فيها الطبيعة الإنسانية، سوف تصبح بشكل كبير مجرد قاعدة، وستتحول مع الزمن إلى ما تريده المعالجة العلمية. يستطيع العلم، إذا أردنا، أن يجعل أحفادنا يعيشون الحياة الجيدة، بإعطائهم المعرفة، التحكم الذاتي، والمزايا الناتجة عن التناغم بدلاً من الصراع. في أيامنا يدرّس العلم أطفالنا كيف يقتلون بعضهم البعض، لأن العديد من رجال

العلم يفضلون التضحية بمستقبل البشرية على مصلحتهم الحالية. ولكن هذه الحال سوف تنتهي عندما يستطيع البشر السيطرة على عواطفهم كما سيطروا على القوى المادية للعالم الخارجي. عندها سنكتسب حريتنا أخيراً.

لماذا لست مسيحياً؟

ألقيت هذه المحاضرة في السادس من آذار عام 1927، في قاعة باتريسيا تاون برعاية للجمعية الوطنية العلمانية، فرع جنوب لندن.

كما أخبركم رئيس مجلسكم، الموضوع الذي سأتكلّم فيه الليلة هو «لماذا لست مسيحياً؟» قد يكون من الأفضل في البداية، أن أحاول توضيح ما الذي يعنيه المرء بكلمة «مسيحي». تُستخدم هذه الكلمة في أيامنا هذه بمعنى فضفاض من قبل البعض. بعض الناس لا يقصد بها أكثر من الشخص الذي يحاول أن يحيا حياةً جيدة. بهذا المعنى أعتقد أنه يوجد مسيحيون في كل الشيع والعقائد، ولكنني لا أعتقد أن هذا هو المعنى المناسب للكلمة، لأن هذا المعنى يتضمن أن كل الأشخاص غير المسيحيين أي أن كل البوذيين، الكونفوشيوسيين، المحمديين، لا يحاولون أن يحيوا حياة جيدة. أنا لا أقصد بكلمة مسيحي أي شخص يحاول أن يحيا بشكل لائق تبعاً لإيمانه. أعتقد أنك يجب أن تؤمن بشكل

محدد ببعض التعاليم قبل أن تملك الحق بأن تدعو نفسك مسيحياً. ليس لكلمة مسيحي معنى دقيق تماماً الآن كما كانت أيام القديس أوغسطين والقديس توما الإكويني. في تلك الأيام، عندما يقول المرء أنه مسيحي سيُعرف ما الذي يقصده: أنه يقبل مجموعة كاملة من العقائد التي وضعت بشكل دقيق للغاية، وأنه يؤمن بكل جزء من هذه العقائد بقناعة كاملة.

ما هو المسيحي؟

في أيامنا هذه هنالك بعض الغموض فيما يتعلق بالمعنى الذي نعطيه للمسيحية. مع ذلك، أعتقد أنه يوجد أمران مختلفان، جوهريان، لأي شخص كي يدعو نفسه مسيحياً. الأول من طبيعة دوغمائية، وهو أن تؤمن بالله وبالخلود. إذا لم تؤمن بهما فلا أعتقد أنه من المناسب أن تسمي نفسك مسيحياً. وبعد ذلك، كما يشير الاسم، يجب أن يكون لديك نوع من الإيمان يتعلق بالمسيح. المحمديون مثلاً، يؤمنون أيضاً بالله وبالخلود، ولكنهم لا يسمون أنفسهم مسيحيين. أعتقد أنك يجب أن تؤمن على الأقل أن المسيح، إن لم يكن ذا طبيعة إلهية، فهو أفضل البشر وأكثرهم حكمة. إذا لم تؤمن بهذا عن يسوع، فلا أعتقد أنك تملك الحق أن تدعو نفسك مسيحياً. بالطبع، هنالك معنى آخر للمسيحي، والذي ستجده في تقويم وايتكر وفي كتب الجغرافية، حيث يقسم سكان الأرض إلى مسيحيين، بوذيين، محمديين، عبدة الأصنام وغيرهم، وبهذا المعنى فكلنا مسيحيون. كتب الجغرافية تعتبرنا مسيحيين، ولكن هذا بالمعنى الجغرافي

فقط، وأعتقد أننا نستطيع تجاهله. ولذلك عندما أخبركم لماذا لست مسيحياً فعليّ أن أشرح لكم أمرين مختلفين: الأول لماذا لا أؤمن بالله وبالخلود، والثاني، لماذا لا أعتقد أن المسيح أفضل البشر وأكثرهم حكمة، على الرغم من أنني أسلّم بأنه يمتلك درجة عالية من الخير الأخلاقي.

لكن كرمى للمحاولات الناجحة لغير المؤمنين في الماضي، فلا أستطيع أن أعتمد تعريفاً مرناً كهذا للمسيحية. كما ذكرت سابقاً في الأيام الماضية كان للمسيحية تعريف أوضح. على سبيل المثال، كان يتضمن الإيمان بالجحيم. كان الإيمان بالعذاب الأبدي في جهنم أساسياً للإيمان المسيحي حتى عصور متقدمة. في هذا البلد، كما تعلمون، لم يعد هذا الإيمان أساسياً بسبب قرار مجلس شورى الملك، بسبب هذا القرار انشق رئيس أساقفة يورك، ولكن ديننا في هذا البلد يُنظّم عن طريق البرلمان، لذلك فمجلس الشورى كان قادراً على تجاوز رؤساء الأساقفة ولم يعد الإيمان بالجحيم ضرورياً للمسيحي. لذا لن أصر على اعتبار الإيمان بالجحيم أساسياً للمسيحي.

وجود الله

بالنسبة إلى السؤال المتعلق بوجود الله، فهو سؤال كبير وجدّي، وإذا أردت معالجته بشكل وافٍ فسوف أبقيكم هنا إلى أن يأتي ملكوت السموات، لذا فيجب أن تعذروني إذا عالجت الموضوع بطريقة مختصرة. تعلمون، بالطبع، أن الكنيسة الكاثوليكية قد قررت بشكل دوغمائي أن وجود الله يمكن أن يبرهن عليه عن طريق العقل لا غير. وبمعنى ما فهذه

دوغما غريبة، ولكنها إحدى دوغماتهم. كان على الكنيسة أن تتقدم بهذا الطرح لأنه في وقت ما تبنى المفكرون الأحرار القول أن هناك عدة براهين يستطيع العقل الخالص أن يجادل بها ضد وجود الله، ولكنهم يعرفون بالطبع أن الله موجود لإيمانهم بذلك. استمرّت المجادلات والنقاشات زمناً طويلاً، وشعرت الكنيسة الكاثوليكية أنها يجب أن توقفها. لذلك فقد قررت أن وجود الله يمكن أن يبرهن عليه بالعقل لا غير وكان عليها أن توضح ما الذي تراه براهين هذا الإقرار. يوجد بالطبع العديد من هذه البراهين، ولكنني لن أناقش إلا بعضاً منها.

برهان المسبب الأول

ربما كان البرهان الأسهل والأبسط للفهم هو برهان المسبب الأول. (يؤكد البرهان أن كل شيء نراه في العالم له سبب، وكلما عدت إلى الخلف في سلسلة الأسباب أبعد فأبعد، يجب أن تصل إلى المسبب الأول، وللمسبب الأول سوف تعطي اسم الله). هذا البرهان، كما أعتقد، ليس له وزن كبير في أيامنا، لأنه في المقام الأول، لم يعد السبب ما كانه في الماضي. الفلاسفة ورجال العلم قد قفزوا فوق مفهوم السبب، ولم يعد له نفس الشرعية التي كانت له؛ ولكن، وبغض النظر عن هذا الأمر، نستطيع أن نرى أن المجادلة بوجود مسبب أول ليست صحيحة. أستطيع القول إنني عندما كنت شاباً وكنت أناقش هذه الأسئلة بجدية كبيرة في ذهني، قد قبلت هذا البرهان حول المسبب الأول، إلى أن قرأت، في الثامنة عشرة من عمري، السيرة الذاتية لجون ستيوارت مل، حيث وجدت هذه العبارة: «علمني

أبي أن سؤال (من خلقني؟) لا يمكن الإجابة عليه، بما أنه يفترض فوراً السؤال التالي (من خلق الله؟)». هذه العبارة البسيطة جعلتني أرى، وما زلت على هذا الرأي، أن برهان المسبب الأول خاطىء. إذا كان يجب أن يكون لكل شيء علة فيجب أن يكون للإله علّة. إذا كان من الممكن وجود أي شيء ليس له علة، فمن الممكن أن يكون هذا الشيء العالم كما يمكن أن يكون الله، لذا فلا شرعية لهذا البرهان. إنه بالضبط من نفس طبيعة رؤية الهندوس، التي ترى أن العالم يتموضع فوق خيل يتموضع بدوره فوق سلحفاة، وعندما تسأل: «ماذا عن السلحفاة؟» يردّ الهندي: «افترض أننا غيرنا الموضوع». البرهان حقيقةً ليس بأفضل من هذا. لا يوجد أي سبب كي لا يكون العالم قد وجد دونما سبب؛ ولا يوجد أيضاً، من ناحيةٍ أخرى، أي سبب كي لا يكون العالم قد وجد دائماً. لا يوجد أي سبب لافتراض أن العالم له بداية. الفكرة القائلة أن لكل شيء بداية هي بحق ناتجة عن فقر مخيلتنا. لذلك، ربما يجب ألا نهدر أي وقت إضافي على برهان المسبب الأول.

برهان القانون الطبيعي

ثم هناك برهان شائع جداً مستمد من القانون الطبيعي. وكان هذا البرهان هو المفضّل طيلة القرن الثامن عشر، بخاصة تحت تأثير السيد اسحق نيوتن ونظريته في نشوء الكون. راقب الناس الكواكب تدور حول الشمس تَبعاً لقوانين الجاذبية، واعتقدوا أن الله قد أعطى أمراً لهذه الكواكب كي تتحرك بهذا الشكل المحدّد، ولهذا تحركت الكواكب. كان

هذا بالطبع، شرحاً بسيطاً وملائماً يتفادى عبء البحث عن تفسيرات أعمق لقانون الجاذبية. في أيامنا نفسر قانون الجاذبية بطريقة معقدة أتى بها أينشتاين. لا أنوي أن أعطيكم محاضرة حول قانون الجاذبية، بحسب تفسير أينشتاين، لأن هذا سوف يستغرق بعض الوقت. بكل الأحوال، ليس لديكم نفس القانون الطبيعي الذي كان لديكم في نظام نيوتن، حيث لسبب ما لم يستطع أحد فهمه، تتصرف الطبيعة بشكل متّسق. لقد وجدنا الآن أن أشياء كثيرة كنا نعتقد أنها قوانين طبيعية هي في الحقيقة مواضعات إنسانية. تعلمون أنه حتى في أبعد أعماق الفضاء، تبقى ثلاثة أقدام مساوية لياردة واحدة. وهذه دون شك واقعة جديرة بالملاحظة، ولكنك بصعوبة سوف تسميها قانوناً طبيعياً. إن أشياء كثيرة من هذا القبيل قد اعتبرت قوانين طبيعية. من جهة أخرى، حين تحصل على أية معرفة حول كيفية تصرف الذرات، سوف تجد أنها أقل خضوعاً للقوانين مما يظن الناس، وأن القوانين التي نصل إليها هي نتائج تقريبية استاتيكية من النوع الذي يظهر تماماً بالمصادفة. هنالك، كما نعلم جميعاً، قانون يقول إنه إذا رميت نرداً تحصل على رقم ستة مضاعفاً مرةً واحدةً من أصل ست وثلاثين محاولة، ونحن لا نعتبر هذا كدليل على أن سقوط النرد منظم وفق تصميم؛ على العكس، إذا حصلنا على رقم ستة مضاعفاً كل مرة سنعتقد بأن ذلك نتيجة تصميم ما. معظم قوانين الطبيعة هي من هذا النوع. يوجد نتائج تقريبية استاتيكية مثل الذي تظهر في قوانين الاحتمال، وهذا يجعل كل عمل القانون الطبيعي أقل تأثيراً مما كان سابقاً. بغض النظر عما سبق، والذي يصور الوضع الحالي للعلم، والذي يمكن أن يتبدل في المستقبل، فإن الفكرة بأن القانون الطبيعي يتطلب مشرّعاً

هي نتيجة للخلط بين القوانين الطبيعية والقوانين الإنسانية. القوانين الإنسانية تأمرك بأن تتصرف بشكل محدد، بحيث يمكنك الاختيار بين أن تتصرف وفقها، أو يمكنك الاختيار بأن لا تتصرف وفقها، ولكن القوانين الطبيعية هي وصف لكيفية سلوك الأشياء في الواقع، ولا تستطيع أن تجادل في وجوب وجود شخص ما قد أمرها بأن تفعل ذلك، لأنه حتى لو افترضت أن هناك من يأمرها، فحينها سوف تواجه السؤال «لماذا فرض الله هذه القوانين الطبيعية وليس غيرها؟» إذا قلت أنه فرضها لمتعته الخيّرة فقط، وبدون أي سبب، فسوف تجد أن هناك شيئاً ما ليس خاضعاً لقانون، وهكذا فإن سلسلة القانون الطبيعي سوف تُكسر. إذا قلت، كما يفعل معظم اللاهوتيين، أن الله يملك سبباً كي يفرض كل قوانينه عوضاً أن يفرض قوانيناً أخرى، والسبب طبعاً هو خلق العالم الأفضل، بالرغم من أنك لن تجد هذا العالم الأفضل، إذا كان هناك سبب للقوانين التي فرضها الله إذاً، فإن الله نفسه خاضع للقانون، ولذلك فلن تجني أية فائدة من تقديم الله كوسيط. فهنالك حقيقةً قانون خارجي وسابق على المراسيم الإلهية، والله لن يخدم هدفك، لأنه ليس المشرّع المطلق. باختصار، كامل البرهان حول القانون الطبيعي لم يعد يملك نفس القوة التي كان يملكها في الماضي. أنا أسافر عبر الزمن في عرضي لهذه البراهين. البراهين التي تستخدم لإثبات وجود الله تغيّر صفاتها مع مرور الزمن. في البداية كانت براهيناً عقليةً صلبةً تجسد مغالطات محددة واضحة. عندما نصل إلى العصور الحديثة تصبح أقل عقلانية وأكثر تأثراً بنوع من الإبهام الأخلاقي.

البرهان المستمد من النظام

الخطوة التالية هي البرهان المستمد من النظام. كلنا نعرف هذا البرهان: كل شيء في العالم قد صنع تماماً بحيث نستطيع أن نعيش في العالم، وإذا كان العالم مختلفاً قليلاً لما استطعنا العيش فيه. هذا هو البرهان المستمد من النظام. في بعض الأحيان يأخذ البرهان شكلاً غريباً. على سبيل المثال، يجادل البعض أن للأرانب ذيولاً بيضاً، كي يسهل علينا صيدها. لا أعرف ما هو رأي الأرانب في هذا. كلكم تعرفون ملاحظة فولتير، وهي أنه من الواضح أن الأنف قد صمم كي يلائم النظارات. هذا النمط من المحاكاة الساخرة لم يعد شائعاً كما كان في القرن الثامن عشر، ولأننا منذ داروين فهمنا بشكل أفضل كيف تتكيف الكائنات الحية مع بيئتها. لم تخلق البيئة كي تناسب الكائنات الحية، بل الكائنات الحية تتغير كي تتناسب مع بيئتها. هذه هي قاعدة التكيف. لا يوجد برهان يخص النظام فيها.

عندما ننظر إلى هذا البرهان المستمد من النظام، سيدهشنا أن الناس تؤمن بأن هذا العالم، بكل ما يحتويه، وبكل نقائضه، هو أفضل ما استطاع الكائن القدير والعليم أن ينتجه بعد ملايين السنين. أنا حقاً لا أستطيع الإيمان بهذا. هل تعتقدون حقاً، أنه لو كنتم الأقدر والأعلم ومعكم ملايين السنين كي تخلقوا عالماً كاملاً، فلن تستطيعوا أن تنتجوا شيئاً أفضل من جماعة الكوكلوكس كلان أو الفاشيين؟ أكثر من ذلك، لو قبلتم قوانين العلم المألوفة، فعليكم أن تفترضوا أن الحياة البشرية والحياة بشكل عام سوف تنتهي على هذا الكوكب ضمن سياقٍ معلوم:

هذه مرحلة قصيرة أثناء عملية اضمحلال النظام الشمسي؛ وفي مرحلة معينة منها تكون الشروط المتعلقة بالحرارة وما إلى ذلك صالحة لحياة البرتوبلازما، وهنالك حياة لوقت قصير من عمر النظام الشمسي. إنكم ترون على القمر هذا النوع من الأشياء الذي تتجه إليه الأرض: شيء ما ميت، بارد، لا حياة فيه.

قيل لي أن هذا النوع من الرؤى يسبب الكآبة وأن الناس في بعض الأحيان يخبرونك أنهم إذا آمنوا بهذا، فلن يستطيعوا الاستمرار بالحياة. لا تصدقوا ذلك، إنه هراء. لا أحد يقلق بشكل جدي بسبب ما سيحصل بعد ملايين السنين. وحتى لو اعتقدوا أنهم قلقون بهذا الشأن فإنهم في الواقع يخدعون أنفسهم. إنهم قلقون حول شيء آخر أكثر دنيوية، أو ربما يكون الأمر عبارة عن عسر هضم لا غير، ولكن لا أحد بشكل جدي سوف يصبح تعيساً بسبب ما سيحدث بعد ملايين السنين من الآن. لذلك، وبالرغم من أنها رؤية متشائمة أن نفترض أن الحياة ستنتهي، على الأقل أنا أعتقد أنها كذلك، رغم أنني في بعض الأحيان عندما أتأمل ما يفعله بعض البشر في حياتهم أعتقد أن هذا نوع من العزاء، إلا أنها لا تجعل الحياة بائسة. إنها فقط تجعلك تحوّل انتباهك إلى أشياء أخرى.

البرهان الأخلاقي للألوهية

نصل الآن إلى مرحلة متقدمة فيما سأسميه التردي العقلاني الذي وقع فيه المؤمنون بوجود الله في مناقشاتهم، ونأتي إلى ما يسمى بالبرهان الأخلاقي لوجود الله. تعلمون جميعاً، بالطبع، أنه كان يوجد في الماضي

ثلاثة براهين للإيمان بوجود الله. تم التخلص منها جميعاً على يد إيمانويل كانط في كتابه نقد العقل المحض، ولكن ما أن تخلص منها، حتى اخترع برهاناً جديداً هو البرهان الأخلاقي، وقد اقتنع به بشكل كامل. لقد كان مثل معظم الناس، في الأمور العقلانية متشككاً، أما في الأمور الأخلاقية فقد آمن ضمنياً بالمبادئ التي تلقاها في حضن أمه. هذا يوضح الأمر الذي أكده المحللون النفسيون، الأهمية العظمى للأحداث المبكرة مقارنة بما يأتي بعدها.

كانط، كما قلت، اخترع برهاناً أخلاقياً جديداً لوجود الله، كان رائجاً بأشكال مختلفة بشكل كبير في القرن التاسع عشر، للبرهان جميع أشكال الصياغات. أحدها القول بأنه لن يوجد صواب وخطأ إلا إن وجد الله. لست مهتماً الآن إن كان هناك فارق بين الصواب والخطأ أو ليس هناك فارق، هذا سؤال مختلف. النقطة التي تهمني الآن هي، إذا كنت واثقاً تماماً بوجود فارق بين الصواب والخطأ، فأنت في الوضع التالي: هل هذا الفارق هو نتيجة لأمر الله أم لا؟ إذا كانت نتيجة لأمر الله إذاً لا يوجد بالنسبة إلى الله نفسه فارق بين الصواب والخطأ، وبالتالي لا يوجد أهمية لمقولة أن الله خيّر. أما إذا قلت، كما يفعل اللاهوتيون، أن الله خيّر، فعليك القول أن الصواب والخطأ مستقلان عن أوامر الله، لأن أوامر الله جيدة وليست سيئة، بغض النظر عن أنه قد أمر بهم. إذا قلت بذلك، فعليك القول ليس أنه بسبب الله قد وجد الصواب والخطأ، بل أنهما في جوهرهما خارجيان عن الله. تستطيع، طبعاً، إن أردت، القول إن هناك قوة إلهية أسمى تأمر الله الذي خلق هذا العالم، أو تستطيع القول بما قال به بعض

الغنوصيين، وهو أمر غالباً ما اعتبرته معقولاً، أن هذا العالم قد خلقه الشيطان في لحظة كان فيها الله غافلاً. هنالك حجة جيدة فيما يتعلق بهذه المقولة الأخيرة، وأنا لست مهتماً بدحضها.

البرهان المتعلق برفع الظلم

يوجد شكل غريب من البرهان الأخلاقي، وهو التالي: يقولون إن وجود الله مطلوب لإحلال العدالة في هذا العالم. في هذا الجزء من الكون الذي نعرفه هنالك مقدار كبير من الظلم، وغالباً ما يعاني الأخيار، وينجح الأشرار، وبصعوبة نحاول أن نفهم ما الذي يزعجنا أكثر في هاتين الواقعتين. ولكن إذا أردنا إحلال العدالة في الكون ككل فعلينا أن نفرض حياةً مستقبلية كي نقيم التوازن مع حياتنا على الأرض. لذا فيجب أن يوجد الله، ويجب أن توجد الجنة والجحيم كي يتم تحقيق العدالة على المدى البعيد. هذا برهان غريب جداً. إذا نظرت للأمر من وجهة نظر علمية، تستطيع القول: «في النهاية، أنا لا أعرف إلا هذا العالم». لا أعرف شيئاً عن بقية الكون، ولكن إلى المدى الذي يستطيع المرء أن يجادل فيه حول الاحتمالات فعلينا القول بشكل ملائم إن هذا العالم هو نموذج واضح، وبما أنه لا يوجد عدالة هنا فإنه لا يوجد عدالة في أي عالم آخر، مثلاً إذا فتحت صندوقاً فيه برتقال، ووجدت أن كل الطبقة العليا من البرتقال سيئة، لن تجادل قائلاً: «البرتقال الموجود في الأسفل حتماً جيد وذلك لتحقيق التوازن»، بل سوف تقول: «على الأغلب سيكون بقية البرتقال سيئ أيضاً»، وهذه هي حقاً الطريقة التي يفكر بها الشخص

العلمي حول الكون. سوف يقول: «نجد في هذا العالم مقداراً كبيراً من الظلم، وبما أن هذا مستمر فهو سبب لافتراض أن العدالة لن تسود في هذا العالم، ولذلك فهي تقدم حجة أخلاقية ضد الألوهية وليس في صالحها». أنا أعلم أن البراهين العقلانية التي حدثتكم عنها ليست هي ما يحرك البشر. ما يدفع البشر للإيمان بالله ليس أي برهان عقلاني على الإطلاق. معظم البشر يؤمنون بالله لأنهم تعلموا أن يؤمنوا به منذ نعومة أظفارهم، وهذا هو السبب الرئيس.

أقوى الأسباب بعد هذا السبب هو الرغبة في الأمان، نوع من الشعور بوجود أخ أكبر يعتني بك. يلعب هذا السبب دوراً عميقاً في رغبة البشر في الإيمان بالله.

شخصية المسيح

أود الآن أن أقول بضع كلمات حول موضوع أعتقد أنه لم يعالج بشكلٍ وافٍ من قبل العقلانيين، وهو هل المسيح أفضل البشر وأكثرهم حكمة؟ عادةً ما يكون من المسلّم به أن علينا جميعاً أن نوافق على هذا. أنا شخصياً لا أوافق. أعتقد أنني أتفق مع المسيح في عدة أمور بشكل أكبر بكثير مما يفعله المسيحيون التقليديون. لا أعرف إذا كنت أستطيع اتباعه إلى نهاية الدرب، ولكنني أستطيع اتباعه أكثر مما يستطيع المسيحيون التقليديون. أنتم تتذكرون أنه قال: «لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر أيضاً». هذه ليست وصية جديدة أو

مبدأ جديد. لقد استعملها لاوتسو وبوذا قبل خمسمئة أو ستمئة سنة من المسيح، ولكن المسيحيين لم يقبلوا هذا المبدأ في حقيقة الأمر. أنا لا أشكك أن رئيس الوزراء الحالي[8]، مثلاً، هو مسيحي مخلص، ولكنني لا أنصح أي منكم أن يذهب إليه ويلطمه على خده. أعتقد أنكم ستجدون أنه يرى أن هذا النص يجب أن يفهم بشكل مجازي.

هنالك نقطة أخرى أعتبرها ممتازة. أنتم تتذكرون أنه قال: «لا تدينوا كي لا تدانوا». لا أعتقد أنكم ستجدون هذا المبدأ مقبولاً في المحاكم القانونية في البلدان المسيحية. لقد عرفت عدداً من القضاة الذين كانوا مسيحيين حقيقيين، ولم يشعر أيّ منهم أنه يتصرف بشكل معاكس للمبادىء المسيحية عندما يصدر أحكامه. كما قال المسيح: «كل من سأل فأعطه. ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه». هذا مبدأ جيد جداً. وقد أخبركم رئيس مجلسكم أننا لسنا هنا كي نتحدّث في السياسة، ولكنني لا أستطيع أن أتجاهل أنه في الانتخابات العامة الأخيرة كانت المعركة تدور حول الرغبة في أن تطالب بما أخذ منك، لذا يظن المرء أن الليبراليين والمحافظين في هذا البلد لا يوافقون على تعاليم المسيح، لأنهم بشكل أساسي يؤكدون على عكس تعاليم المسيح في هذه الحالة.

هنالك حكمة أخرى من تعاليم المسيح أعتقد أنها هامة جداً، لكنني لا أعتقد أنها شعبية جداً بين أصدقائنا المسيحيين. لقد قال: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء». هذه حكمة ممتازة، لكن، كما قلت، لا يعمل بها كثير من الناس. أعتقد أن هذه كلها مبادىء

8- ستانلي بالدوين. (م).

عظيمة، بالرغم من أن هناك بعض الصعوبة في العيش وفقاً لها. أنا لا أدعو للعيش وفقاً لها، ولكن في النهاية، الأمور مختلفة تماماً بالنسبة إلى المسيحيين.

العيوب في تعاليم المسيح

بعد أن ذكرت المبادىء الممتازة، سوف أذكر نقاطاً محددة لا أعتقد أن باستطاعة المرء بعد أخذها بعين الاعتبار، أن يؤمن أن المسيح هو أفضل الحكماء، أو أفضل الأخيار كما تصفه الأناجيل، ومن المناسب هنا أن أشير إلى أنني لستُ مهتماً بالسؤال التاريخي.

من المشكوك به تاريخياً إذا كان المسيح قد وُجد بالأصل، وإذا وجد فنحن لا نعلم شيئاً عنه، لذا فلستُ مهتماً بالسؤال التاريخي، والذي هو سؤال في منتهى الصعوبة. أنا مهتم بالمسيح كما يظهر في الأناجيل، فعندما نأخذ قصص الأناجيل كما هي، سوف يجد المرء بضعة أمور لا تنم عن حكمةٍ كبيرة. أحد هذه الأمور، أنه كان واثقاً أن ظهوره التالي المكلل بالمجد سوف يحصل قبل وفاة جميع البشر الذين كانوا أحياء في ذلك الزمن. يوجد الكثير من النصوص التي تثبت ذلك. لقد قال، مثلاً، «لا تكمّلون مدن اسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان»، ثم قال: «إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته»، وهنالك عدة مواضيع أخرى من الواضح فيها أنه آمن بأن قدومه التالي سيكون أثناء حياة أولئك البشر. كان هذا إيمان أتباعه الأوائل، وكان

أساساً للعديد من تعاليمه. فقوله «لا تفكروا بالغد» وأقوال مشابهة، قيلت بشكل رئيس لأنه اعتقد أن قدومه التالي سوف يكون قريباً جداً، ولذا فكل الأمور الدنيوية غير هامة. وفي الواقع قد عرفت بعض المسيحيين ممن يعتقدون أن القدوم التالي وشيك الحدوث. لقد عرفت شخصاً كان يرعب رعايا الكنيسة بشدة عن طريق إخبارهم أن القدوم التالي للمسيح وشيك جداً، ولكنهم واسوا أنفسهم عندما وجدوا أنه كان يزرع الأشجار في حديقته. المسيحيون الأوائل آمنوا حقاً بهذا، ولذا فقد امتنعوا عن أمور مثل غرس الأشجار في حدائقهم، لأنهم آمنوا بتعاليم المسيح التي تقول أنه سيعود في وقت قريب جداً. فيما يتعلق بهذا الأمر، من الواضح أنه لم يكن بمستوى حكمة غيره من البشر، ومن المؤكد أنه لم يكن ذا حكمةٍ فائقة.

المشكلة الأخلاقية

نأتي بعد ذلك إلى الأسئلة الأخلاقية، هنالك عيب جدي في شخصية يسوع الأخلاقية، وهذا العيب أنه كان يؤمن بالجحيم. أنا شخصياً لا أشعر أن أي شخص إنساني بحق يستطيع الإيمان بعذاب أبدي. المسيح، كما تصوّره الأناجيل، قد آمن بالعذاب الأبدي بالتأكيد، ويجد المرء باستمرار روحاً حاقدة ضد الذين لا يستمعون لوعظه، وهو موقف ليس غريباً عن الواعظين، لكنه أحياناً يقلل من جدارتهم الكاملة. على سبيل المثال، لا تجد مثل هذا الموقف عند سقراط. بل نجده لطيفاً ومهذباً تماماً مع أولئك الذين لا يريدون أن ينصتوا إليه، وهذا، بالنسبة إليَّ، موقف

أكثر حكمةً من ذلك الموقف الساخط. أعتقد أن معظمكم يتذكر ما قاله سقراط عندما كان على فراش الموت، وما كان يقوله لأولئك الذين يخالفونه الرأي.

سوف تجدون أن المسيح قال في الأناجيل: «أيها الحياتُ أولادُ الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنّم»، هذا ما قيل لأولئك الذين كانوا لا يحبون وعظه. لا أعتقد أن هذه هي اللهجة المناسبة، ويوجد الكثير من هذه الأمور بالنسبة إلى الجحيم. يوجد، بالطبع، النص المألوف المتعلق بالخطيئة بحق الروح القدس: «من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي». أدى هذا النص إلى بؤس كبير في العالم، لكل أولئك البشر الذين تخيّلوا أنهم اقترفوا خطيئة بحق الروح القدس، واعتقدوا أنهم لن يُغفر لهم لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر. أنا بحق لا أعتقد أن شخصاً ذا طبيعةٍ مقبولةٍ من اللطف سوف يضع هذا النوع من المخاوف ومن الرعب في العالم.

كما قال المسيح: «يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلي الإثم، ويطرحونهم في أتون النار، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان». ثم يتابع كلامه حول البكاء وصرير الأسنان. يأتي هذا في آية بعد أخرى، ومن الواضح تماماً للقارىء، أن هنالك متعة خاصة في تأمل البكاء وصرير الأسنان، وإلا لما ظهرت باستمرار في الأناجيل. ثم تتذكرون جميعاً ما يتعلق بالخراف والجداء، وكيف أنه في قدومه التالي سوف يفصل الخراف عن الجداء، وكيف سيقول للجداء: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية». ثم يتابع: « فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي»، ثم

يقول مرة أخرى: «وإن أعثرتك يدك فاقطعها. خيرٌ لك أن تدخل الحياة أقْطَعَ من أن تكون لك يدان وتمضي إلى جهنم، إلى النار التي لا تطفأ. حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ». وهو يكرر هذا عدة مرات. يجب أن أقول أنني أعتقد أن كل هذا التعليم، أي أن نار جهنّم عقوبة الخطيئة، هو تعليم للوحشية. هذا التعليم جلب الوحشية إلى هذا العالم وقدّم لأجيال العالم تعذيباً وحشياً، والمسيح كما هو في الأناجيل، إذا أخذناه كما يقدمه مؤرخوه، سوف يكون بالتأكيد مسؤولاً، بشكل جزئي، عن هذا.

يوجد أمور أخرى أقل أهمية. هنالك مثلاً خنازير الجدريين، حيث لم يكن من اللطيف وضع الشياطين فيهم وجعلهم يهرعون عبر التل إلى البحر. يجب أن تتذكروا أنه كامل القدرة، ويستطيع ببساطة طردهم، لكنه فضّل أن يرسلهم إلى الخنازير. ثم هنالك قصة شجرة التين والتي غالباً ما حيّرتني. (لما خرجوا من بيت عنيا جاع. فنظر شجرة تينٍ من بعيد عليها ورقٌ، وجاءَ لعلهُ يجدُ فيها شيئاً فلما جاء إليها لم يجد شيئاً إلا ورقاً، لأنه لم يكن وقت التين. فأجاب يسوع وقال لها: «لا يأكل أحدٌ منك ثمراً بعد إلى الأبد»)، (فتذكر بطرس وقال له: «يا سيدي، انظر! التينة التي لعنتها قد يبست»). هذه قصة غريبة جداً، لأن ذلك لم يكن موسم التين، وليس باستطاعتك حقيقةً لوم الشجرة. أنا شخصياً لا أشعر أن المسيح سواء من حيث الحكمة أو من حيث الفضائل يستحق هذه المكانة العالية التي يستحقها غيره في التاريخ. أعتقد أن بوذا أو سقراط يستحقان مكانة أعلى منه بالنسبة إلى هذه الأمور.

العامل العاطفي

كما قلت سابقاً، لا أعتقد أن السبب الحقيقي الذي يجعل البشر يقبلون الدين له أية صلة بالمجادلات. هم يقبلون الدين على أسس عاطفية. غالباً ما يقال للمرء أنه خطأ كبير أن يهاجم الدين، لأن الدين يجعل الناس فاضلين. هذا ما قيل لي، أنا لم ألاحظ ذلك.

أنتم تعرفون، بالطبع، المحاكاة الساخرة لهذا في كتاب صامويل بتلر، العودة إلى إيروهون. سوف تتذكرون أن هيغز[9] وصل إلى بلدٍ ناءٍ، وبعد قضاء بعض الوقت هناك نجح في الفرار عن طريق منطاد. بعد عشرين عاماً عاد إلى ذلك البلد ووجد ديناً جديداً حيث يقومون بعبادته تحت اسم «ابن الشمس»، وقيل إنه صعد إلى الشمس. كما وجد أن احتفالات عيد الصعود على وشك البدء، وسمع البرفيسوران هانكي ويانكي يقولان لبعضهما إنهما لم يريا الرجل هيغز، وإنهما يتمنيان ألا يرياه أبداً، وكانا أعلى سلطة دينية لدين ابن الشمس. كان هيغز ذا كرامة عالية، فتقدم منهما، وقال: «سوف أنهي هذا الخداع وأخبر أهل إيروهون أنني أنا فقط، الإنسان هيغز، قد صعدت في منطاد»، ولكن قيل له: «لا يجب أن تفعل ذلك، لأن كل الأخلاق في هذا البلد مرتبطة بهذه الأسطورة، وإذا عرفوا أنك لم تصعد إلى السماء فجميعهم سيصبحون أشراراً»، وبذلك تم إقناعه وتركهم بهدوء.

هذه هي الفكرة أننا جميعاً سوف نصبح أشراراً إن لم نؤمن بالديانة

9- هيغز بطل الرواية. (م).

المسيحية. يبدو لي أن الذي يؤمنون بها كانوا بمعظمهم أشراراً بشكل كبير. سوف تجدون هذه الحقيقة الغريبة، أنه كلما كان الإيمان بالدين شديداً في أية فترة وكلما كان الإيمان الدوغمائي عميقاً، كلما كانت الوحشية أعظم وحال الأمور أسوأ بكثير. فيما دعي بعصور الإيمان، عندما آمن الناس بحق بالدين المسيحي كاملاً، كانت هنالك محاكم التفتيش، مع عذاباتها، وملايين النساء غير المحظوظات اللواتي تم إحراقهن كساحرات، وكل أنواع العذاب التي تعرّض لها الناس باسم الدين.

سوف تجد أينما نظرت في العالم أن كل تقدم في الشعور الإنساني، كل تحسين في القانون الجنائي، كل خطوة تجاه التخفيف من الحروب، كل خطوة تجاه المعاملة الأفضل للعروق الملونة، كل تخفيف من العبودية، كل تقدم أخلاقي أُنجز في العالم، قد تمّت معارضته باستمرار من قبل كل كنيسة منظمة في العالم. أنا أعتقد، وبقناعة كاملة، أن الدين المسيحي، كما هو منظم في كنائسه، كان وما يزال العدو الأساسي لأي تقدم أخلاقي في العالم.

كيف أخّرت الكنائس التقدم؟

قد تعتقدون أنني أبالغ حين أقول أن الأمور ما زالت كذلك. أنا لا أعتقد أنني أبالغ. فلنأخذ واقعة واحدة. سوف تصغون إليَّ إن أشرتُ إليها. إنها ليست واقعة سارّة، لكن الكنائس تجبر المرء على الإشارة إلى وقائع ليست سارّة. افترضوا أنه في هذا العالم تزوجت فتاة ليس لها خبرة من رجل مصاب بالسفلس، في هذه الحالة سوف تقول الكنيسة

الكاثوليكية: «هذا سر مقدّس لا فكاك منه، يجب أن تتحمّلا التبتل أو أن تبقيا متزوجين. وإذا بقيتما متزوجين، يجب ألا تستخدموا وسائل منع الحمل كي تمنعا إنجاب أطفال مصابين بالسفلس». أي شخص مشاعره الطبيعية لم تشوّه بسبب الدوغما، أو طبيعته الأخلاقية ليست ميتة بالكامل تجاه كل أنواع المعاناة، لن يستطيع الموافقة على أن الوضع المناسب والصحيح هو استمرار هذا الزواج.

هذا مثال واحد. هناك طرق كثيرة، في اللحظةِ الراهنة، تُنزل الكنيسة عن طريقها، بإصرارها على ما تدعوه بالأخلاقيات، عذاباً غير ضروري وغير مستحق. وطبعاً، كما تعلمون، فالقسم الأكبر منها ما يزال معارضاً لكل طرق التقدم والتحسن التي تؤدي لتخفيف المعاناة في هذا العالم، لأنها اختارت أن تطلق اسم الأخلاق على مجموعة محددة من قواعد السلوك لا علاقة لها بالسعادة الإنسانية، وعندما نقول إن هذا أو ذاك من الأفعال يجب أن يتم لأنه يؤدي إلى السعادة الإنسانية، سوف يعتقدون الأمر لا صلة له البتة بالموضوع. «ما الذي يربط السعادة الإنسانية بالأخلاق؟ ليس هدف الأخلاق جعل البشر سعداء».

الخوف أساس الدين

الدين قائم، برأيي، بشكل أساسي على الخوف. إنه جزئياً الخوف من المجهول وجزئياً، كما قلت، الرغبة بوجود أخ أكبر يقف إلى جانبك في كل مشاكلك. الخوف هو الأساس في الأمر كله، الخوف من الغموض، الخوف من الإحباط، الخوف من الموت. الخوف أبو الوحشية، ولذلك

لا عجب إن مشى الخوف والدين يداً بيد. ذلك لأن الخوف أساس كل منهما. في هذا العالم نستطيع البدء في فهم الأمور، والسيطرة عليها قليلاً بمساعدة العلم، الذي فرض نفسه خطوةً خطوة ضد الدين المسيحي، ضد الكنائس، وضد معارضة كل أنواع الوصايا القديمة. يستطيع العلم أن يساعدنا في التخلص من هذا الخوف الجبان الذي عاشت فيه أجيال كثيرة. يستطيع العلم أن يعلمنا، وأعتقد أن قلوبنا نفسها تستطيع أن تعلمنا، ألا ننظر حولنا بحثاً عن مساعدات خيالية، ألا نخترع حلفاء في السماء، بل أن نبحث هنا على الأرض في كيفية جعل هذا العالم مكاناً مناسباً لنعيش فيه، بدلاً من ذلك النوع من العالم الذي اخترعته الكنائس لقرون كثيرة.

ما الذي يجب أن نفعله؟

يجب أن نقف على أقدامنا وننظر إلى هذا العالم وحقائقه السيئة، جماله، وقبحه، أن نرى العالم كما هو وألا نخاف منه. نفتح العالم بالعقل وليس بمجرد الخضوع بعبودية للمخاوف التي تأتينا منه. كل فكرة الله أتت من الطغيان الشرقي القديم. إنها فكرة غير صالحة أبداً للفرد الحر. عندما تسمع الناس في الكنيسة يذلون أنفسهم ويقولون إنهم خطأة بائسون، وما إلى ذلك، يبدو الأمر جديراً بالازدراء، ولا يستحق احترام النفس البشرية. يجب أن نقف وننظر بصراحة إلى العالم وجهاً لوجه. يجب أن نفعل أفضل ما نستطيعه في هذا العالم، وإن لم يكن بجودة ما نتمناه، فهو في النهاية أفضل مما فعله الآخرون عبر كل هذه العصور. يحتاج العالم

الجيد إلى المعرفة، اللطف، والشجاعة، لا يحتاج إلى توقٍ نادمٍ إلى الماضي أو إلى تقييد العقل الحر بكلمات أطلقت منذ أزمانٍ سحيقة من قبل رجالٍ جهلة. يحتاج إطلالة شجاعة وعقلاً حراً. يحتاج إلى الأمل بالمستقبل، لا النظر إلى الخلف باستمرار تجاه ماضٍ ميت، نثق أننا سنتجاوزه في مستقبلٍ سيخلقه ذكاؤنا.

هل قدّم الدين مساهمات مفيدة للحضارة؟

نُشر لأول مرة سنة 1930

وجهة نظري في الدين هي وجهة نظر لوكريتوس ذاتها. أراه مرضاً ولد من الخوف ومصدراً لعذابات لا تحصى للجنس البشري. ولكنني لا أستطيع أن أنكر أنه قدم بعض المساهمات للحضارة. لقد ساعد في الماضي في ضبط التقويم، وجعل الكهنة المصريين يؤرخون الكسوف والخسوف بعناية حتى أصبحوا قادرين على التنبؤ بهما. أنا مستعد للاعتراف بهاتين الخدمتين، لكنني لا أعترف أنه قدم غيرهما.

تستخدم كلمة الدين في هذه الأيام بمعنى غير دقيق. البعض يستخدمها، تحت تأثير بروتستانية متطرفة، لتدل على أية قناعات شخصية جدية سواء فيما يتعلق بالأخلاق أو بطبيعة الكون. هذا الاستخدام للكلمة غير تاريخي أبداً. الدين بشكل أساسي ظاهرة اجتماعية. تستطيع

الكنائس أن تنسب أصولها إلى معلمين يملكون قناعات فردية عميقة، ولكن هؤلاء المعلمين نادراً ما مارسوا تأثيراً على تلك الكنائس التي أوجدوها، بينما كان للكنائس تأثيرٌ هائلٌ على المجتمعات التي ازدهرت فيها. لنأخذ الحالة الأهم بالنسبة إلى أبناء الحضارة الغربية: تعاليم المسيح كما تظهر في الأناجيل، لها تأثير بسيط جداً على أخلاق المسيحيين. الشيء الأهم بالنسبة إلى المسيحية، من وجهة نظر اجتماعية وتاريخية، ليس المسيح بل الكنيسة، وإذا أردنا أن نحكم على المسيحية كقوة اجتماعية فيجب ألا نرجع للأناجيل. علّم المسيح أنك يجب أن تعطي أملاكك للفقراء، أنك يجب ألا تقاتل، أنك يجب ألا تذهب إلى الكنيسة، وأنك يجب ألا تعاقب الزنا. لم يُظهر أياً من الكاثوليك أو البروتستانت رغبة قوية في اتباع هذه التعاليم. صحيحٌ أن بعض الفرنسيسكان حاولوا تعليم مذهب الفقر الرسولي، ولكن البابا أدانهم، وأعلن أن تلك التعاليم هرطقة. وإذا أخذنا مثالاً آخر، النص الذي يقول «لا تدن كي لا تدان»، فلنسأل أنفسنا ما تأثير هذا النص على محاكم التفتيش وجمعية الكوكلوكس كلان.

ما يصح على المسيحية يصح تماماً على البوذية. كان بوذا ودوداً ومتنوّراً. على فراش موته ضحك من تلاميذه لأنهم اعتقدوا أنه خالد. ولكن الكهنوت البوذي، كما هو موجود في التبت مثلاً، ظلاميّ، استبدادي، ووحشي إلى أقصى درجة.

وليس الأمر مصادفة أن نجد هذا الاختلاف بين الكنيسة ومؤسسها. حالما يُفترض أن أقوال رجل محدد هي الحقيقة المطلقة، سوف نجد مجموعة من الخبراء تفسر أقواله، ويكتسب هؤلاء الخبراء السلطة بنجاح، طالما

أنهم يملكون مفاتيح الحقيقة. وكأي طبقة ذات امتيازات، يستخدمون سلطتهم لمصلحتهم. ولكنهم، مع ذلك، وفيما يتعلق بأمر واحد، أسوأ من أية طبقة أخرى ذات امتيازات، بما أن الحقيقة المطلقة قد كشفت لهم، فسيصبحون حتماً معارضين لكل تقدم أخلاقي وعقلي. لقد عارضت الكنيسة غاليليو وداروين، وفي أيامنا هذا تعارض فرويد. وفي الأيام التي كانت تملك فيها قوة عظيمة كانت تمضي مسافةً أبعد في معارضتها للحياة العقلية. كتب البابا جورجي العظيم رسالةً إلى أحد الأساقفة تبدأ بما يلي: «لقد وصلنا تقرير لا نستطيع الإشارة إليه دون حرج، ورد فيه أنك تشرح القواعد لبعض أصدقائك». لقد تم إجبار الأسقف بأمر بابوي على الإقلاع عن عمله الشرير، ولم تتعافَ اللغة اللاتينية حتى عصر النهضة. ليس في المجال العقلي بل في المجال الأخلاقي أيضاً، نجد أن الدين ضار. أعني بهذا أنه يعلم قوانين أخلاقية لا تؤدي إلى سعادة البشر. قبل عدة سنوات، عندما جرى استفتاء في ألمانيا حول ما إذا كانت المنازل الملكية ستبقى في حوزة العائلة المخلوعة، أعلنت الكنيسة بشكل رسمي أنه سيكون مضاداً لتعاليم المسيح تجريدهم منها. الكنائس، كما يعرف الجميع، عارضت إلغاء العبودية طالما كانت لديها الشجاعة، وباستثناء بعض الحالات الدعائية الخاصة فقد عارضت في أيامنا كل تحرك يؤدي إلى العدالة الاقتصادية. لقد أدان البابا بشكل رسمي الاشتراكية.

المسيحية والجنس

ولكن أسوأ جانب للدين المسيحي هو موقفه تجاه الجنس، هذا

الجانب المرضي وغير الطبيعي إلى درجة أنه لا يمكن فهمه إلا إذا أخذنا بالاعتبار الاشمئزاز من العالم المتحضر في زمن تردّي الإمبراطورية الرومانية. نسمع أحياناً من يقول إن تأثير المسيحية قد حسّن أوضاع النساء. هذا أكبر خطأ في التاريخ من الممكن ارتكابه. لا تستطيع النساء التمتع بوضع مقبول في المجتمع عندما يُرى أنه أمرٌ ذو أهمية فائقة ألا ينتهكن القوانين الأخلاقية الصارمة جداً. نظر الكهنة دائماً إلى المرأة بشكل أساسي كمصدر للفتنة، وفكروا فيها كمصدر للرغبات غير الطاهرة. تعليم الكنيسة كان، ولا يزال، أن العذرية هي الأفضل، أما لأولئك الذين يجدونها مستحيلة فالزواج مباح. «من الأفضل أن تتزوج على أن تُحرق»، كما بيّن القديس بولس بفظاظته. بجعل الزواج لا فكاك منه، وبمنعها كل شكل من أشكال المعرفة بفن الحب، قامت الكنيسة بما تستطيع القيام به للتأكد من أن النموذج الوحيد للجنس الذي تسمح به يجب أن يتضمن مقداراً صغيراً من المتعة وكمية كبيرة جداً من الألم. معارضة تحديد النسل، في الواقع، لها نفس الدافع: عندما تلد المرأة طفلاً كل عام إلى أن تموت من الإرهاق الشديد، لن نتوقع منها أن تلقى السعادة في حياتها الزوجية، لذلك يجب معارضة تحديد النسل.

مفهوم الخطيئة المرتبط بالأخلاق المسيحية هو أحد المفاهيم التي أدت إلى مقدار ضخم من الأذى، بما أنه قدم للبشر منفذاً لساديتهم التي آمنوا بأنها شرعية، بل وحتى نبيلة. فلنأخذ، على سبيل المثال، السؤال حول الوقاية من السفلس. كما هو معروف، فإن اتخاذ تدابير وقائية مقدّماً، سوف يجعل احتمالات انتقال عدوى المرض صغيرة جداً. ولكن

المسيحيين يعارضون نشر هذه الأفكار، بما أنهم يعتقدون أنه أمر جيد أن يُعاقب الآثمون. إنهم يعتقدون أنه لأمر جيد إلى درجة أنهم يتمنون أن يمتد العقاب ليشمل زوجات وأبناء الآثمين. يوجد في هذا العالم حالياً آلاف الأطفال الذين يعانون من السفلس منذ ولادتهم والذين لم يكونوا ليولدوا لولا رغبة المسيحيين في معاقبة الآثمين. لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن اعتبار هذه التعاليم، التي تؤدي إلى وحشية شيطانية كهذه، مؤثرة بشكل جيد على الأخلاق.

وليس فقط فيما يتعلق بالسلوك الجنسي، بل أيضاً فيما يتعلق بالمعرفة الجنسية نرى أن موقف المسيحيين يشكل خطراً على السعادة البشرية. كل شخص يدرس الأمر بروحٍ غير منحازة يعرف أن الجهل المفتعل بالموضوعات الجنسية، والذي يحاول المسيحيون المتعصبون أن يجبروا الشباب على الخضوع له، خطر بشكل كبير على الصحة العقلية والجسدية، وقد أدى بأولئك الذين يحصلون على معرفتهم عن طريق الحديث «البذيء»، كما هي حال معظم الأطفال، بأن يروا بأن الجنس بحد ذاته غير لائق وسخيف. لا أعتقد أنه يمكن أن يوجد أي دفاع عن الرأي الذي يقول أن المعرفة غير مرغوبة. لا يجب أن نضع عوائق لاكتساب المعرفة من قبل أيٍّ كان وفي أي سن. ولكن في الحالة الخاصة للمعرفة الجنسية نجد حججاً أقوى لصالحها مما هو في معظم الحالات الأخرى. من النادر أن يتصرف المرء بحكمة عندما يكون جاهلاً مقارنةً بكونه مثقفاً، ومن السخيف أن نعطي الشباب إحساساً بالخطيئة لأنهم يملكون فضولاً طبيعياً تجاه أمر مهم.

كل الفتيان يهتمون بالقطارات. افرض أننا أخبرنا أحدهم أن الاهتمام بالقطارات أمر شرير، ولنفرض أننا أبقينا عينيه معصوبتين كلما كان في القطار، أو في محطة القطار، ولنفرض أننا لم نسمح أبداً بالإشارة إلى كلمة «قطار» في حضوره وحافظنا على السر الغامض حول الطريقة التي ينتقل بها من مكان إلى آخر. لن تكون النتيجة أنه سيقل اهتمامه بالقطارات، بل على العكس، سوف يصبح أكثر اهتماماً بها من قبل لكن سيصيبه شعور مرضي بالخطيئة، لأن هذا الاهتمام قد قدم له بشكل خاطئ. وبهذا الأسلوب فإننا نجعل أي فتى ذي ذكاءٍ نشيط عصابياً إلى حدٍّ ما. ذلك بالضبط ما يحصل في حالة الجنس. ولكن، وبما أن الجنس أكثر تشويقاً من القطارت، فالنتائج أسوأ. كل بالغ في المجتمع المسيحي تقريباً هو مريض عصبي كنتيجة لهذا التحريم للمعرفة الجنسية عندما كانت هي أو هو في عمر الشباب. والشعور بالخطيئة الذي غُرِس بهذه الطريقة المصطنعة هو أحد أسباب القسوة، الجبن، والحماقة في حياتهم اللاحقة. لا يوجد أي سبب عقلاني من أي نوع لجعل الطفل جاهلاً بأي شيء يودّ معرفته، سواء فيما يتعلق بالجنس أو بأي شيء آخر. ولن نحصل على شعب سليم العقل حتى يتم الاعتراف بهذه الحقيقة في التعليم المبكر، وهو أمر مستحيل طالما أن الكنائس تستطيع التحكم بالسياسة التعليمية.

لندع جانباً هذه الاعتراضات التفصيلية بعض الشيء، فمن الواضح أن التعاليم الأساسية للمسيحية تتطلب قدراً كبيراً من الانحراف الأخلاقي قبل أن نستطيع التسليم بها. العالم، كما يقال لنا، قد خلقه الله الذي هو خيّر وقدير. وقد رأى قبل أن يخلق العالم كل الألم والبؤس الذي

سيوجد فيه، لذا فهو مسؤول عنه. من غير المفيد أن نجادل أن الألم في هذا العالم ناتج عن الخطيئة في المقام الأول، هذا ليس صحيحاً، ليست الخطيئة هي التي تؤدي إلى فيضانات الأنهار أو ثورات البراكين. ولكن حتى لو كانت هي السبب، فلن يغير ذلك شيئاً. إذا كنت سأنجب طفلاً وأنا أعرف أنه سيصبح مهووساً بالقتل، فأنا أتحمل مسؤولية جرائمه. إذا علم الله مقدماً الخطايا التي سيرتكبها المرء، فهو يتحمل مسؤولية كل ما ينتج عن هذه الخطايا لأنه قرر خلق هذا المرء. حجة المسيحية أن العذاب في هذا العالم هو تطهير للخطايا ولذا فهو أمر جيد. هذه الحجة، بالطبع، تسويغ للسادية، ولكنها بكل الأحوال حجة غير مقنعة. سوف أدعو كل مسيحي لكي يرافقني إلى جناح الأطفال في المشفى، لكي يشاهد العذاب الذي يعانيه هؤلاء الأطفال، ومن ثمّ يصرّ على أن هؤلاء الأطفال مسؤولين أخلاقياً عما يعانونه من عذاب. ولكي يصرّ المرء على هذا، يجب أن يدمّر في داخله كل مشاعر الرحمة والتعاطف. يجب، باختصار، أن يجعل نفسه قاسياً كالإله الذي يؤمن به. كل شخص يؤمن بأن هذا هو الأفضل لهذا العالم المعذّب لا يستطيع أن يحافظ على قيمه الأخلاقية، بما أنه يجد دائماً تبريرات للألم والبؤس.

الاعتراضات على الدين

الاعتراضات على الدين نوعان: عقلانية وأخلاقية. الاعتراض العقلاني هو أنه لا يوجد أي سبب لافتراض صحة أحد الأديان، الاعتراض الأخلاقي هو أن التعاليم الدينية بدأت في زمنٍ كان الناس

فيه أكثر وحشية مما هم الآن ولذلك تميل إلى تخليد الوحشية والتي لولاها لكان الضمير الأخلاقي العصري قادراً على التقدم.

لنبدأ بالاعتراض العقلاني، في عصرنا العملي هنالك ميل واضح لاعتبار صحة التعاليم الدينية أمراً ثانوياً، بما أن السؤال المهم هو هل هي مفيدة. ولكننا لا نستطيع الإجابة عن أحد السؤالين دون الأخذ بعين الاعتبار السؤال الآخر. إذا آمنا بالمسيحية فإن مفهومنا عما هو جيد سيكون مختلفاً عنه إن لم نؤمن بها. لذلك، بالنسبة إلى المسيحيين، فتأثيرات المسيحية تبدو جيدة، أما بالنسبة إلى غير المسيحيين فتبدو سيئة. أكثر من ذلك، فإن الموقف الذي يقول أننا يجب أن نؤمن بكذا وكذا من القضايا، بشكل مستقل عن وجود برهان يدعمها، هو موقف يؤدي إلى العداء للبراهين ويجعلنا نغلق عيوننا تجاه كل حقيقة لا تناسب ما نؤمن به.

إن نوعاً خاصاً من النزاهة العلمية له أهمية فائقة، ومن الصعوبة بمكان أن توجد عند من يتخيل أن من واجبه الإيمان ببعض الأمور. لذلك لا نستطيع حقاً أن نعرف إن كان الدين نافعاً دون أن نعرف هل هو صحيح. بالنسبة إلى المسيحيين، المحمديين، واليهود فالسؤال الأساسي حول صحة الدين يقتضي أن نسأل هل الله موجود. عندما كان الدين ما زال سائداً كان لكلمة «الله» معنى محددٌ تماماً، ولكن نتيجة للهجوم الذي شنّه العقلانيون فإن معنى الكلمة أصبح أقل وضوحاً، حتى أصبح من الصعب معرفة ما الذي يقصده الناس حين يقولون أنهم يؤمنون بالله. لنأخذ كمثال تعريف ماثيو أرنولد: «إنه قوة مختلفة عنا تعمل لأجل الخير». ربما نستطيع جعل هذا أكثر إبهاماً ونسأل أنفسنا إن كنا نملك

دليلاً عما هو الهدف من هذا الكون بمعزل عن الهدف من الكائنات الحية على سطح هذا الكوكب.

الحجة التقليدية للناس المتدينين هي بشكل تقريبي: «أنا وأصدقائي أناسٌ ذوو ذكاء وفضيلة مدهشين. ومن الصعب الاقتناع بأن فضيلة وذكاء كتلك قد خُلقت بالمصادفة. يجب، لذلك، أن يوجد أحدٌ ما على الأقل يملك الذكاء والفضيلة ذاتها مثلنا قد خلق الآلة الكونية وفي نيته صنعنا». أنا آسف لأنني لا أجد هذه الحجة مؤثرة كما يراها الذين يستخدمونها. الكون ضخم ولكن، إذا صدقنا إدنجتون، فلا يوجد في أي مكان آخر كائنات كالبشر. إذا تخيلنا مقدار المادة في العالم وقارناها بالمقدار الذي يشكل أجسام الكائنات الذكية، سوف نجد أن الأخيرة تشكل مقداراً متناهياً في الصغر بالنسبة إلى الأولى. بالنتيجة، حتى لو كان من المستبعد جداً أن قوانين الاحتمالات قد أنتجت كائنات ذكية عن طريق الاختيار العرضي للذرات، فمن المحتمل أنه سيوجد في الكون هذا المقدار الصغير جداً من الكائنات العضوية التي نجدها في الواقع. ولكن أيضاً، باعتبارنا ذروة هذه العملية الهائلة، لا يبدو لي أننا حقاً رائعون كفايةً. بالطبع، أنا أعلم أن الكثير من المقدّسات أروع مني، ولا أستطيع بشكل كامل أن أقدر فضائل تعلوني بهذا القدر. مع ذلك، وبعد أن آخذ بالحسبان الملاحظة السابقة، لا أستطيع إلا أن أرى أنه يمكن للكائن القدير خلال زمنٍ سرمدي إنتاج شيءٍ أفضل. ثم علينا أن نتذكر أن هذا كله ما هو إلا جهد ضائع. الأرض لن تبقى دوماً مكاناً صالحاً للحياة، الجنس البشري سيندثر. وإذا كانت العملية الكونية ستنصف

ذاتها فيجب أن تفعل هذا في مكانٍ آخر وليس على سطح هذه الأرض. وحتى لو فعلت هذا، فيجب أن تقف الحياة عاجلاً أم آجلاً. القانون الثاني من قوانين الترموديناميك يمنعنا من الشك في أنّ الكون سينتهي، ولن يبقى أي شيء مهما كان ضئيلاً. طبعاً، من حقنا القول إنه عندما سيحدث ذلك فالله سيعيد تشغيل الآلة مرة أخرى، ولكن إن قلنا هذا، سوف يعتمد تأكيدنا على الإيمان فقط، لا على أية ذرة من البرهان العلمي. البرهان العلمي يقول إن الكون يتقدم بمراحل بطيئة إلى نهاية مثيرة للشفقة على هذه الأرض وسوف يؤدي إلى نهاية الكون ككل. إذا اعتمدنا هذا كبرهان على الهدف، لا أرى هدفاً كهذا مقنعاً. لذلك، لا أرى أي سبب للإيمان بأي نوع من الآلهة، مهما كان غامضاً أو واهناً. سوف أضع جانباً الحجج الميتافيزيقية القديمة، بما أن المتدينين أنفسهم قد رموها جانباً.

الروح والخلود

التشديد المسيحي على الروح الفردية له تأثير عميق على الأخلاق في المجتمعات المسيحية. إنه تعليم يشبه أساساً تعليم الرواقيين، ظهر - كالرواقية - في مجتمعات لم يعد بإمكانها التعلق بأية آمالٍ سياسية. الاندفاع الطبيعي للإنسان الحيوي ذي الشخصية الكريمة يتمثّل في محاولة فعل الخير، ولكن إذا حُرم من كل أشكال القوة السياسية ومن كل احتمال للتأثير على مجرى الأحداث، سينحرف عن اتجاهه الطبيعي وسيقرر أن الشيء المهم هو أن يكون خيّراً. هذا ما حصل للمسيحيين

الأوائل، وقد أدى ذلك إلى مفهومٍ عن القداسة الشخصية كشيء مستقل تماماً عن الفعل المفيد، بما أن القداسة يجب أن تكون ممكنة لأناسٍ عاجزين عن الفعل. لذلك أصبحت الفضائل الاجتماعية مستثناة من الأخلاق المسيحية. ما يزال المسيحيون التقليديون إلى أيامنا هذه يرون أن الزاني أسوأ من السياسي المرتشي، بالرغم من أن السياسي قد يكون مؤذياً أكثر بألف مرة. المفهوم القروسطي عن الفضيلة، كما يراه المرء في لوحاتهم، هو مفهوم رقيق، وخجول، وعاطفي. أكثر الرجال فضيلة كان ذلك الذي يعتزل العالم، الرجل الوحيد الفاعل الذي اعتُبر كالقديسين هو ذلك الذي يبدد حيوات وموارد الناس في محاربة الأتراك، كالقديس لويس. لم تقدّس الكنيسة أبداً رجلاً لأنه نظم الموارد المالية، أو القانون الجنائي، أو النظام القضائي. إن مساهمات كهذه تخص السعادة البشرية لا تعتبر مهمة. أنا لا أعتقد أنه يوجد قديس واحد في كل التقويم، تقوم قداسته على عملٍ يخص المصلحة العامة.

مع هذا الفصل بين الإنسان الأخلاقي والاجتماعي ازداد الفصل بين الروح والجسد، هذا الفصل الذي بقي في الميتافيزيقيا المسيحية وفي الأنظمة المأخوذة عن ديكارت. يستطيع المرء القول، بصورة عامة، أن الجسد يمثّل الجزء الاجتماعي والعام من الإنسان، بينما تمثّل الروح الجزء الشخصي. بتركيزها على الروح، فإن الأخلاق المسيحية قد جعلت نفسها بشكل كامل فردانية. أعتقد أن النتيجة الواضحة لكل هذه القرون من المسيحية أن البشر أصبحوا أكثر أنانية، أكثر انغلاقاً على أنفسهم، مما خلقتهم الطبيعة، ذلك أن الدوافع التي تجعل البشر، بشكل طبيعي،

يخرجون من أسوار الأنا هي الجنس، الأبوة، والوطنية أو غريزة القطيع. لقد قامت الكنيسة بكل ما تستطيع فعله لتشجب وتحط من قدر الجنس، تأثير العائلة قد تم شجبه من قبل المسيح ومعظم أتباعه، ولم تستطع الوطنية أن تجد مكاناً لها بين أتباع الإمبراطورية الرومانية. لم يجلب الهجوم العنيف على العائلة في الأناجيل الانتباه الذي يستحقه. عاملت الكنيسة أم المسيح بتبجيل، أما موقف المسيح فكان مختلفاً «مالي ولك يا امرأة» (يوحنا، الإصحاح الثاني، الآية الرابعة). هذا هو أسلوبه في التحدث إليها. كما قال أيضاً أنه أتى لكي يزرع الخلاف بين الابن وأبيه، بين البنت وأمها، بين الكنة والحماة، وأن ذلك الذي يحب أباه وأمه أكثر منه لا يستحقه (إنجيل متى، الإصحاح الرابع، 35-37). كل هذا كي يفتت الرابطة العائلية البيولوجية من أجل الإيمان، كان لهذا الموقف دور كبير في التعصب الذي ظهر في العالم مع انتشار المسيحية.

هذه الفردانية بلغت أوجها مع مذهب خلود الروح الفردية، والتي ستتمتع بنعيم أبدي أو عذاب أبدي تبعاً للظروف. والظروف التي يعتمد عليها هذا الفارق الأساسي غريبة نوعاً ما. على سبيل المثال، إذا متَّ فوراً بعد أن يرش الكاهن بعض الماء عليك وينطق ببعض الكلمات، سترث النعيم الأبدي، بينما لو متَّ بعد حياة مديدة فاضلة لأن البرق أصابك وكنت تستخدم لغة بذيئة لأنك قطعت رباط حذائك، فسترث العذاب الأبدي. أنا لا أقول إن المسيحي البروتستانتي المعاصر يؤمن بهذا، ولا حتى، ربما، الكاثوليكي المعاصر، الذي لم يتثقف بشكل ملائم لاهوتياً، ولكنني أقول إن هذا هو التعليم التقليدي وإن الناس كانوا يؤمنون به

بشدة حتى العصور الحديثة. كان الإسبان في المكسيك والبيرو يعمّدون الرضع ثم يحطمون رؤوسهم فوراً: بهذه الطريقة كانوا يؤمّنون وصول هؤلاء الأطفال إلى الجنة. لن يجد أي مسيحي تقليدي سبباً منطقياً لإدانة تصرفهم، بالرغم من أنهم جميعاً يدينون ذلك التصرف الآن. بطرقٍ لا حصر لها كان لمبدأ الخلود الشخصي آثار كارثية على الأخلاق، كما كان للفصل الميتافيزيقي بين الروح والجسد آثار كارثية على الفلسفة.

مصادر التعصب

التعصب الذي انتشر حول العالم مع مجيء المسيحية واحد من أكثر مظاهرها إثارة للفضول، وهو ناجم، كما أعتقد، عن الإيمان اليهودي بالاستقامة وبالحقيقة الاستثنائية للإله اليهودي. لا أعلم لماذا امتلك اليهود هذه الخصال. يبدو أنهم اكتسبوها خلال الأسر كردّ فعل على محاولة تذويب اليهود في الشعوب الأجنبية. مهما كان الأمر، فاليهود، وبشكل خاص الأنبياء، اخترعوا فكرة التأكيد على الاستقامة الشخصية وفكرة عدم التسامح مع أديان الآخرين. كان لهاتين الفكرتين تأثير مدمر على التاريخ الغربي. لقد اعتبرت الكنائس الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون من قبل الدولة الرومانية قبل قسطنطين حدثاً مهماً. ولكن هذا الاضطهاد كان خفيفاً ومتقطعاً وسياسياً بشكل كامل. في جميع العهود، منذ عهد قسطنطين وحتى نهاية القرن السابع عشر، تعرض مسيحيون لاضطهاد قاسٍ من قبل مسيحيين آخرين أكبر بكثير مما تعرضوا له من قبل الأباطرة الرومان. قبل انتشار المسيحية لم يكن هذا الاضطهاد معروفاً

في العالم القديم إلا عند اليهود. على سبيل المثال، إذا قرأت هيرودوت، فسوف تجد موقفاً رقيقاً ومتسامحاً تجاه عادات الشعوب الأجنبية التي زارها. صحيحٌ أنه، أحياناً، تصدمه عادة بربرية معينة، ولكنه بشكل عام منفتح على الآلهة والعادات الأجنبية. لم يكن تواقاً ليثبت أن أولئك الذين يدعون زيوس باسمٍ آخر سوف يعانون عذاباً أبدي وأنه يجب أن يُقتلوا ليبدأ عقابهم في أقرب فرصة. هذا الموقف حُفظ للمسيحيين. صحيحٌ أن المسيحيين الحاليين أقل عنفاً، ولكن الفضل ليس للمسيحية في هذا الأمر، بل الفضل لأجيال من المفكرين الأحرار، والذين منذ عنصر النهضة إلى الآن، جعلوا المسيحيين خجلين من الكثير من معتقداتهم التقليدية. من المدهش أن نسمع المسيحي المعاصر يخبرنا كيف أن المسيحية معتدلة وعقلانية متجاهلاً حقيقة أن كل اعتدالها وعقلانيتها هما نتيجة لتعليم الرجال الذي عانوا في أيامهم من اضطهاد المسيحيين التقليديين لهم. لا يوجد أحدٌ اليوم يصدق أن العالم قد خلق عام 4004 قبل الميلاد، ولكن منذ زمنٍ ليس ببعيد كان الشك في هذا الأمر يعتبر جريمة بغيضة. جدّ جدّي بعد ملاحظته لعمق مقذوفات البراكين على منحدرات جبل أثينا، استنتج أن العالم يجب أن يكون أقدم من الافتراض التقليدي ونشر رأيه في كتاب. من أجل هذه الإساءة فقد تم تجاهله في المقاطعة ونبذه من المجتمع. لو كانت أوضاعه أكثر تواضعاً، لكان عقابه بلا شك أقسى. ليس في الأمر ما يدعو للفخر بالنسبة إلى المسيحيين أنهم لا يؤمنون الآن بكل السخافات التي آمنوا بها قبل 150 عاماً. كان الانحدار التدريجي للتعاليم المسيحية فعّالاً بالرغم من المعارضة القوية، كنتيجة للمعارك التي خاضها المفكرون الأحرار فقط لا غير.

مذهب الإرادة الحرة

كان موقف المسيحيين فيما يتعلق بموضوع القانون الطبيعي متردداً وغامضاً بشكل غريب. كان هنالك، من جهة، مذهب الإرادة الحرة، والذي آمن به معظم المسيحيين، ووفقاً لهذا المذهب أفعال البشر يجب ألا تخضع للقانون الطبيعي بالحد الأدنى. وكان هنالك، من جهة أخرى، خصوصاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إيمان بالله كمشرّع وبالقانون الطبيعي كأحد أهم الأدلة على وجود الخالق. في الأزمنة الحديثة، الاعتراض على شمول القانون الطبيعي للإرادة الحرة يبدو أقوى من الإيمان بهذا القانون كوسيلة لإثبات وجود مشرّع. يستخدم الماديون قوانين الفيزياء ليبرهنوا، أو ليحاولوا أن يبرهنوا، أن حركات الجسم البشري محددة بشكل ميكانيكي، وبالنتيجة فكل ما نتفوه به وكل تغيير نسببه لا علاقة له بأية إرادة حرة. لو كان الأمر كذلك، لكان المتبقي لاختياراتنا غير المقيدة أهمية ضئيلة. عندما يكتب شخصٌ ما قصيدةً أو يرتكب جريمة، تكون الحركات الجسدية التي تؤدي إلى هذا الفعل ناتجة عن أسبابٍ فيزيائية لا غير، لذا فمن السخف أن ننصب له تمثالاً في الحالة الأولى ونشنقه في الحالة الأخرى. ربما يبقى في أنظمة ميتافيزيقية خاصة مجالٌ للفكر المحض حيث تكون الإرادة حرةً، ولكن بما أن التواصل مع الآخرين لا يمكن أن يتم إلا عبر الحركة الجسدية، فميدان الحرية لن يكون موضوعاً للتواصل ولن يكون له أية أهمية اجتماعية.

ثم إن للتطور تأثيراً كبيراً على أولئك المسيحيين الذين أقروا به. لقد وجدوا أنه من غير المجدي تقديم ادعاءات حول البشر مختلفةً كليةً عن

تلك المتعلقة بأشكالٍ أخرى من الحياة. لذلك، وللحفاظ على الإرادة الحرة عند البشر، فقد عارضوا كل محاولة لشرح تصرفات الكائنات الحية عن طريق القوانين الفيزيائية والكيميائية. إن موقف ديكارت، القائل بأن جميع الحيوانات الدنيا هي آلات، لم يعد له مناصرين بين اللاهوتيين الليبراليين. مبدأ الاستمرارية يجعلهم ميالين إلى الذهاب أبعد من ذلك والقول بأنه حتى ما يدعى بالمادة الميتة ليست خاضعة بشكل كامل للقوانين غير المتغيرة. يبدو أنهم يهملون الواقعة التالية: إذا ألغيت سلطة القانون، فقد ألغيت احتمال المعجزات، بما أن المعجزات هي أفعال الله التي تنتهك القوانين التي تحكم الظواهر العادية. ولكنني أستطيع أن أتخيل اللاهوتي المعاصر يؤكد بشكل عميق أن الخلق بأكمله معجزة، لذا فهو ليس بحاجةٍ أن يتمسك بحوادث معينة كدلائل خاصة على التدخّل الإلهي.

بتأثير ردة الفعل هذه ضد القانون الطبيعي، تمسّك بعض المدافعين عن المسيحية بالنظريات الحديثة حول الذرة، والتي تفضي إلى أن القوانين الفيزيائية التي آمنا بها حتى الآن لها صحة نسبية وتقريبية فقط عند تطبيقها على أعداد كبيرة من الذرات، بينما يتصرف الإلكترون المفرد إلى درجة كبيرة كما يريد. قناعتي الشخصية أن هذه الحالة مؤقتة، وأن الفيزيائيين سيكتشفون مع الزمن القوانين التي تحكم الظواهر الدقيقة، بالرغم من أن هذه القوانين قد تختلف بشكل كبير عن الفيزياء التقليدية. بكل الأحوال، يجب أن نلاحظ أن المذاهب الحديثة حول الظواهر الدقيقة لا تحمل أية أهمية عملية. الحركات المرئية، وفي الواقع كل الحركات التي تؤثر

على أي شخص، تتضمن أعداداً ضخمة من الذرات بحيث تقع ضمن مجال القوانين القديمة. كي تكتب قصيدة أو ترتكب جريمة (بالعودة إلى المثالين السابقين)، من الضروري أن تحرك كمية كافية من ذرات الحبر أو الرصاص. الإلكترونات التي تشكل الحبر قد ترقص بحرية داخل قاعة الرقص الصغيرة، ولكن قاعة الرقص ككل تتحرك تبعاً لقوانين الفيزياء القديمة، وهذا وحده ما يهم الشاعر أو الناشر. لذلك، ليس للمذاهب الحديثة أية قيمة معتبرة فيما يخص المشاكل التي تواجه البشر والتي يهتم بها اللاهوتي.

يبقى سؤال الإرادة الحرة مراوحاً في مكانه دائماً. كل أفكارنا حوله ميتافيزيقية بالمطلق، ومن الواضح تماماً أن لا أحد يؤمن بها في حياته العملية. الجميع يؤمن أنه من الممكن أن نتحكم بالشخصية، كل شخص يعرف أن للكحول أو الأفيون تأثيراً خاصاً على السلوك. يؤكد رسول الإرادة الحرة أن المرء يستطيع بقوة إرادته تجنب الثمالة، ولكنه لا يؤكد أن الشخص الثمِل يستطيع أن يلفظ «الدستور البريطاني» بوضوح كما لو كان صاحياً. وكل شخص تعامل مع الأطفال يعلم أنّ تطبيق حمية مناسبة تجعلهم فاضلين أكثر من أي وعظ فصيح في العالم. التأثير الوحيد لمذهب الإرادة الحرة عملياً هو منع الناس من الوصول بهذه المعرفة الآتية من الحس العام إلى نتيجتها المنطقية. عندما يتصرف المرء بطريقة تزعجنا نتمنى أن نصدّق أنه شرير، ونرفض مواجهة حقيقة أنّ سلوكه المزعج نتيجة لأسباب سابقة، والتي إذا بحثت فيها بما يكفي، سوف تأخذك إلى ما وراء لحظة ميلاده وبالتالي إلى أحداث ليس من الممكن أن يكون مسؤولاً عنها مهما وسّعنا خيالنا.

لا يعامل أحدٌ السيارة بغباء كما يعامل إنساناً آخر. عندما لا تتحرك السيارة، لا يُرجع سلوكها المزعج إلى الخطيئة، فهو لا يقول: «أنتِ سيارة شريرة، ولن أعطيك بنزين حتى تتحركي»، بل يحاول أن يعرف ما الخطأ وأن يصلحه. إن طريقة مماثلة في التعامل مع البشر هي، بكل الأحوال، تعتبر متناقضة مع حقائق ديننا المقدس. ويُطبّق ذلك حتى في تعاملنا مع الأطفال الصغار. للكثير من الأطفال عادات سيئة تدوم بسبب العقاب ولكن من الممكن أن تختفي إذا اكتفينا بالتغاضي عنها. مع ذلك، فالممرضات، باستثناء قلة منهم، يعتبرون أنه من الجيد إنزال العقاب، بالرغم من أنهن عندما يفعلن ذلك يخاطرن بالتسبب بالجنون. عندما يتم الإشارة إلى الجنون في المحاكم يعتبر ذلك دليلاً على أن العادة، وليس العقاب، غير مؤذية. (أشير إلى دعوى حديثة حول الفحش في ولاية نيويورك)[10].

لقد تحققت العديد من الإصلاحات في التربية عن طريق دراسة الجنون وضعيفي العقل، لأنهم لا يعدون مسؤولين أخلاقياً عن أخطائهم ولذلك يعاملون بشكل علمي أكثر من الأطفال العاديين. إلى زمنٍ قريب رأى الناس أنه إذا لم يتعلم أحد الأطفال دروسه، فالحل المناسب هو الطرد أو الجلد. اختفت وجهة النظر هذه تقريباً فيما يخص الأطفال، لكنها استمرت فيما يتعلق بالقانون الجنائي. من الواضح أن المرء الذي لديه ميلاً إلى الإجرام يجب إيقافه، وينطبق الأمر أيضاً على المصابين بداء الكلب الذين يريدون أن يعضوا الآخرين، بالرغم من أن

10- المثال غير واضح في النص لأننا لا نملك معلومات عن القضية المشار إليها. (م).

لا أحد يعتبرهم مسؤولين أخلاقياً. الشخص المصاب بالطاعون يجب أن يُعزَل إلى أن يُشفى، بالرغم من أننا لا نعتقد أنه شرير. الأمر ذاته يجب فعله مع الرجل الذي لديه ميلٌ للتزوير؛ ولكن يجب ألا نشعر بالإثم في أيٍّ من الحالتين، وهذا هو الحس العام لا غير، بالرغم من أن هذا النوع من الحس العام يتعارض مع الأخلاق المسيحية والميتافيزيقيا.

كي نحكم على التأثير الأخلاقي لأي مؤسسة على المجتمع، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار نوع الدافع الذي تجسّده المؤسسة والدرجة التي تزيد بها المؤسسة فعالية الدافع في المجتمع. في بعض الأحيان يكون الدافع واضحاً تماماً، وفي أحيانٍ أخرى يكون مستتراً. فنادي جبال الألب، على سبيل المثال، يجسّد بوضوح الدافع للمغامرة، والمجتمع التعليمي يجسّد الدافع نحو المعرفة. الأسرة كمؤسسة تجسد الغيرة والمشاعر الأبوية، نادي كرة القدم أو الحزب السياسي يجسّدان دوافع المنافسة، ولكن أعظم مؤسستين اجتماعيتين، وهما الكنيسة والدولة، أكثر تعقيداً فيما يتعلق بدوافعهما السيكولوجية. الهدف الأساسي من الدولة هو بوضوح الأمان في مواجهة الجرائم الداخلية والأعداء الخارجيين. نجد هذا الجذر في ميل الأطفال للتجمع عندما يخافون وفي بحثهم عن شخصٍ ناضج يمنحهم شعور الأمان. لمؤسسة الكنيسة مصادر أكثر تعقيداً. بلا شك، المصدر الأهم للدين هو الخوف. نستطيع أن نرى ذلك في أيامنا هذه، بما أن أي شيء يسبب الخطر يجعل البشر يلجؤون لله. الحروب، الطاعون، والسفن الغارقة تجعل الناس متدينين. ولكن الدين يلجأ إلى أشياءٍ أخرى بالإضافة إلى الرعب، إنه يلجأ بشكل خاص إلى احترام الذات الذي يملكه البشر.

إذا كانت المسيحية محقة، لن يكون البشر هذه الحشرات المثيرة للشفقة بل إن خالق الكون يهتم لأمرهم، وهو يشعر بالرضا عندما يتصرفون بشكل حسن وينزعج عندما يتصرفون بشكل سيئ. هذا إطراءٌ عظيم. يجب علينا ألا نفكر بدراسة عش النمل كي نجد أياً من هذه الحشرات يقوم بواجبه النمليّ، وبالطبع يجب ألا نظن أننا سنختار أولئك الحشرات المفردة اللواتي لم يقمن بواجبهن ثم نضعهن في النار. إذا قام الله بذلك، فذلك إطراءٌ عظيمٌ لنا، بل سيكون إطراءً أكبر إذا كافأ أولئك الجيدين بيننا بمنحهم السعادة الأبدية في الفردوس. ثم هنالك الفكرة الحديثة نسبياً التي تقول إن تطور الكون بأكمله مصمم كي يأتي بالنتائج التي نسميها جيدة، أي تلك النتائج التي تمنحنا السعادة. هنا أيضاً نجد ذلك التملّق الذي يفترض أن الكون يحكمه كائن يشاركنا أذواقنا وأحكامنا.

فكرة الخير

الدافع السيكولوجي الثالث الذي يجسده الدين هو الذي قاد إلى مفهوم الخير. أعرف أن الكثير من المفكرين الأحرار قد عاملوا هذا المفهوم باحترامٍ عظيم ورأوا أننا يجب أن نحافظ عليه بالرغم من اضمحلال الدين الدوغمائي. لا أستطيع أن أوافقهم على هذه النقطة. يبدو لي أن التحليل السيكولوجي لفكرة الخير يظهر أنها متجذرة في انفعالات غير مرغوبة، ويجب ألا نقوم بتعزيزها عقلانياً. الخير ونفيه يجب أخذهما سويةً، من المستحيل التشديد على إحداهما دون التشديد على الآخر. الآن، ما هو «اللا-خير» عملياً؟ في السلوك العملي هو

ما يكرهه القطيع. بتسميته شراً، وبترتيب نظام دقيق للأخلاق حول هذه المفهوم، فالقطيع ينصف نفسه بفرض العقاب على الموضوعات التي يكرهها، بينما في الوقت نفسه، وبما أن القطيع خيّر تعريفاً، فهو يعزز احترامه الذاتي في نفس اللحظة التي يسمح فيها بإطلاق دوافعه الوحشية. تلك هي سيكولوجيا الإعدام، والأساليب الأخرى لمعاقبة الجرائم. لذلك، جوهر مفهوم الشر، هو تقديم مخرج للسادية عن طريق تغطية الوحشية بالعدالة.

ولكن قد يُقال لي، أن الشرح الذي قدمته للخير غير ملائم أبداً لأنبياء اليهود، والذين تبعاً لك، هم من اخترع هذه الفكرة. هنالك حقيقة هنا، الخير في فم الأنبياء اليهود يعني ما قد وافقوا هم ويهوه عليه. يجد المرء الشيء ذاته في «أعمال الرسل»، الذي يصرّح بالكلمات التالية «لأنه قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة». هذا النوع من الثقة الفردية فيما يتعلق بأذواق وآراء الله لا يمكن أن يصلح كأساس لأية مؤسسة. تلك كانت دوماً العقبة التي ستكافح البروتستانتية ضدها، يستطيع أي نبي جديد أن يؤكد أن وحيه أكثر أصالةً من أسلافه، ولن يجد أي شيء في البروتستانتية يقول إن هذا الادعاء غير صحيح. بالنتيجة انقسمت البروتستانتية إلى عدد هائل من الشيع، أضعفت كل منها الأخرى، ولذا من المنطقي الافتراض أن الكاثوليكية سوف تكون الممثل الفعّال الوحيد للإيمان المسيحي بعد مئات السنين. الوحي الذي يلهم الأنبياء في الكنيسة الكاثوليكية له مكانه، ولكن من المعترف به أن الظاهرة التي تبدو وكأنها وحي إلهي

أصيل قد تكون من عمل الشيطان، وعمل الكنيسة هو أن تميّز بينهما، كما أن عمل خبير الفنون أن يميز أعمال ليوناردو الأصلية من تلك المزيفة. بهذا الأسلوب يصبح الوحي مؤسساتياً في نفس الوقت. الخير هو ما توافق الكنيسة عليه، والشر هو ما يخالف الكنيسة. حيث أنّ الجزء الفعال من مفهوم الخير هو تسويغ كراهية القطيع.

لذلك يبدو أن الدوافع الثلاثة التي تتجسد في الدين هي الخوف والغرور والكراهية. يمكننا القول إذاً إن هدف الدين منح جو من الاحترام لهذه الدوافع، عن طريق تنظيمهم في قنواتٍ محددة. ولأن هذه الانفعالات تسهم ككل في بؤس البشر فالدين قوة شر، بما أنه يسمح للمرء بأن يشبع هذه الدوافع دون تقييد، بينما يتوجب، على الأقل إلى درجة معينة، التحكم بهم.

أستطيع أن أتخيل اعتراضاً عند هذه النقطة، وقد لا يقدمه معظم المؤمنين التقليديين، ولكنه مع ذلك يستحق أن نتفحصه. قد يقال إن الخوف والكراهية خصال جوهرية للبشر. شعر بها البشر دوماً وسيشعرون بها دوماً. أفضل ما نستطيع أن نفعله، قد يقال لي، هو أن نوجههم في قنواتٍ محددة تكون أقل أذى من قنوات أخرى. قد يقول اللاهوتي المسيحي أن التعامل مع هذه الدوافع مماثل للتعامل مع الدافع الجنسي، والذي تستهجنه الكنيسة، فتحاول جعل الشهوة غير مؤذية عن طريق تقييدها داخل حدود الأمومة. لذا بما أن البشر يجب أن يشعروا بشكل خفي بالكراهية، فمن الأفضل أن نوجه هذه الكراهية تجاه أولئك المسيئين حقاً، وهذا بالضبط ما تفعله الكنيسة عن طريق مفهوم الخير.

لدينا ردان على هذ الاعتراض، الأول سطحي نسبياً، والثاني يصل إلى جذر الموضوع. الرد السطحي هو أن مفهوم الكنيسة حول الخير ليس أفضل المفاهيم الممكنة، الرد الجوهري هو أننا نستطيع التخلص من الكراهية والخوف في حياة البشر، باستخدام معارفنا السيكولوجية وتقنياتنا الصناعية الحالية. لنبدأ بالرد الأول. مفهوم الكنيسة حول الخير غير مرغوب به اجتماعياً من عدة نواحٍ: الاعتراض الأول، وهو الأهم، ينتقص هذا المفهوم من الذكاء والعلم. هذا العيب موروثٌ من الأناجيل. يخبرنا يسوع أننا يجب أن نصبح كالأطفال الصغار، ولكن الأطفال لا يستطيعون فهم الحساب التفاضلي، أو مبدأ التداول، أو الطرق الحديثة في مكافحة الأمراض.

الحصول على مثل هذه المعرفة ليس من واجبنا، برأي الكنيسة. الكنيسة لم تعد تؤكد أن المعرفة بحد ذاتها خطيئة، بالرغم من أنها كانت تفعل ذلك أيام ازدهارها، ولكن اكتساب المعرفة، حتى لو لم يكن خطيئة، فإنه خطر، بما أنه يمكن أن يؤدي إلى غرور العقل، وبالتالي التساؤل حول الدوغما المسيحية. خذ رجلين، على سبيل المثال، أحدهما تغلب على الحمى الصفراء في مناطق استوائية كبيرة ولكنه أثناء عمله قد أقام عدة علاقات مع النساء خارج إطار الزوجية؛ بينما الآخر كان كسولاً، وتلد امرأته طفلاً كل عام حتى توفيت من الإرهاق، واهتمامه بأطفاله كان قليلاً حتى أن نصفهم قد توفي من أسبابٍ كان من الممكن تفاديها. كل مسيحي جيد يجب أن يؤكد أن الشخص الثاني أفضل من الأول. إن موقفاً كهذا هو بالطبع خرافي ومضاد للعقل بشكل كامل. مع

ذلك فهذا السخف حتمي طالما يعتقد البعض أن تجنب الخطيئة أهم من الفضيلة الإيجابية، وطالما لم يتم الاعتراف بأهمية المساعدة التي تقدمها المعرفة للوصول إلى الحياة المفيدة.

الاعتراض الثاني والجوهري على استخدام الخوف والكراهية كما تفعل الكنيسة هو أنه من الممكن تقريباً التخلص من هذه العواطف بشكل كامل عن طريق الإصلاحات التربوية والاقتصادية والسياسية. يجب أن تكون الإصلاحات التربوية هي الأساس، بما أن أولئك الذين يشعرون بالخوف والكراهية يعجبون بهذه المشاعر ويتمنون دوامها، بالرغم من أن هذا الإعجاب والتمني غير واع على الأغلب، كما هو حال المسيحي العادي. ليس صعباً وضع تربية هدفها التخلص من الخوف. من الضروري فقط التعامل مع الطفل بلطف، ووضعه في بيئة تسمح بروح المبادرة دون نتائج كارثية، وعدم اتصاله مع بالغين ذوي مخاوف لا عقلانية، سواء من الظلام، أو الفئران، أو الثورة الاجتماعية. ويجب ألا نفرض على الطفل عقوبات قاسية، أو تهديد أو توبيخ مبالغ به وخطير. التخلص من الكراهية عمل أصعب. يجب الابتعاد عن المواقف التي تولّد الغيرة عن طريق العدالة الدقيقة بين الأطفال. يجب أن يشعر الطفل أنه محل لعاطفة حارة على الأقل من قبل البالغين المقرّبين، ويجب ألا نعوق نشاطه وفضوله الطبيعيين إلا في الحالات التي تشكل خطراً على حياته أو صحته. بشكل خاص، يجب ألا يوجد تابو على المعرفة الجنسية، أو على الحديث في الموضوعات التي يعتبرها الناس التقليديون غير ملائمة. إذا اتُّبعت هذه المبادىء البسيطة منذ البداية، فالطفل سوف يصبح مقداماً وودوداً.

عند دخول حياة البالغين، بكل الأحوال، سوف يجد الشاب المتعلم أو الشابة المتعلمة وفقاً لهذه الطريقة نفسه أو نفسها غارقاً في عالمٍ مليءٍ بالظلم، مليءٍ بالوحشية، وبالبؤس الذي يوجد في العالم الحديث. وهذا كله موروث من الماضي، والمصدر الأساسي هو الاقتصاد، بما أن معركة الحياة أو الموت على مصادر العيش كانت محتومة. ولكنها ليست محتومة في عصرنا. نستطيع باستخدام تقنياتنا الصناعية الحالية، إذا أردنا، أن ننتج مصادر عيشٍ كافية بشكل مقبول للجميع. يجب أن يبقى تعداد السكان العالمي ثابتاً إذا استطعنا منع التأثير السياسي للكنائس التي تفضل الحرب والأوبئة والمجاعة على منع الحمل. إن المعرفة التي تؤدي إلى السعادة العالمية موجودة، والعقبة الأساسية للاستفادة منها هو التعاليم الدينية. الدين يمنع أطفالنا من الحصول على التربية العقلانية؛ الدين يمنعنا من التخلص من الأسباب الرئيسية للحروب، الدين يمنعنا من تعليم أخلاق التعاون العلمي التي يجب أن تحل مكان التعاليم القاسية العتيقة حول الإثم والعقاب. هنالك احتمال أن تكون البشرية على عتبة عصرٍ ذهبي، ولكن، إذا كان هذا صحيحاً، فمن الضروري أولاً قتل التنين الذي يحرس البوابة، وهذا التنين هو الدين.

من هو اللا أدري؟

يعتقد اللاأردي أنه من المستحيل أن نعرف الحقيقة فيما يتعلق ببعض الأمور كالله والحياة الآخرة، هذه الأمور التي تهتم بها المسيحية وأديان أخرى. إن لم يكن ذلك مستحيلاً، فعلى الأقل، مستحيل في الوقت الحالي.

هل اللاأدريون ملحدون؟

لا. الملحد، كالمسيحي، يرى أننا *نستطيع* أن نعرف هل يوجد إله أم لا. يرى المسيحي أننا نستطيع أن نعرف أن الله موجود؛ أما الملحد فيرى أننا نستطيع أن نعرف أن الله غير موجود. اللاأدري يعلّق الحكم، قائلاً أنه لا توجد أسباب كافية للتأكيد أو للنفي. في الوقت ذاته، قد يرى اللاأدري أن وجود الله، بالرغم من أنه ليس مستحيلاً، فهو غير مرجّح؛ وقد يرى أنه غير مرجح لدرجة أن الأمر لا يستحق المناقشة عملياً. في هذه الحالة، هو ليس ببعيد عن الملحد. موقفه قد يكون موقف الفيلسوف الحذق من آلهة الإغريق القدامى. لو طُلب مني أن أبرهن أن زيوس

وبوسيدون وهيرا وبقية آلهة الأولمب لا وجود لهم، سأجد نفسي تائهاً في محاولة الوصول إلى نتائج حاسمة. قد يرى اللاأدري أن وجود الإله المسيحي غير مرجح كآلهة الأولمب؛ في هذه الحالة، في الأمور العملية، هو والملحد سواء.

بما أنك تنكر «شريعة الله»، ما هي السلطة التي تقبل بها كمرشد للسلوك؟

لا يقبل اللاأدري بأية «سلطة» بالطريقة التي يقبل بها المؤمن سلطة الله. يرى اللاأدري أن الإنسان يجب أن يبحث عن أجوبة لأسئلة السلوك بنفسه. بالطبع، سيسعى للاستفادة من حكمة الآخرين، ولكن عليه أن يختار بنفسه أولئك الذين يراهم حكماء، ولن يعتبر ما يقولونه مسلّماً به. سيلاحظ أن ما اعتُبر «شريعة الله» يتغير من وقت لآخر. قال الإنجيل بأن المرأة يجب ألا تتزوج شقيق زوجها المتوفى، وأنها يجب أن تتزوجه، في حالات محددة. لو جعلكِ سوء الحظ أرملة بلا أطفال وللمرحوم أخ أعزب، فمنطقياً من المستحيل أن تتجنّبي معصية «شريعة الله».

كيف تعرف ما الخير وما الشر؟ ما الذي يعتبره اللاأدري خطيئة؟

بعكس المسيحي، اللاأدري ليس متأكداً ما الخير وما الشر. لا يرى، عكس معظم المسيحيين في الماضي، أن من يختلف مع الحكومة في بعض

النقاط الغامضة الفقهية يجب أن يُعذَّب حتى الموت. هو ضد الاضطهاد، وبالأصل متردد إزاء الإدانة الأخلاقية.

أما بالنسبة إلى «الخطيئة»، فلا يراها فكرة مفيدة. هو يعترف، بالطبع، أن بعض أنواع السلوك قد تكون مرغوبة أو غير مرغوبة، ولكنه يرى أن عقاب الأنواع غير المرغوبة يجب تنفيذه فقط إذا كان العقاب رادعاً أو إصلاحياً، وليس لأنه يعتقد أن معاناة المسيء أمر جيد بذاته. لقد كان هذا الإيمان بالعقاب الانتقامي ما دفع الناس إلى الإيمان بالجحيم. هذا جزء من الضرر الذي جلبته فكرة «الخطيئة».

هل يفعل اللاأدري كل ما يرضيه؟

نعم. ومن ناحية ثانية، كل شخص يفعل ما يرضيه. لنفرض، مثلاً، أنك تكره أحدهم وتود قتله. لماذا لا تفعل ذلك؟ قد تجاوب «لأن الدين يخبرني أن القتل خطيئة». ولكن واقع الإحصاءات يقول أن اللاأدريون ليسوا أكثر نزوعاً نحو الجريمة من بقية الناس، في الواقع هم أقل نزوعاً. لهم نفس الدوافع للامتناع عن الجريمة كبقية الناس. وأقوى وأشد هذه الدوافع الخوف من العقاب. في الظروف التي يغيب فيها القانون، كما في حمى البحث عن الذهب، يرتكب الجميع الجرائم، بالرغم من أنهم في الظروف العادية يطيعون القانون. لا يتعلق الأمر بالعقاب القانوني الفعلي؛ هناك القلق من أن تُكتشف الجريمة، والشعور بالوحدة المرافق لتجنب أن تكون مكروهاً، حيث عليك أن ترتدي قناعاً حتى مع أقرب المقرّبين. هناك أيضاً ما يمكن أن نطلق عليه «الضمير»: إذا فكرت

بارتكاب جريمة، ستخشى من الذكرى المخيفة للحظات الأخيرة لضحيتك أو للجثة الميتة. كل هذا، بالطبع، يعتمد على وجودك في مجتمع خاضع للقانون، ولكن هناك أسباب دنيوية كثيرة لخلق والحفاظ على هكذا مجتمع.

لقد قلت إن هناك معنى آخر لقولنا أن كل إنسان يفعل ما يرضيه. لا أحد إلا الأحمق يشبع كل رغباته، ولكن ما يجعل رغبة ما مقبولة هو أنها محدودة برغبات أخرى. رغبات المرء المؤذية اجتماعياً قد تكبحها رغبته في أن يرضي الله، ولكن قد تكبحها رغبته في أن يرضي أصدقاءه أيضاً، أو أن يكتسب احترام مجتمعه، أو أن يفكر بنفسه دون اشمئزاز. ولكن إن لم يرغب في أيٍّ من هذه الأمور، فالفكرة المجردة للأخلاق لن تجعله مستقيماً.

ما الذي يراه اللاأدري في الإنجيل؟

يرى اللاأدري في الإنجيل نفس ما يراه رجال الدين المتنوّرون تماماً. لا يعتقد أنه إلهام إلهي؛ يعتقد أنه تاريخ مبكر أسطوري، لا صدق فيه أكثر مما في هوميروس؛ ويعتقد أن تعاليمه الأخلاقية جيدة في بعض الأحيان، وسيئة جداً في أحيان أخرى. على سبيل المثال: طلب صموئيل من شاؤول في أحد الحروب، لا أن يقتل كل رجل وطفل وامرأة من الأعداء فقط، بل أن يقتل كل الخرفان والماشية أيضاً[11]. ولكن شاؤول لم يقتل كل الخرفان والماشية، ولذلك يطلب منا الإنجيل أن ندينه. لم أستطع أبداً

11- انظر سفر صموئيل الأول، الأصحاح الخامس عشر. (م).

أن أحترم أليوشع بسبب لعنه للأطفال الذين سخروا منه، أو أن أصدّق (وهو ما يؤكده الإنجيل) أن الله الخيّر قد أرسل دبّتين لقتل الأطفال[12].

ما الذي يراه اللاأدري في يسوع، والولادة بلا دنس، والثالوث المقدّس؟

بما أن اللاأدري لا يؤمن بالله، فلا يمكن أن يعتقد أن يسوع هو الله. معظم اللاأدريين يقدّرون حياة يسوع وتعاليمه الأخلاقية كما ترويها الأناجيل، ولكن ليس بشكل أكبر مما يقدّرون بعض الرجال الآخرين. سيضعه البعض في سوية بوذا، آخرون في سوية سقراط، وغيرهم في سوية أبراهام لنكولن. كما لا يرون أن ما قاله غير خاضع للمساءلة، بما أنهم لا يقبلون بأية سلطة مطلقة.

هم يعتبرون الولادة بلا دنس أسطورة مستمدة من الميثولوجيا الوثنية، حيث لم تكن مثل هذه الولادات نادرة الحدوث. (قيل إن زراداشت ولد من عذراء، عشتار، الآلهة البابلية، تلقّب بالعذراء المقدّسة). لا يستطيع اللاأدريون أن يؤمنوا بهذه الولادة، أو بالثالوث المقدّس، لأن كليهما غير ممكن دون الإيمان بالله.

هل يستطيع اللاأدري أن يكون مسيحياً؟

لكلمة «مسيحي» معانٍ مختلفة متعددة في أزمان مختلفة. خلال

12- انظر سفر الملوك الثاني، الأصحاح الثاني، الآية 23-24. (م).

معظم القرون التالية للمسيح كانت تعني الشخص الذي يؤمن بالله وبالخلود ويعتقد أن يسوع هو الله. ولكن التوحيديين يسمون أنفسهم ميسيحيين[13]، بالرغم من أنهم لا يؤمنون بألوهية المسيح، وكثير من الناس في أيامنا هذه يستخدمون كلمة «الله» بمعنى غير مضبوط، على العكس مما كان عليه الحال سابقاً. معظم من يقولون إنهم يؤمنون بالله لم يعودوا يعنون بذلك شخصاً، أو ثالوثاً من الأشخاص، ولكن فقط ميلاً غامضاً نحو قوة غامضة أو هدف مرتبط بالتطور. يذهب آخرون أبعد من ذلك، ويعنون «بالمسيحية» نظاماً أخلاقياً فقط، ويتخيلون أنه، بما أنهم جاهلون بالتاريخ، خاص بالمسيحية وحدها.

عندما قلت في أحد كتبي المنشورة حديثاً، إن ما يحتاجه العالم هو «المحبة، المحبة المسيحية، الشفقة»، اعتقد بعض الناس أن هذا يُظهر بعض التغييرات في آرائي، بالرغم من أنني كان من الممكن أن أقول الشيء نفسه في أي وقت.

إذا كنت تعني «بالمسيحي» الشخص الذي يحب جاره، والذي يتعاطف بشكل كبير مع الألم، والذي بحماسة يرغب بعالم خالٍ من الوحشية والكراهية التي تشوّهه حالياً، إذاً، بالتأكيد، من المسوّغ أن تسمّيني مسيحياً. وبهذا المعنى، ستجد «مسيحيين» بين اللاأدريين أكثر مما ستجدهم بين المسيحيين التقليديين. ولكن، من جهتي، لا أستطيع أن أقبل مثل هذا التعريف. بغض النظر عن بعض الاعتراضات عليه، يبدو لي متجاهلاً لليهود والبوذيين والمحمديين الذين، كما يخبرنا التاريخ،

13- أي المسيحيون الذين لم يؤمنوا بالثالوث. (م).

كانوا، كالمسيحيين على الأقل، ميالين لممارسة هذه الفضائل، التي يدّعي المسيحي المعاصر بتعجرف أنها مميزة لدينه فقط.

أعتقد أيضاً أن معظم من سمّوا أنفسهم مسيحيين في السابق، وأكثرية عظمى ممن يفعلون ذلك في الوقت الحالي، سيعتبرون أن الإيمان بالله وبالخلود أمر جوهري للمسيحي. لهذه الأسباب، لن أدعو نفسي مسيحياً، ويجب أن أقول إن اللاأدري لا يمكن أن يكون مسيحياً. ولكن، إن أصبح معنى كلمة «المسيحية» يعني عموماً نوعاً ما من الأخلاق فقط، سيمكن بالطبع للاأدري أن يُسمى مسيحياً.

هل ينكر اللاأدري أن للإنسان روحاً؟

ليس لهذا السؤال معنى إن لم نحدد بدقة ما نعنيه «بالروح». أعتقد أن المقصود، بشكل تقريبي، هو شيء لا مادي متواصل طيلة حياة المرء، وحتى، لمن يؤمن بالخلود، في كل الزمن القادم. إن كان هذا هو المقصود، فاللاأدري لا يؤمن بوجود الروح غالباً. ولكن يجب أن أسارع بالقول إن اللاأدري ليس مادياً بالضرورة. العديد من اللاأدريين يشكون بالجسد كشكهم بالروح تماماً، ولكن هذه قصة طويلة ستأخذنا إلى صعوبات ميتافيزيقية. العقل والمادة، يجب أن أقول، رموز مناسبة فقط للحديث، ولكنها ليست أشياء موجودة فعلاً.

هل يؤمن اللاأدري بالآخرة، بالجنة والجحيم؟

السؤال إن كان الناس يعيشون بعد الموت أحد الأسئلة التي

من الممكن إيجاد دليل للإجابة عنها. يرى كثير من الناس أن البحث الفيزيائي والروحانيات تزوّدنا بالأدلة. اللاأدري لا يتبنى رأياً حول الحياة بعد الموت إلا إذا اعتقد أنه وجد الدليل الكافي. بالنسبة إليَّ، لا أعتقد أنه هناك أي سبب جيد كي نؤمن بالحياة بعد الموت، ولكنني جاهز للاقتناع بها إن ظهر الدليل الكافي.

الجنة والجحيم شيء مختلف. الإيمان بالجحيم مرتبط بالإيمان بأن عقاب الخطيئة بهدف القصاص شيء جيد، بشكل مستقل تماماً عن أي أثر إصلاحي أو غيره قد تحمله العقوبة. نادراً ما يؤمن أي لاأدري بهذا. بالنسبة إلى الجنة، قد يوجد دليل معقول في يوم من الأيام على وجودها عن طريق الروحانيات، ولكن معظم اللاأدريين لا يعتقدون بوجود مثل هذا الدليل، لذا فهم لا يؤمنون بالجنة.

ألا تخاف أبداً من عقاب الله بسبب نكرانك له؟

بشكل كامل كلا، أنا أيضاً أنكر وجود زيوس وجوبيتر وأودين[14] والبراهما، ولكن هذا لا يسبب لي أي تأنيب ضمير. لقد لاحظت أن جزءاً كبيراً من البشرية لا تؤمن بالآلهة ولا يعاني من أية عقوبات مرئية نتيجة لذلك. إن كان هناك إله، أعتقد أنه من المستبعد أن يملك مثل هذا الغرور الزائف الذي يجعله يشعر بإهانة موجهة إليه من قبل أولئك الذين يشكّون في وجوده.

14- أحد كبار آلهة شمال أوروبا في العصور القديمة. (م).

كيف يشرح اللاأدري الجمال والتناغم الموجود في الطبيعة؟

أنا لا أعرف أين نجد هذا «الجمال» و«التناغم» الذي تفترضون. في كل مكان من مملكة الحيوان، تفترس الحيوانات بعضها دون رحمة. معظم الحيوانات إما أن يُقتلوا بوحشية من قبل حيوانات أخرى أو يموتوا ببطء بسبب الجوع. بالنسبة إليّ، أنا عاجز عن رؤية أي جمال أو تناغم عظيمين في الدودة الشريطية. لا يجوز القول أن هذا المخلوق قد أُرسل كعقاب على خطايانا، لأن الإصابة بها منتشر بين الحيوانات أكثر مما بين البشر. أعتقد أن السائل يفكر بأمور أخرى من قبيل جمال السماء المرصعة بالنجوم. ولكن على المرء أن يتذكر أن النجوم تنفجر أحياناً محوّلة كل ما حولها إلى هباء ملتبس. على كل حال، الجمال شأن ذاتي ويوجد فقط في عين من يراه.

كيف يشرح اللاأدريون المعجزات وبقية أنواع الوحي التي تظهر قدرة الله الكلية؟

لا يعتقد اللاأدريون أن هناك أي دليل على «معجزات»، إن كان المقصود بهذا الحوادث التي تتعارض مع القوانين الطبيعية. نحن نعرف أن شفاء بعض الأمراض بالإيمان قد حدث ولا يوجد شيء خارق للطبيعة في ذلك. في لورد[15]، يتم شفاء أمراض معينة، ولا يتم شفاء غيرها. تلك التي يتم الشفاء منها قد يستطيع أي طبيب معالجتها إن

15- بلدة في جنوب فرنسا، اشتهرت بعلاج المرضى باستخدام الروحانيات. (م).

آمن به مريضه. أما فيما يتعلق بتسجيل معجزات أخرى، كأن يأمر يوشع الشمس بأن تقف ثابتة، فيرفضها اللاأدري كأساطير، ويشير إلى أن كل الأديان تحتوي على العديد من مثل هذه الأساطير. الأدلة على معجزات آلهة الإغريق في كتابات هومر تتمتع بنفس مصداقية الإنجيل.

هناك رغبات متوحشة ومنحطة تكبحها الأديان. إن تخليت عن المبادئ الدينية، هل تستمر البشرية؟

لا أحد ينكر وجود الرغبات المتوحشة والمنحطة، ولكنني لا أجد أي دليل في التاريخ يثبت أن الأديان عارضت هذه الرغبات. على العكس، فقد كرستها، وسمحت للناس بأن يشبعوا هذه الرغبات دون أي شعور بالذنب. كان الاضطهاد الوحشي أكثر شيوعاً في البلدان المسيحية من أي مكان آخر. يبدو أن ما برر الاضطهاد هو الإيمان الدوغمائي. ساد التسامح والتعاطف بالتناسب مع انحلال الإيمان الدوغمائي. في أيامنا هذه، ينتشر دين دوغمائي جديد، هو الشيوعية. يعارض اللاأدري نظام الدوغما هذا كما يعارض غيره. أسلوب الاضطهاد الذي تتبعه الشيوعية هو بالضبط نفس الأسلوب الذي اتبعته المسيحية في القرون السابقة. يعود تراجع الاضطهاد في المسيحية بشكل رئيس إلى جهد المفكرين الأحرار الذين جعلوا تعاليمها أقل دوغمائية. لو كانوا دوغمائيين اليوم كما كانوا في السابق، لكانوا ما زالوا يعتقدون أنه من الجيد حرق الهراطقة على العمود. روح التسامح التي يعتبرها بعض المسيحيين جوهرية للمسيحية هي، في الحقيقة، نتيجة للروح التي تسمح بالشك والارتياب

في اليقينيات المطلقة. أعتقد أن أي إنسان يدرس التاريخ بطريقة غير منحازة سيصل إلى النتيجة القائلة أن الدين سبب عذابات أكثر مما منعها.

ما هو معنى الحياة للاأدري؟

أجد أنني مضطر إلى الإجابة بسؤال ثانٍ: ما هو معنى «معنى الحياة»؟ أعتقد أن المقصود هدف عام. لا أعتقد أن الحياة بشكل عام لها أي هدف. هي فقط وُجدت. ولكن أفراد الجنس البشري لهم أهداف، ولا يوجد شيء في اللاأدرية يجعلهم يتخلون عنها. هم لا يستطيعون، بالطبع، أن يكونوا متيقنين من أنهم سيحققون أهدافهم، ولكننا لا نحترم الجندي الذي يرفض القتال حتى يتأكد من النصر. من يحتاج الدين كي يضمن تحقيق أهدافه جبان، ولا يرقى إلى مستوى من يجرب حظوظه، معترفاً أن الهزيمة ليست مستحيلة.

ألا يعني إنكار الدين إنكار الزواج والعفة؟

هنا أيضاً، على المرء أن يرد بجواب آخر: هل من يسأل هذا السؤال يؤمن بأن الزواج يؤدي إلى السعادة على هذه الأرض هنا، أم هل يعتقد أن الزواج يؤدي إلى البؤس على الأرض هنا، ولكنه وسيلة للوصول إلى الجنة؟ من يتبنى الرأي الثاني سيعتقد بلا شك أن اللاأدرية ستؤدي إلى انحلال ما يدعوه بالفضيلة، ولكن عليه أن يعترف أن ما يدعوه بالفضيلة لا يسهم في السعادة البشرية فيما نحن هنا على هذه الأرض. أما، من جهة

أخرى، إذا تبنى الرأي الأول، أي أن هناك حجج دنيوية في صالح الزواج والعفة، فيجب أن يقول إن هذه الحجج ستؤثر في اللاأدري. اللاأدريون، بوصفهم لاأدريين، ليس لديهم وجهات نظر خاصة بخصوص الأخلاق الجنسية. ولكن معظمهم يرون أن هناك حجج جيدة ضد الإشباع غير المقيّد للرغبات الجنسية. ولكنهم يستندون في هذه الحجج إلى مصادر دنيوية وليس إلى أوامر إلهية مفترضة.

أليس الإيمان بالعقل وحده عقيدة خطيرة؟ أليس العقل ناقص وغير مؤهل في غياب القانون الروحي والأخلاقي؟

لا يوجد رجل عاقل، مهما كان لاأدرياً، «يؤمن بالعقل وحده». العقل يختص بالحقائق، بعضها يأتي بالملاحظة، وغيرها بالاستنتاج. السؤال إن كان هناك حياة آخرة أو هناك إله يتعلّق بالحقائق، ويرى اللاأدري أن يُبحث فيهما كما يبحث في سؤال «هل سيحدث خسوف للقمر غداً؟» ولكن الحقائق وحدها ليست كافية كي تقود أفعالنا، بما أنها لا تقول لنا ما هي الغايات التي يجب أن نسعى إليها. في مملكة الغايات، نحتاج إلى شيء آخر غير العقل. اللاأدري سيجد غايات في قلبه وليس في أوامر خارجية.

لنطرح المثال التالي: افرض أنك تريد أن تركب القطار من نيويورك إلى شيكاغو، ستستخدم العقل لتعرف متى ينطلق القطار، ومن يعتقد أن هناك ملكة عقلية تزوده بإلهام أو حدس تجعله غير مضطر إلى جدول انطلاق القطارت كي يعرف مواعيد الانطلاق سنرى فيه شخصاً

سخيفاً. الحكمة لا تعلّم جداول الانطلاق، عليه أن يأخذ بالحسبان الوقائع؛ ولكن خلف كل الوقائع، هناك الغايات التي يعتقد أنها ملائمة كي يسعى إليها، وهذه الغايات بالنسبة إلى اللاأدري كما بالنسبة إلى بقية البشر، لا تنتمي إلى مملكة العقل، بالرغم من أنها لا يجوز أن تتعارض معها أبداً. أقصد مملكة العواطف والرغبات والمشاعر.

هل ترى أن كل الأديان تمثّل ضروباً من الخرافات والدوغما؟ ما هو الدين الموجود الذي تحترمه أكثر من غيره، ولماذا؟

كل الأديان المنظّمة العظمى التي انتشرت بشكل واسع بين الشعوب تحتوي قدراً كبيراً من الدوغما، ولكن معنى كلمة «الدين» ليس معرفاً بشكل دقيق. على سبيل المثال، نستطيع القول إن الكونفوشوسية دين، بالرغم من أنها لا تحتوي أي دوغما. وفي بعض ضروب المسيحية المتحررة، تم تقليص الدوغما إلى أدنى حد.

من بين الأديان العظمى في التاريخ، أنا أفضّل البوذية، خصوصاً في بداياتها، لأنها مارست أقل اضطهاد ممكن.

الشيوعية كاللاأدرية تعارض الدين، هل اللاأدريون شيوعيون؟

الشيوعية لا تعارض الدين. بالكاد تعارض المسيحية، بالضبط كما يعارضها الدين المحمدي. الشيوعية، على الأقل في الشكل الذي تتبناه

الدولة السوفيتية والحزب الشيوعي، هي نظام دوغما جديد يمارس الاضطهاد بشكل واسع. لذلك، كل لاأدري أصيل يجب أن يعارضها.

هل يعتقد اللاأدريون أنه من المستحيل التوفيق بين العلم والدين؟

يعتمد الجواب على ما هو المقصود بكلمة «الدين». إذا كان المقصود مجرد نظام أخلاقي، فالجواب نعم يمكن التوفيق بين الدين والعلم. إذا كان المقصود نظام دوغما، يتم القبول بصحته دون مساءلة، فهذا غير متوافق مع الروح العلمية، والتي ترفض القبول بادعاءات تتعلق بالواقع دون دليل، وترى أيضاً أن اليقين الكامل يكاد يكون مستحيلاً.

ما هو نوع الدليل الذي يمكن أن تقبله على وجود الله؟

أعتقد أنني لو سمعتُ صوتاً قادماً من السماء يتنبأ بكل ما سيحدث لي في الساعات الأربع والعشرين القادمة، بما فيها الأحداث ذات الاحتمالية المنخفضة جداً، وإن حدثت كل هذه الأمور، ربما قد أقتنع بوجود ذكاء أرفع من ذكاء البشر. أستطيع أن أتخيل أدلة مشابهة قد تحملني على الاقتناع، ولكن على حد علمي، لا يوجد هكذا أدلة.

هل ننجو من الموت؟

نشر هذا المقال لأول مرة عام 1936 في كتابِ عنوانه أسرار الحياة والموت. مقال القس بيرنز الذي يشير راسل إليه إليه نشر في نفس الكتاب.

قبل أن نناقش بشكل ملائم ما إذا كنا سنستمر في الوجود بعد الموت، سيكون أمراً حسناً أن نوضح ما معنى أن يكون المرء اليوم ذات الشخص الذي كانه البارحة. اعتاد الفلاسفة القول إن هناك جواهر محددة، الروح والجسد، تدوم من يوم إلى آخر، وإن الروح، ما أن تُخلق، حتى تستمر في الوجود إلى الأبد، أما الجسد فيكفّ عن الوجود منذ الوفاة إلى بعث الأجساد.

القسم الخاص بالحياة الحالية من هذا التعليم، خاطئ تماماً بالتأكيد. تتغير مادة الجسم باستمرار عن طريق عمليتي التغذية والطرح. حتى لو لم يكن الأمر كذلك، لم يعد يفترض أحد في الفيزياء أن للذرات وجوداً

مستمراً، لا يوجد معنى لقولنا: هذه هي الذرة ذاتها التي كانت قبل عدّة دقائق. استمرارية الجسم البشري مسألة مظهر وسلوك، لا مسألة مادة.

نجد الشيء نفسه فيما يتعلق بالعقل. نحن نفكر ونشعر ونفعل، ولكن لا يوجد بالإضافة إلى الأفكار والمشاعر والأفعال، كينونة صرفة، كالعقل أو الروح، تُحدث أو يحدث فيها هذه الأشياء. الاستمرارية العقلية لشخص ما هي استمرارية العادة والذاكرة، كان يوجد البارحة شخص أستطيع تذكر مشاعره، وأعتبر هذا الشخص ذاتي في اليوم السابق، ولكن في الحقيقة، ذاتي في اليوم السابق ليست إلا حوادث ذهنية معينة أتذكرها الآن وأعتبرها جزءاً من الشخص الذي يعيد تجميعها. ما يشكل الشخص هو سلسة من الخبرات المتصلة عن طريق الذاكرة وعن طريق تشابهات معينة من النوع الذي نسميه العادة.

لذلك، إن كنا نؤمن بأن الإنسان سينجو من الموت، يجب أن نؤمن بأن الذكريات والعادات التي تشكل هذا الإنسان سوف تستمر في الظهور في شكل جديد.

لا يستطيع أحد أن يثبت أن هذا لن يحصل. ولكن من السهل أن نرى أنه مستبعد. ذاكرتنا وعاداتنا مرتبطة ببنية الدماغ، بنفس الطريقة التي يرتبط بها النهر بمجراه. يتغير الماء في النهر باستمرار، ولكنه يحافظ على الطريق ذاته لأن أمطاراً سابقةً قد شكلت المجرى. بطريقة مماثلة، شكلت الأحداث السابقة مجرىً في الدماغ، وأفكارنا تجري عبر هذا المجرى. هذا سبب الذاكرة والعادات الذهنية. لكن الدماغ، كبنية، ينحل عند الموت، لذا فمن المتوقع أن تنحلّ الذاكرة أيضاً. لا يوجد سبب منطقي كي نؤمن

بعكس ذلك أكثر مما يوجد سبب لتوقع أن النهر سوف يحافظ على مجراه القديم بعد أن يقوم جبل مقام الوادي إثر هزة أرضية.

كل الذاكرة، ولذا (نستطيع القول) كل العقول، تعتمد على خاصية **نستطيع ملاحظتها جيداً في أنواعٍ معينة من البنى المادية لكن يوجد القليل** منها، إن وجدت، في أنواعٍ أخرى. إنها خاصية تشكيل عادات كنتيجة لأحداث متشابهة متواترة. على سبيل المثال، إذا أنرتَ ضوءاً موجّهاً إلى عيني شخصٍ ما بشكل متكرر وقرعت جرساً في الوقت ذاته، فإن الجرس لوحده، في النهاية سوف يؤدي إلى تقلص بؤبؤ العينين. هذه حقيقة بالنسبة إلى الدماغ والجهاز العصبي، أي، بالنسبة إلى بنية مادية معينة. سوف نجد أن حقائق أخرى مماثلة بالضبط تشرح استجابتنا للغة واستخدامنا لها، لذاكرتنا وللمشاعر التي تثيرها، وعاداتنا الأخلاقية أو اللاأخلاقية، وفي الحقيقة لكل الأشياء التي تكون شخصيتنا العقلية، باستثناء ذلك الجزء الذي تحدده الوراثة.

الجزء الذي تحدده الوراثة ينتقل إلى ذريتنا لكنه لا يستطيع، في الفرد، النجاة من انحلال الجسد. ولكن كلاً من الأجزاء الوراثية والمكتسبة في شخصيتنا مرتبطة، تبعاً لمعرفتنا حتى الآن، بمزايا بنىً جسدية محددة. جميعنا نعلم أن الذاكرة قد تمحى نتيجة ضرر يصيب الدماغ، وأن رجلاً فاضلاً قد يتحول إلى رجلٍ فاسد، نتيجة التهابٍ دماغي، وأن طفلاً ذكياً قد ينقلب إلى أحمق بسبب نقص اليود. بملاحظة حقائق مشابهة يبدو أنه من الصعب أن ينجو العقل من التدمير الكامل لبنية الدماغ والذي يحدث عند الموت.

ليس الحجج العقلية بل الانفعالات، ما يدفع الناس للإيمان بالحياة الآخرة.

أهم هذه الانفعالات الخوف من الموت، وهو خوف مفيد غريزياً وبيولوجياً. إذا آمنا بإخلاص ومن كل قلوبنا بالحياة الآخرة، فسوف نكف تماماً عن الخوف من الموت. ستكون النتائج غريبة، وعلى الأغلب سيأسى لها معظمنا. لكن أجدادنا البشر وما قبل البشر قد حاربوا وأبادوا أعداءهم خلال عصور جيولوجية كثيرة واستفادوا من الشجاعة، لذلك فمن المفيد للمنتصرين في الصراع من أجل البقاء أن يكونوا قادرين، عند الضرورة، على التغلب على الخوف الطبيعي من الموت. بين الحيوانات والمتوحشين، يكفي حب القتال الغريزي لتحقيق هذا الهدف، ولكن في مرحلة معينة من الحضارة، كما أثبت المحمديون لأول مرة، يكون للإيمان بالفردوس قيمة عسكرية هامة لتعزيز الحب الغريزي للقتال. لذلك يجب أن نعترف بأن أولئك الذين يقدسون الروح العسكرية يتصرفون بحكمة عندما يشجعون الإيمان بالخلود، مفترضين دائماً أن هذا الإيمان لن يصبح عميقاً بشكل كاف للوصول إلى اللامبالاة تجاه قضايا هذا العالم.

الانفعال الآخر الذي يشجع هذا الإيمان هو الإعجاب بتفوق البشر. كما يقول أسقف برمنغهام: «إن عقلهُ أداة أفضل من أي شيء آخر ظهر حتى الآن، إنه يعرف الخطأ والصواب. يستطيع بناء كنيسة ويستمينستر. يستطيع صناعة الطائرات. يستطيع حساب المسافة عن الشمس، أمن المعقول إذاً، أن يفنى الإنسان تماماً عند الموت؟ هل تختفي هذه الأداة الفريدة، عقله، عندما تنتهي الحياة؟».

يتابع الأسقف حجته بقوله: «لقد تشكل الكون وحكم بواسطة العقل، وسوف يكون من غير المعقول، بعد أن خُلِق الإنسان، أن يُترك للفناء».

يوجد العديد من الردود على هذه الحجة. في المقام الأول، لقد توصلنا إلى أن تدخّل القيم الأخلاقية أو الجمالية في الأبحاث العلمية حول الطبيعة يشكل عائقاً أمام الاكتشافات. لقد ساد الاعتقاد بأن الأجسام السماوية يجب أن تتحرك بشكل دائري لأن الدائرة هي الشكل الأكمل، وأن الأنواع يجب أن تكون غير قابلة للتغير لأن الله لا يخلق إلا ما هو كامل وبالتالي لا يحتاج عمله إلى أية تحسينات، إنه أمر غير مفيد أن نحارب الأوبئة إلا بالتوبة لأن الله قد أرسلها كعقاب لخطايانا.. الخ. بكل الأحوال، لقد توصلنا، ضمن معلوماتنا الحالية، إلى أن الطبيعة لا تبالي بقيمنا وأننا لا نستطيع فهمها إلا إذا تجاهلنا أفكارنا حول الخير والشر. قد يكون للكون غاية ما، لكن لا شيء مما نعرفه يجعلنا نفترض، إذا كان للكون غاية فعلاً، أن هذه الغاية سوف تكون مشابهة لغاياتنا.

لا يوجد شيءٌ مفاجئ في ذلك. يخبرنا الدكتور بيرنز أن الإنسان «يعرف الصواب والخطأ». ولكن، في الحقيقة، وكما ترينا الأنثروبولوجيا، تختلف مفاهيم البشر حول الصواب والخطأ إلى درجة أننا لا نجد نقطة ثابتة تماماً. لذلك، لا نستطيع القول إن الإنسان يعرف الخطأ والصواب، لكن بعض الناس فقط يعرفون الخطأ والصواب. من هم أولئك البشر؟ كان نيتشه يؤمن بأخلاقٍ تختلف بشكل كامل عن أخلاق يسوع، وبعض الحكومات القوية قبلت تعاليمه. إذا كانت معرفة الصواب والخطأ تصلح

كحجة للإيمان بالخلود، فعلينا أولاً أن نقرر هل نؤمن بيسوع أم بنيتشه، ومن ثم نقرر بأن المسيحيين خالدون، وليس هتلر أو موسوليني، أو بالعكس. القرار سيُتخذ، كما هو واضح، على أرض المعركة، وليس بالدراسة. أولئك الذين يملكون أفضل الغازات السامة سيملكون أخلاق المستقبل وبالتالي سيكونون الخالدين.

إن معتقداتنا ومشاعرنا حول موضوع الخير والشر، كأي شيء آخر حولنا، حقائق طبيعية، تطورت خلال الصراع من أجل البقاء وليس لها أية أصول إلهية أو فوق طبيعية. في إحدى حكايات أيسوب، يرى الأسد رسوماً تصور صيادين يمسكون بالأسود ويلاحظ أنه، إذا ما أراد أن يرسم، سيرسم صوراً تظهر أسوداً يمسكون بالصيادين. الإنسان، كما يقول الدكتور بيرنز، رفيقٌ جيد لأنه يستطيع صناعة الطائرات. في زمن قريب كان يوجد أغنية شعبية عن ذكاء الذباب لأنه يستطيع المشي على السقف، حيث يردد الكورس: «هل يستطيع ليولد جورج ذلك؟ هل يستطيع السيد بالدوين ذلك؟ هل يستطيع رامزي ماك ذلك؟ طبعاً لا». على هذه الأسس تستطيع ذبابة ذات عقلية لاهوتية أن تقدم حجة قوية، والتي سيجدها الذباب مقنعة للغاية بلا شك.

أكثر من ذلك، نحن لا نكوّن رأياً جيداً عن البشر إلا عندما نفكر بشكل مجرّد. على أرض الواقع، يعتقد معظمنا أن الغالبية العظمى من البشرية سيئة للغاية. تنفق الدول المتحضرة أكثر من نصف دخلها على قتل الدول المتحضرة الأخرى. فلنفكر بالتاريخ الطويل من الممارسات التي ألهمتها الحماسة الأخلاقية: التضحية بالبشر، اضطهاد الهراطقة،

صيد الساحرات، البرامج التي تؤدي إلى الإبادة الكاملة بالغازات السامة، والتي لا بد من أن واحداً على الأقل من من زملاء الدكتور بيرنز يدعمها، بما أنه يعتبر الحركات السلمية لا مسيحية. هل هذه الأمور البغيضة، والتعاليم الأخلاقية التي تحث عليها، تشكل بالفعل أدلة على وجود خالق ذكي؟ وهل نستطيع بالفعل أن نتمنى أن يحيا أولئك الذين يمارسونها إلى الأبد؟ نستطيع فهم العالم الذي نعيش فيه كنتيجة للاختلاط والمصادفة، ولكن إذا كان ناتجاً عن تصميم عاقل، يجب أن يكون هذا التصميم شيطانياً. بالنسبة إليَّ، أجد أن فرضية المصادفة أقل إيلاماً وأكثر معقولية.

إيمان العقلاني

لا نحتاج إلى قوى خارقة للطبيعة كي نجعل الإنسان ودوداً

نشر هذا النص لأول مرة عام 1947

عندما أحاول أن أبحث في المصادر الأصلية لآرائي، سواء العملية أو النظرية، أجد أن أغلب هذه الآراء تنبع بشكل كبير من إعجابي بخصلتين: المشاعر الطيبة والتطابق مع الوقائع. لنبدأ بالمشاعر الطيبة. تنشأ معظم الشرور الاجتماعية والسياسية في العالم بسبب غياب التعاطف وحضور الكراهية، والحسد، أو الخوف. تنتشر هذه المشاعر العدائية بين الأمم، وفي أحيان كثيرة بين الطبقات المختلفة والعقائد المختلفة داخل الأمة الواحدة؛ في الكثير من المهن يكون الحسد عائقاً أمام الاعتراف بالأعمال المميزة؛ كراهية اليهود، وقمع الزنوج، واحتقار كل من هو ليس أبيض، جلبت وما زالت تجلب عذاباً هائلاً على المضطهِدين كما على المضطهَدين. يولّد كل فعل أو شعور عدائي ردّ فعل يزيد من حدته ويولّد سلسلة من

العنف والظلم لها حيوية مريعة. يمكن التغلب على هذا فقط إذا زرعنا في أنفسنا وفي الشباب مشاعر الصداقة بدلاً من العداء، والأماني الطيبة بدلاً من الضغينة، والتعاون بدلاً من التنافس.

إذا سُئلت «لم تؤمن بذلك؟» لن ألجأ إلى أية سلطة خارقة للطبيعة، بل فقط إلى الرغبة العامة بالسعادة. العالم المليء بالكراهية هو عالم مليء بالأسى. كل فريق، عندما توجد الكراهية المتبادلة، يتمنى أن يعاني الفريق الآخر فقط، ولكن هذا نادراً ما يحصل. وحتى أكثر المضطهِدين نجاحاً يمتلؤون بالخوف، ملّاك العبيد، على سبيل المثال، يهجسون بالخوف من تمرد العبيد. من وجهة نظر الحكمة الدنيوية، المشاعر العدائية وتقييد التعاطف حماقة. الثمار ستكون الحرب والموت والقمع والعذاب، ليس فقط للضحايا الأصليين، بل أيضاً، وعلى المدى الطويل، للجناة أو لأحفادهم. أما إذا تعلمنا جميعاً كيف نحب جيراننا فسيتحول العالم إلى فردوس لنا جميعاً بسرعة.

التطابق مع الوقائع، والذي أقدّره تالياً فقط للمشاعر الطيبة، يتضمّن بشكل عام أن نصدّق فقط ما نجد دليلاً عليه، وليس لأن الإيمان بشيء ما مريح أو يشكل مصدراً لمتعتنا. في غياب التطابق مع الوقائع، ستخسر المشاعر الطيبة غالباً عن طريق خداع الذات. كان من الشائع أن يقول الأثرياء إما إنه من الممتع أن تكون فقيراً أو إن الفقر ناتج عن الكسل. يرى بعض الأصحاء أن كل الأمراض سببها الانغماس بالملذات. لقد سمعت من بعض صائدي الثعالب أن الثعالب تحب أن تُصطاد. من السهل جدّاً على من يملكون سلطة استثنائية أن يقنعوا أنفسهم بأن

النظام الذي يستفيدون منه يجلب سعادة أكبر لضحاياه من أي نظام آخر أكثر عدلاً. وحتى عندما لا يوجد أي انحياز، فقط عن طريق التطابق مع الوقائع نستطيع الوصول إلى المعرفة العلمية المطلوبة لبلوغ غاياتنا المشتركة. تذكّروا أننا اضطررنا إلى التخلي عن الكثير من الأحكام المسبقة المحبوبة لتطوير الطب والصحة. لنأخذ مثالاً آخر، كم من الحروب كان من الممكن تجنّبها لو أن الطرف المهزوم قد قيّم قدراته بدقة بدلاً من الغرور والأماني الكاذبة.

عرّف لوك[16] مذهب التطابق مع الوقائع، أو حب الحقيقة، على أنها «عدم قبول أية قضية بثقة أكبر مما يسمح به الدليل الذي يدعمها». هذا التعريف مقبول لكل الأمور التي من المعقول أن نبحث عن برهان لها. ولكن بما أن البراهين تتطلب مقدّمات، من المستحيل إثبات أي شيء إلا إن قبلنا بعض الأمور دون إثبات. لذا يجب أن نسأل أنفسنا: ما هو نوع الأشياء التي من المعقول أن نؤمن بها دون برهان؟ يجب أن أجيب: حقائق التجربة الحسية وأسس الرياضيات والمنطق، بما فيها المنطق الاستقرائي المستخدم في العلوم. هذه أمور من الصعوبة بمكان الشك فيها، ونجد اتفاقاً كبيراً عليها بين البشر. ولكن في الأمور التي نختلف فيها، أو التي تتذبذب فيها قناعاتنا، علينا أن نبحث عن براهين، وإن لم نستطع البرهنة عليها، فعلينا أن نعترف بجهلنا. يعتقد البعض أن التطابق مع الوقائع يجب أن يكون محدوداً. بعض الإيمان، يقولون، مريح ومفيد أخلاقياً في آن معاً، بالرغم من غياب أي أرضية علمية صالحة لافتراض صحته؛ هذا

16- يقصد جون لوك، الفيلسوف الإنجليزي. (م).

الإيمان، بحسب ما يقولون، يجب ألا نبحث فيه بشكل نقدي. أنا نفسي لا أستطيع القبول بمثل هذه الآراء. لا أستطيع أن أصدّق بأن البشرية ستتحسن إن امتنعنا عن البحث في هذا أو ذاك السؤال. أي أخلاق محترمة لا تحتاج لتُؤسس على المراوغة، والسعادة المستقاة من الإيمان غير المبني على أية قاعدة إلا الاستمتاع به لا يمكن قبوله دون تحفظ.

ما سبق ينطبق بشكل خاص على الإيمان الديني. تربّى معظمنا على الإيمان بأن الكون أوجده خالق حكيم وقادر، وغاياته خيرة وإن بدت لنا أحياناً شريرة. لا أعتقد أننا يجب أن نرفض اختبار هذا الإيمان كما نختبر معتقداتنا الأقل مساساً بمشاعرنا من هذا الإيمان. هل هناك أي دليل على وجود مثل هذا الكائن؟ بلا شك، الإيمان به مريح وكان له بعض الآثار الأخلاقية الحسنة على السلوك والأشخاص. ولكن هذا ليس بدليل على صحة الإيمان. من جهتي، أعتقد أنه فقد كل معقولية كان يملكها منذ اكتشفنا أن الأرض ليست مركز الكون. طالما اعتقد الناس أن الشمس والكواكب والنجوم تدور حول الأرض، كان من الطبيعي الاعتقاد بأن للكون غاية متعلقة بالأرض، وبما أن الإنسان كان أكثر ما يجلّه الإنسان، افترض أن تلك الغاية مجسّدة في الإنسان. ولكن علم الفلك والجيولوجيا تحدوا كل هذا. الأرض كوكب ضئيل تابع لنجم ضئيل من بين ملايين النجوم في مجرة هي نفسها واحدة من ملايين المجرات. حتى في حياتنا على الأرض، وجود الإنسان مؤقت وسريع. وُجدت الحياة اللاإنسانية لأزمان لا تحصى قبل أن يأتي الإنسان في دورة التطور. الإنسانية، حتى لو لم تنتحر علمياً، ستفنى بسبب قلة الماء أو الهواء أو الحرارة. من الصعب

تخيل أن القدرة الكلية بحاجة إلى كل هذا التحضير من أجل نتيجة صغيرة وانتقالية كهذه.

بغض النظر عن ضآلة وضحالة النوع البشري، لا أشعر أنه قمة مناسبة لهذه المقدمة الهائلة. هناك عجرفة مقرفة وغرور مقيت في الحجة القائلة بأن الإنسان باهر لدرجة أنه دليل على حكمة وقدرة خالقه. أولئك الذين يستخدمون هذه الحجة دائماً يركزون على بعض القديسين والحكماء، ويجعلوننا ننسى نيرون وهتلر وأمثالهم وملايين الجبناء الذين يدين الأولَين بسلطتهما لهم. حتى ما هو الأفضل فينا قد يؤدي إلى كوارث. الأديان التي تعلّم الحب الأخوي استُخدِمت للقمع، وأروع إنجازاتنا العلمية تحوّلت إلى أسلحة للدمار الشامل. أستطيع أن أتخيل أن شيطاناً ساخراً خلقنا ليستمتع، ولكني لا أستطيع أن أضع على كاهل الكائن الحكيم الرحيم القادر وزر هذه الوحشية والعذاب والخزي المعيب لما هو الأفضل فينا وقد شوه تاريخ الإنسانية بتسارع يتساوى مع تسارع تحكم الإنسان بمصيره.

هناك مفهوم مختلف وأكثر غموضاً للغاية الكونية، ليس كغاية كلية القدرة والإحاطة، بل كغاية تشق طريقها تدريجياً عبر المادة الجامدة. هذا المفهوم للإله أكثر معقولية، والذي بالرغم من كونه قادراً ومحباً، خلق قاصداً كائنات معرضة للكثير من العذاب والوحشية كما هي حال معظم الجنس البشري. أنا لا أدّعي أنني أعرف أنه لا يوجد مثل هذه الغاية؛ معرفتي بالكون محدودة جداً. ولكنني أقول، وبثقة، أن معرفة الناس الآخرين محدودة أيضاً، وأن لا أحد يستطيع البرهان على أن للعمليات

الكونية غاية ما. برهاننا غير الدقيق أبداً، وإلى الدرجة التي بإمكاننا الوثوق به فيها، يشير إلى الجهة المعاكسة. يبدو أن الطاقة تتوزع بشكل متساو أكثر وأكثر، بينما كل ما يمكن أن يكون له قيمة يعتمد على التوزيع غير المتساوي. لذا، في النهاية، يجب أن نتوقع التماثل الباهت، حيث سيستمر الكون إلى الأبد دون حصول أي حدث له أدنى أهمية. لا أقول إن هذا ما سيحدث؛ بل أقول فقط إنه، وبناءً على معرفتنا الحالية، هذا أكثر التخمينات معقولية.

الخلود، إن آمنا به، سيمكننا من التخلص من هذه السوداوية بالنسبة إلى العالم الفيزيائي. يجب أن نقول إن أرواحنا، بالرغم من أنها في رحلتها القصيرة على الأرض مقيدة بالمادة وبالقوانين الفيزيائية، تعبر عند الموت إلى عالم أبدي يقع خلف إمبراطورية التفسخ الذي يبدو أن العلم يكشفها لنا في العالم الحسي. ولكن من المستحيل الإيمان بهذا إلا إذا سلّمنا بأن الإنسان ينقسم إلى قسمين، الجسم والروح، ويمكن فصلهما بحيث يمكنهما الاستمرار مستقلين عن بعضهما البعض.

للأسف كل الأدلة ضد ذلك. ينمو العقل كالجسم، وكالجسم يرث بعض خصال الأبوين؛ ويتأثر بالأمراض التي تصيب الجسم وبالمهدّئات، ومرتبط بشدة بالدماغ. لا يوجد سبب علمي لافتراض أن الروح أو الجسم ستستقل عن الدماغ في حين أن كليهما مرتبطان به في الحياة. لا أدّعي أن هذه الحجة نهائية، ولكنها كل ما نملك باستثناء الأدلة الضعيفة من الأبحاث النفسية.

يخشى الكثير من الناس أنه بغياب الإيمان النظري، الذي أجد نفسي

ملزماً برفضه، سيختفي الالتزام الأخلاقي الذي أقبله. هم يشيرون إلى ازدهار الأنظمة الوحشية المعادية للمسيحية. ولكن هذه الأنظمة، التي نمت في جو مسيحي، لم تكن لتنمو لو وجدت المشاعر الطيبة أو عادة البحث عن التطابق مع الوقائع، إنها أساطير شريرة، تقودها الكراهية ولا يسندها أي دليل علمي. يميل الناس إلى الإيمان بما يناسب أهواءهم. فقط الناس الودودن يؤمنون بإله ودود، وهم ودودون على أية حال. الحجج الداعمة للأخلاق التي أتمنى أن تسود، وهنا أتفق مع الكثير من الناس الذين يحملون معتقدات أكثر تقليدية، هي الحجج التي تتعلق بمجرى الأحداث في هذا العالم. لقد شهدنا نظاماً ضخماً من الأكاذيب الوحشية، أي النظام النازي، والذي قاد أمةً إلى خراب كبير على حساب ضحاياها. لن تجلب مثل هذه الأنظمة السعادة؛ وحتى دون أي وحي، من السهل أن نرى أن رفاه الإنسان يتطلب أخلاقاً أقل وحشية. يتزايد الناس الذين لا يستطيعون القبول بالإيمان التقليدي مع مرور الوقت. إذا اعتقدوا، بغض النظر عما يؤمنون به، بأنه لا يوجد سبب للسلوك الودود ستكون النتائج مؤسفة. لذا من الهام أن نبرهن أننا لسنا بحاجة إلى قوى خارقة للطبيعة لجعل الناس ودودين وأنه فقط عن طريق الود ستبلغ الإنسانية السعادة.

عبادة الإنسان الحر

نشر هذا المقال للمرة الأولى عام 1903 وأعيد طبعه عدة مرات في عدة مختارات. لقد كان نتيجة تجربة عاشها راسل عام 1901 والتي كما سيقول فيها بعد (تشبه ما يدعوه المتدينون «الاستنارة») لقد أصبح فجأة واعياً وبشكل حاد للوحدة التي يعيشها معظم البشر، وراغباً بشدة في إيجاد سبيلٍ لتخفيف هذه العزلة المأساوية.

في الأعوام اللاحقة تخلى راسل عن بعض النظريات التي يتضمنها «عبادة الإنسان الحر»، ولكن ليس عن المادية الكامنة. وكتب في بعض أشهر المقاطع «بشكل رئيس، رؤيتي لموقع الإنسان في الكون بقيت ثابتة»، وكتب عام 1927 «مازلت أعتقد أن معظم العمليات تحدث في الكون تبعاً لقوانين الفيزياء، وأن لا صلة لها بأمانينا، وعلى الأرجح سوف تؤدي إلى إنهاء الحياة على هذا الكوكب، وأنه لا يوجد سبب جيد لنتوقع حياةً بعد الموت، وأن الخير والشر أفكارٌ لا تلتقي أي ضوء على العالم اللاإنساني. ما زلت أؤمن، في الأوقات التي نواجه فيها صعوبات أخلاقية وضغوطاً عاطفية، أن الموقف المعروض من هذا الكتاب بالنسبة إلى مزاج كمزاجي الشخصي يقدم مساعدة كبيرة لتجنب الفرق الأخلاقي».

بكل الأحوال، فقد تخلى راسل بشكل كامل عن المفهوم الأفلاطوني للقيم والذي كان يسانده في السنوات الأولى من هذا القرن. إنه الآن مناصر بشكل كلي لـ «الذاتية» فيما يتعلق بالخير والشر. آراؤه حول هذا الموضوع مشروحة في «ما الذي أؤمن به»، وقد أوضح هذه الآراء بشكل أكمل في كتابه «المجتمع الإنساني في الأخلاق والسياسة».

يسرد مفيستوفيلس تاريخ الخليقة لدكتور فاوست كما يلي:

[لقد بدأت التسابيح اللانهائية لجوقات الملائكة تصبح مضجرة، لأنه في النهاية، ألم يكن يستحق تمجيدهم؟ ألم يمنحهم متعةً لا نهائية؟ أليس الأمر مسلياً أكثر إن حصل على تمجيدٍ غير مستحقٍ، أن يعبد من قبل كائنات يعذبها؟ ابتسم روحانياً،وقرر أن الدراما العظيمة يجب أن تنجز.

لعصورٍ لا تحصى كان السديم الحار يدور بلا هدفٍ في الفضاء. مع مرور الزمن ابتدأ يتخذ شكلاً، الكتلة المركزية شكلت الكواكب، الكواكب بردت، البحار الهائجة والجبال المشتعلة اهتزت وارتفعت، من كتل الغيوم السوداء غمرت أمطارٌ حارة أديم الأرض شبه الصلب. والآن نمت الجرثومة الأولى للحياة في أعماق المحيطات وتطورت بسرعة في الدفء المثمر إلى أشجار الغابات العظيمة، نباتات هائلة انبثقت من سطح الأرض الرطب، وحوش البحر تكاثرت، تصارعت، أبيدت ثم اختفت. ومن الوحوش، كما تتكشف المسرحية، ولد الإنسان، مع قوة

التفكير، ومعرفة الخير والشر، والتوق الوحشي للعبادة. ورأى الإنسان أن كل الأشياء إلى فناء في هذا العالم الوحشي والمجنون، وأن الجميع يناضل كي ينتزع، وبأي ثمن، لحظات قليلة قصيرة من الحياة قبل حكم الموت النهائي. وقال الإنسان، «يوجد غاية خفية، لو نستطيع فقط إدراكها، هذه الغاية خيّرة، لأننا يجب أن نبجّل شيئاً ما، وفي العالم المرئي لا شي يستحق التبجيل». وتخلى الإنسان عن الصراع، مصمماً أن الله قد أراد أن ينتج الانسجام من المساعي البشرية. وعندما اتبع غرائزه المفترسة التي نقلها الله إليه من أسلافه الحيوانات، سماها الخطيئة، وسأل الله أن يغفر له. ولكنه وقع في الشك فيما إذا كان سيُغفر له حقاً، إلى أن اخترع خطة إلهية عن طريقها يسترضي نقمة الله، وبما أنه رأى الحاضر سيئاً، فقد جعله أسوأ، وبذلك سيجعل المستقبل أفضل. وقد شكر الله لأنه أعطاه القوة التي تجعله يمتنع عن المسرات الممكنة. وابتسم الله، وعندما رأى أن الإنسان قد حاز على الكمال في النكران والعبادة، أرسل شمساً أخرى عبر السماء حطمت شمس الإنسان، وعاد كل شيء إلى السديم مرةً أخرى.

«أجل» تمتم، «لقد كانت مسرحية جيدة، سوف نعيدها مرة أخرى».]

عالمٌ كهذا، بخطوطه العريضة، ولكنه بلا هدف بشكل أكبر، وأكثر خلواً من المعنى، يقدمه العلم لنا. في مثل هذا العالم، على مُثلنا أن تجد مكانها من الآن فصاعداً. ذلك أن الإنسان نتاجٌ لأسبابٍ لا تخدم أية غايةٍ مطلقاً، أصله، نموه، أهدافه ومخاوفه، محبته ومعتقداته، جميعها ناتجة عن

انتظام عرضي للذرات، لا النار، لا البطولة، لا كثافة المشاعر والأفكار، ستحفظ حياة الفرد وراء التراب. جميع أعمال العصور، كل الإخلاص كل الإلهام، كل تألق عبقرية البشر، ستفنى مع فناء النظام الشمسي، وكامل معبد الإنجازات البشرية سيفنى حتماً تحت أطلال الكون. كل تلك الأمور، إن لم تكن مؤكدة تماماً، فهي موثوقة لدرجة أن فلسفة ترفضها لن يستطيع أحد قبولها. فقط بقبولنا لهذه الحقائق، فقط بالتأسيس الصارم لليأس الشجاع، يمكننا بناء مأوىً للروح بأمان.

كيف يستطيع كائن معدوم القوى كالإنسان، في عالم غريب ولا إنساني كهذا، أن يحتفظ بطموحاته دون أن تتبدد؟ الطبيعة سرّ غريب، قادرة لكن عمياء، في ثورات اندفاعاتها الدنيوية خلال مهاوي الفضاء، كوّنت في النهاية طفلاً، ما يزال عبداً لقوتها، ولكنه وُهب البصيرة، ومعرفة الخير والشر، والمقدرة على محاكاة جميع أعمال أمه غير العاقلة. بالرغم من الموت ومن بصمة وختم أمنا الطبيعة، ما يزال الإنسان حراً، في سنينه المعدودة، في أن يختبر، أن ينتقد، أن يعرف وأن يتخيل أنه يخلق. في هذا العالم الذي يُلم به، لا تنتمي هذه الحرية إلا إليه، وفي هذا يكمن تفوقه على القوى عديمة المقاومة التي تتحكم بحياته الخارجية.

يشعر الهمجي، مثلنا، بالطغيان الذي تمارسه قوى الطبيعة على ضعفه، ولكن بما أنه لا يملك شيئاً بأعماقه يحترمه أكثر من القوة، فإنه يسجد طواعيةً لآلهته، دون أن يسأل عما إذا كانت تستحق العبادة. مثيرٌ للشفقة وللرعب هذا التاريخ الطويل من الوحشية والتعذيب، من الإهانة والتضحية البشرية، هذا التاريخ الذي احتمله البشر إرضاءً للآلهة

الغيورة، بالتأكيد يعتقد المؤمن المرتعش، عندما يتم تقديم أثمن الأشياء، أن شهوتها للدماء قد سكنت وأنها لن تطلب المزيد. ديانة مولوخ، كما يمكننا أن نطلق بشكل عام على تلك العقائد، في جوهرها تمثل الخضوع المتذلل للعبد، والذي لا يجرؤ حتى في قلبه أن تعبر فكرة أن إلهه لا يستحق التزلف. بما أن استقلال المُثل لم يتم الاعتراف به حتى الآن، تُعبد القوة بحرية وتتلقى احتراماً لا محدوداً، بالرغم من الألم الجائر الذي تسببه.

ولكن بالتدريج، كلما أصبحت الأخلاق أوضح، بدأ الناس يشعرون بحقهم بعالم مثالي. والعبادة، إن لم يكفّوا عنها، تحولت إلى آلهة مختلفة عن تلك التي خلقها المتوحشون. البعض، على الرغم من أنهم يشعرون بمطالب مثالية، سيظلون رافضين لها، مجادلين أن القوة المجردة تستحق العبادة. ذلك هو الموقف الذي نراه في إجابة الله لأيوب من العاصفة، القوة والمعرفة الإلهيتان معروضتان للجميع، ولكن لا يوجد أية إشارة للخير الإلهي. ذلك هو أيضاً موقف أولئك الذين، في أيامنا هذه، يؤسسون أخلاقهم على قاعدة الصراع من أجل البقاء، مصرّين على أن الناجين هم بالضرورة الأفضل. لكن غيرهم، غير راضين عن هذه الإجابة المعارضة للمنطق الأخلاقي، سوف يتبنون موقفاً اعتدنا على اعتباره موقفاً دينياً بشكل خاص، مؤكدين أن عالم الوقائع منسجم مع عالم المُثل. خلق الإنسانُ الله، كاملَ القدرة وخيّراً بشكل كامل، إنه الوحدة الغامضة لما كان ولما يجب أن يكون.

ولكن، في نهاية الأمر، عالم الوقائع ليس جيداً؛ وعندما تخضع أحكامنا له، هنالك عنصر من الخنوع، يجب أن نطهّر أفكارنا منه. لأنه

من الجيد في كل الأمور أن نمجّد كرامة الإنسان، بتحريره قدر الإمكان من استبداد القوى اللاإنسانية. عندما ندرك أن القوة سيئة إلى درجة كبيرة، وأن الإنسان، بمعرفته للخير والشر، ليس إلا ذرةً مسكينةً في عالم لا يملك تلك المعرفة، يعود الخيار لنا مرة أخرى: هل نعبد القوة، أم نعبد الخير؟ أيجب أن يوجد الله ويكون شريراً، أم يجب أن نعرف أننا خلقناه عن طريق ضميرنا الشخصي؟

الجواب على هذا السؤال خطير ويؤثر على كامل أخلاقنا. عبادة القوة التي جعلنا نيتشه وكارليل والمذاهب العسكرية نعتاد عليها، هي نتيجة الفشل في الحفاظ على مُثلنا في مواجهة كونٍ معادٍ، إنها بذاتها خضوع ذليل للشر، وتضحية بأفضل ما نملك لمولوخ. إن كان لا بدّ من احترام القوة، فدعونا نحترم قوة أولئك الذين يرفضون هذا «الاعتراف بالحقائق» الخاطئ، الذي يفشل بالاعتراف بأن الحقائق غالباً ما تكون سيئة. دعونا نعترف أنه في العالم الذي نعرفه، هنالك العديد من الأمور التي من الممكن أن تكون أفضل، وأن المثل التي نساندها، ويجب أن نساندها، لا يمكن إدراكها في حقل المادة. دعونا نحافظ على احترامنا للحقيقة، للجمال، لمثال الكمال الذي لا تسمح لنا الحياة ببلوغه، بالرغم من أن أياً من هذه الأمور لا يحظى بقبول الكون اللاواعي. إذا كانت القوة سيئة، كما يبدو، فلنرفضها من أعماق قلوبنا. في هذا تكمن حرية الإنسان الحقيقية، في العزم على ألا نعبد إلا الإله الذي نخلقه بمحبتنا للخير، وألا نحترم إلا الجنة التي تلهمنا أفضل لحظاتنا. في رغباتنا، في أفعالنا، يجب أن نخضع دوماً لطغيان القوى الخارجية، ولكن في الفكر،

في الطموح، نحن أحرار، أحرارٌ من إخوتنا البشر، أحرارٌ من الكوكب التافه الذي تدبّ عليه أجسامنا عليه بوهن، أحرارٌ حتى، عندما نحيا، من استبداد الموت. إذاً دعنا نتعلم أن قوة الإيمان تمكّننا من أن نعيش دوماً في ظل هذه الرؤية للخير، ودعونا ننحنِ، في أعمالنا، للعالم الفعلي، مع تلك الرؤية أمام ناظرنا دائماً.

في البدايات، عندما قويت المعارضة للحقائق والمثل بشكل كبير، بدا ضرورياً أن تنتشر روح الثورة النارية والكراهية العنيفة للآلهة، كي نؤكد حريتنا. أن نتحدى كوناً معادياً بعنادِ بروميثوسي، أن تبقى شروره دوماً أمامنا، أن نكرهها دوماً بفعالية، أن نرفض الألم الذي يخترعه مكر القوة، بدا كأن ذلك هو واجب أولئك الذين يرفضون الانحناء للمكتوب. ولكنّ النقمة تبقى نوعاً من العبودية، لأنها تجبر أفكارنا أن تبقى مشغولة بعالم شرير، وفي ضراوة الرغبة التي تنبع منها الثورة يوجد نوع من التأكيد الذاتي، يجب على الحكماء التغلب عليه. تستعبد النقمة أفكارنا لا رغباتنا، الحرية الرواقية التي تحتوي الحكمة تستعبد رغباتنا لا أفكارنا. من استعباد أفكارنا تنبع فضيلة الإذعان، من حرية أفكارنا ينبع كل عالم الفن والفلسفة، ورؤيا الجمال التي من خلالها أخيراً ننتصر مرة أخرى، نصف انتصار، على العالم المعادي. ولكن رؤية الجمال ليست متاحة إلا للتأمل الحر، للأفكار التي لا تثقلها الأماني المتوقدة، وهكذا فالحرية لا ينالها إلا الذين لا يطلبون بعد الآن حياةً تمنحهم منافع شخصية تخضع لتغيرات الزمن.

بالرغم من أن الحاجة إلى نكران الذات تشكل دليلاً على وجود الشر،

فإن المسيحية، عندما وعظت بها، أظهرت حكمة تفوق تلك الموجودة في فلسفة الثورة البروميثيوسية. يجب أن نعترف، أن بعضاً من الأمور التي نرغب فيها، بالرغم من أنه يستحيل الحصول عليها، إلا أنها تبقى خيرات حقيقية؛ وبعضها الآخر الذي نتوق إليه بشدة، لا يشكل جزءاً من المثال الطاهر الكامل. الاعتقاد بأن الأمور التي يجب التخلي عنها سيئة، بالرغم من أنه خاطئ أحياناً، ليس خاطئاً إلى الدرجة التي يعتقدها ذوو المشاعر المشبوبة؛ والتعاليم الدينية، بتقديمها أسباباً تبرهن بها على أنه ليس خاطئاً أبداً، أصبحت أسلوباً لتطهير أمانينا عن طريق اكتشاف العديد من الحقائق القاسية.

ولكن يوجد في التخلي عنصر جيد آخر: حتى الخيرات الحقيقية، عندما يكون من غير الممكن الحصول عليها، لا يجب أن تكون مرغوبة بشكل يزعجنا. يصل كل إنسان، عاجلاً أم آجلاً، إلى نكران الذات العظيم. بالنسبة إلى الشباب، لا يوجد شيء لا يمكن الحصول عليه، يرغب الشباب في الشيء الجيد بكل قوة الإرادة المشبوبة، والمستحيل بالنسبة إليهم لا وجود له. ولكن بالموت، بالمر، بالفقر، أو بنداء الواجب، يجب أن يتعلّم، كل واحدٍ منا، أن العالم لم يخلق من أجلنا، وأنه مهما يكن جمال الأشياء التي نتوق إليها، فإن القدر قد يحظرها علينا. تجعلنا الشجاعة، عندما يصيبنا سوء الحظ، نحتمل دون تذمر فشل أمانينا، وتتفادى أفكارنا الندم العقيم. هذا المستوى من الخضوع للقوة ليس عادلاً وصحيحاً فقط، إنه بوابة الحكمة ذاتها.

لكن نكران الذات السلبي لا يشكل الحكمة، لأنه ليس بالنكران

وحده نستطيع بناء معبد مُثلنا. تظهر الرؤى الأولى لذلك المعبد في مملكة الخيال، في الموسيقى، في فن العمارة، في المملكة الهادئة للعقل، وفي سحر الغروب الذهبي للقصائد، حيث يشع الجمال، وتتوهج بعيداً عن متناول الأحزان، بعيداً عن الخوف من التغيير، بعيداً عن إخفاقات ووقائع العالم الفعلي. بتأمل هذه الأمور ستصوغ رؤيا الفردوس نفسها في قلوبنا، مقدّمةً في الوقت نفسه أساساً كي نحكم على العالم المحيط بنا وإلهاماً نستطيع بواسطته جعل الأشياء التي لا تصلح كحجارة لبناء المعبد تخدم احتياجاتنا.

باستثناء تلك الأرواح النادرة التي ولدت بلا خطيئة، هناك كهفٌ من الظلام يجب اجتيازه قبل أن نستطيع دخول المعبد. مدخل الكهف اليأس، وأرضه مرصودة بحجارة الأماني المهجورة. هناك يجب أن تموت الأنا، يجب أن يُقتل التوق، وجشع الرغبات الوحشية، لأنه فقط بذلك تتحرر الروح من إمبراطورية القدر. ولكن خارج الكهف، تقودنا بوابة النكران مرة أخرى إلى ضوء الحكمة، والتي بإشعاعها لبصيرةٍ جديدة، لفرحٍ جديد، لحساسيةٍ جديدة، تتألق كي تبتهج قلوب الحجّاج.

عندما نتعلم، بغياب مرارة التمرد الواهن، أن نكيّف أنفسنا مع القواعد الخارجية للقدر وأن ندرك أن العالم اللاإنساني لا يستحق عبادتنا، سيصبح ممكناً في النهاية أن نعدّل ونغيّر الكون اللاواعي، أن نحوّله في بوتقة الخيال، ونستبدل الصورة العتيقة للصلصال بالذهب المشع. من خلال كل الأشكال المختلفة لوقائع العالم من خلال الأشكال المرئية للأشجار والجبال والغيوم، من خلال أحداث حياة الإنسان، حتى من

خلال القوة الكلية للموت، تستطيع رؤيا المثل الخلاقة أن تجد انعكاس الجمال الذي صنعته أفكارها في البداية. بهذه الطريقة يؤكد العقل سيادته الرقيقة على القوى اللا مفكرة للطبيعة. كلما زاد الشر الذي تتصف به المادة التي يتعامل معها، وكلما زادت المعارضة للرغبات غير المدرّبة، كان إنجاز العقل أعظم في جعل الصخرة الصماء تكشف كنوزها المحتجبة، وكان أكثر فخراً بانتصاره الذي يجبر القوى المعارضة على السير في موكب نصره. بين كل الفنون، التراجيديا هي الأكثر فخراً، والأكثر ابتهاجاً بالنصر، لأنها تبني قلعتها المشعة في قلب أرض العدو، على قمة أعلى جباله، ومن أبراج المراقبة الحصينة لتلك القلعة، تُكشف معسكرات العدو ومخازنه، حصونه وأرتاله، داخل جدرانها ستستمر الحياة المرة، بينما حشود الموت والألم واليأس، وكل القادة المستعبَدين للقدر المستبد، يقدمون لمواطني المدينة الباسلة مشاهدَ جديدةً للجمال. سعيدةٌ الأسوارُ المقدّسة، وأكثر سعادةٌ سكان القلعة التي تجعلهم يبصرون كل شيء. المجد لأولئك المحاربين الشجعان، الذين خلال عصور لا تحصى من الحروب قدموا لنا إرثاً لا يقدر بثمن: الحرية، وحافظوا في وجه الغزاة المدنسين على وطن الأحرار.

ولكن جمال التراجيديا يجعلنا نرى إحدى المزايا التي نجدها حاضرة دوماً وفي كل مكان في الحياة. في مشهد الموت، في احتمال الألم المفرط، وفي عدم القدرة على تغيير الماضي البائد، هناك قدسية، رهبةٌ طاغيةٌ، شعورٌ بالاتساع، بالعمق، بالسر الذي لا ينضب للوجود، الذي من خلاله، كما لو من خلال زواج غريب بالألم، يقيد ذلك الذي يعاني العذاب إلى هذا العالم بقيودٍ من الأحزان. في لحظات الرؤيا هذه نفقد كل توقنا إلى الرغبات

العابرة، كل صراعاتنا، كفاحنا من أجل أهدافٍ حقيرة، كل اهتماماتنا بالأمور التافهة التي، بحسب الرؤية السطحية، تشكل اهتمامات حياتنا العامة، ونرى، من طوقنا الصغير الذي ينيره الضوء الخاطف للرفقة البشرية، المحيط القاتم الذي تتخاطفنا أمواجه المتلاطمة لفترةٍ قصيرةٍ؛ تهب على ملجئنا ريحٌ باردةٌ من الليل الهائل؛ كل الوحدة التي تشعر بها البشرية وسط قوىً معادية تتركز على روح الفرد، التي يجب أن تناضل وحيدة، بما تستطيع أن تسيطر عليه من شجاعتها، ضد الوطأة الكاملة لكون لا يكترث البتة لآمالها ومخاوفها. الانتصار، في الصراع مع قوى الظلام، هو المعمودية الحقيقية التي تكمن في الصحبة المجيدة للأبطال، في الاستهلال الحقيقي لحكم الجمال للوجود الإنساني. من تلك المواجهة المروعة بين الروح والعالم الخارجي، يولد النكران، الحكمة، والإحسان. ومع ولادتهم بدأت حياةٌ جديدة. كي نُدخل إلى أعماق مزار روح القوى الرائعة، التي نبدو وكأننا دمىً عاجزةً في يدها الموت والتغير، عدم القدرة على تعديل الماضي، وعجز الإنسان أمام العجلة العمياء للكون التي تأخذه من هباء إلى هباء، أن نشعر بتلك الأشياء وأن نعرفها يعني أن نهزمها.

هذا هو السبب في كون الماضي يملك قوةً ساحرة. جمال سكونه وصوره الصامتة يشبه الصفاء الساحر لنهاية الخريف، عندما نجد الأوراق، بالرغم من أن نسمة واحدة تكفي لسقوطها، تتوهج أمام السماء في مجدٍ ذهبي. الماضي لا يتغير ولا يسعى؛ مثل دنكن[17]، بعد نوبات

17- دنكن: ملك أسكوتلندا الذي قتلته الليدي مكبث في مسرحية شكسبير. (م).

حمى الحياة يرقد في سبات عميقٍ؛ الحماسي والمفهوم، والثانوي والعابر اختفوا نهائياً، أما الأشياء التي كانت رائعة وأبدية فتشع كالنجوم في الليل. جمالها، لروح لا تستحقها، لا يمكن احتماله؛ ولكن للروح التي هزمت القدر فهذه مفاتيح الدين.

ليست حياة الإنسان، منظوراً إليها من الخارج، إلا شيئاً صغيراً بالمقارنة مع قوى الطبيعة. العبد محكوم عليه بأن يعبد الزمن والقدر والموت، لأنهم أعظم من أي شيء يجده في ذاته، ولأن جميع أفكاره تعود لأشياءٍ قد التهمتها هذه الآلهة. ولكن، بالرغم من تلك العظمة، أن نفكر بهم بعظمة، أن نشعر بروعتهم الساكنة، هو أمرٌ أعظم. إن تفكيراً كهذا يجعلنا أحراراً؛ لن ننحني بعد الآن في استعبادٍ شرقيٍّ لما هو محتوم، ولكننا سنستوعبها وسنجعلها جزءاً من أنفسنا. أن نتخلى عن الصراع من أجل سعادتنا الشخصية، أن نهجر كل لهفةٍ إلى الرغبات العابرة، أن نحترق بشغف للحصول على الأشياء السرمدية: هذا هو الانعتاق، وهذه هي عبادة الفرد الحر. وهذه الحرية نصل إليها بتأمل القدر، لأن القدر ذاته يتم إخضاعه بالعقل الذي لا يترك شيئاً لتكفّر عنه النار المطهرة للزمن.

متحداً مع إخوته البشر بأقوى الروابط، رابطة الفناء المشترك، يجد الفرد الحر أن رؤيةً جديدةً تلازمه دوماً، وتلقي على أعماله اليومية نور الحب. حياة المرء مسيرة طويلة خلال الليل، محاطاً فيها بأعداء لا مرئيين، ومعذباً بالقلق والألم، ومتجهاً إلى هدف لا يأمل إلا القلة بلوغه، وحيث لا أحد يمكنه البقاء طويلاً. فرداً بعد آخر، فيما يتقدمون، يختفي رفاقنا عن ناظرنا، وقد استحوذت عليهم الأوامر الصامتة للموت الجبار.

قصيرٌ جداً الزمن الذي نستطيع فيه مساعدتهم، والذي فيه يُقرر سعادتهم أو بؤسهم. يعود الأمر لنا كي ندع ضوء الشمس ينير دربهم، أن نضيء أحزانهم ببلسم التعاطف، أن نقدم لهم الفرح الخالص لعاطفةٍ لا تتعب أبداً، أن نقوي شعور الشجاعة، أن نرسخ الإيمان في ساعات اليأس. دعونا لا نزن حسناتهم وسيئاتهم على ميزان الحقد، بل لنفكر باحتياجاتهم فقط، بآلامهم، بمصاعبهم، ربما بعماهم، الذي يسبب بؤسهم، لنتذكر أنهم زملاؤنا في المعاناة داخل الظلام نفسه، ممثلين في نفس التراجيديا التي نمثلها. وهكذا، عندما تنتهي أيامهم، عندما يصبح خيرهم وشرهم أبديين بسبب خلود الماضي، فالأمر لنا كي نشعر أنهم عندما عانوا، عندما فشلوا، لم نكن نحن السبب؛ بل كلما توهجت شرارة النار المقدسة في قلوبهم، كنا جاهزين لتشجيعهم، والتعاطف معهم، بالكلمات الشجاعة التي تجعل الشجاعة العظيمة تتألق.

قصيرةٌ وعاجزة حياة الإنسان، عليه وعلى سلالته بأكملها يسقط القدر البطيء الأكيد مظلماً وقاسياً. عمياء عن الخير والشر، مستهترةً بالتدمير الذي تحدثه، تندفع المادة الجبارة في دربها القاسي؛ أما الإنسان، المحكوم عليه أن يفقد اليوم أعز ما يملك، وفي الغد أن يعبر بنفسه بوابة الظلام، فلا يبقى له إلا أن يتعلق بأفكاره الشامخة، قبل أن تقع الكارثة، التي تجعل أيامه القليلة المعدودة عظيمةً؛ مترفعاً عن المخاوف الجبانة لعبيد القدر، يعبد المزار الذي بناه بيديه؛ شجاعاً أمام إمبراطورية المصادفة، يحافظ على العقل حراً من الطغيان المستبد الذي يحكم حياته الخارجية؛ جريئاً بفخر أمام القوى الطاغية التي تتسامح، للحظة، مع

معرفته ومع إدانته، يبني وحيداً، كأطلس المتعب ولكن الصلب، عالماً شكلته مُثله بالرغم من الزحف القاسي للقوى العمياء.

التفكير الحر والبروباغندا الرسمية

نص محاضرة ألقيت عام 1922

مونكيور كونوي[18]، والذي نجتمع اليوم على شرفه، كرّس حياته لغايتين ساميتين: حرية التفكير وحرية الفرد. فيما يتعلق بكلا الغايتين، هناك بعض المكاسب التي تحققت، وهناك بعض الخسارات. مخاطر جديدة، مختلفة في الشكل عن تلك القديمة، تهدد نوعي الحرية كليهما، وإذا لم يتشكّل رأي عام قوي ويقظ للدفاع عنهما، سوف يكون لدينا حريات أقل بعد مئة عام مما لدينا الآن. هدفي في هذه المحاضرة أن أشدد على المخاطر الجديدة وطرق مواجهتها.

دعونا نبدأ بمحاولة توضيح ما نعنيه بـ«التفكير الحر». لهذا المصطلح معنيان. بمعناه الضيق يعني التفكير الذي لا يقبل بدوغمات الدين

18- كاتب إصلاحي أمريكي. (م).

التقليدي. بهذا المعنى، الإنسان مفكر حر إذا لم يكن مسيحياً أو محمدياً أو بوذياً أو شينتوياً[19] أو منتمياً إلى مجموعة بشرية تقبل بعقيدة متوارثة. في البلدان المسيحية يعتبر المرء «مفكراً حراً» إذا قرر أن لا يؤمن بالله، بالرغم من أن هذا ليس كافياً كي يجعله «مفكراً حراً» في بلد بوذي.

لا أريد أن أقلل من أهمية التفكير الحر بهذا المعنى. أنا نفسي معارض لكل الأديان المعروفة، وأتمنى أن تختفي كل أنواع الإيمان الديني. لا أعتقد، في الميزان الأخير، أن الإيمان الديني كان محرّكاً للخير. بالرغم من أنني مستعد للاعتراف بأن له بعض الآثار الجيدة في أماكن وأزمان محددة، إلا أنني أعتبر أنه ينتمي إلى طفولة التفكير البشري، وإلى مرحلة من التطور تم تجاوزها الآن.

ولكن هناك أيضاً معنى أوسع «للتفكير الحر»، والذي أراه أكثر أهمية حتى من المعنى السابق. في الحقيقة، يبدو أن الأذى الذي تسببت به الأديان يمكن إرجاعه بشكل رئيس إلى إنها منعت التفكير الحر بهذا المعنى الواسع. ليس من السهل تعريف المعنى الواسع كما هو الحال مع المعنى الضيق، وسيكون من الجيد تمضية بعض الوقت في محاولة شرحه.

عندما ندعو أي شيء «حراً»، فالمعنى الذي نقصده غير محدد إلى أن نشرح ما هو حر منه. يكون شيء ما أو أحد ما «حراً» عندما لا يكون خاضعاً لأي إكراه خارجي، وكي نكون دقيقين علينا أن نقول ما نوع الإكراه المقصود. يكون التفكير «حراً» عندما يكون متحرراً من أنواع معينة من التوجيه الخارجي الذي غالباً ما يوجد. من الواضح أنّه يجب

19- ديانة يابانية. (م).

ألا نجد بعض أنواع التوجيه هذه إن أردنا للتفكير أن يكون «حراً»، ولكن بعض الأنواع أكثر مكراً ومراوغة من غيرها.

لنبدأ بالأكثر وضوحاً. لا يكون التفكير «حراً» عندما تُفرض عقوبات قانونية على من يحملون أو لا يحملون آراء معينة، أو على من يعبّرون عن إيمانهم الشخصي أو عدم إيمانهم في أمور معينة. بعض البلدان في هذا العالم فقط تتمتع بهذا النوع الأولي من الحرية. في إنجلترا، وتبعاً لقوانين التجديف، يعتبر التعبير عن عدم الإيمان بالدين المسيحي مخالفاً للقانون، بالرغم من أن القانون لا يُطبق عملياً على الأثرياء. أيضاً يعتبر تدريس ما علمه المسيح حول عدم المقاومة مخالفاً للقانون. لذلك، كل من يود أن لا يصبح مجرماً عليه أن يعلن قبوله بتعاليم المسيح، ولكن عليه أن يتجنّب التصريح بماهية هذه التعاليم. في أمريكا، لا يستطيع أحد دخول البلد إلا إذا أعلن عدم إيمانه بالفوضوية وتعدد الزوجات؛ وما أن يصبح داخل البلد، يجب أن يضيف الشيوعية إلى ما سبق. في اليابان، يعتبر التعبير عن عدم الإيمان بميكادو[20] مخالفاً للقانون. لذا ستكون أي رحلة حول العالم محفوفة بالمخاطر. لا يستطيع المحمدي، أو من يتبع تعاليم تولستوي[21]، أو البلشفي، أو المسيحي القيام بهذه الرحلة دون أن يصبح مجرماً في أحد مراحلها، أو عليه أن يمسك لسانه عما يعتبره حقائق مهمة. بالطبع، ينطبق هذا فقط على ركاب الدرجة الدنيا من الرحلة؛ يُسمح لركاب الدرجة الممتازة أن يؤمنوا بما يحلو لهم، طالما تجنّبوا الفضول المزعج.

20- ميكادو، أحد آلهة اليابان. (م)

21- كان للكاتب الروسي ليون تولستوي أتباع منتشرين في روسيا وأماكن أخرى، يكرزون بتعاليمه في الزهد والتسامح واللاعنف وتخليص المسيحية من سلطة الكنائس. (م).

من الواضح أن الشرط الأولي، كي يكون الفكر حراً، هو غياب العقوبات القانونية المتعلقة بالتعبير عن الرأي. لم تبلغ أي دولة عظمى هذا المستوى بعد، بالرغم من أن معظم هذه البلدان تعتقد أنها بلغته. تصدم الآراء التي ما زالت مضطهَدة الأكثرية التي تراها بربرية ولاأخلاقية مما لا يسمح بتطبيق مبدأ التسامح عليها. ولكن هذه بالضبط وجهة النظر التي جعلت التعذيب ممكناً أثناء محاكم التفتيش. كان هناك وقت بدت فيه البروتستانتية شريرة كما تبدو البلشفية الآن. أرجو ألا تستنجوا من كلامي أنني بروتستانتي أو بلشفي.

بكل الأحوال، العقوبات القانونية في العالم الحديث أقل العوائق أهمية التي تواجهها حرية التفكير. أهم عائقين هما العقوبات الاقتصادية وتحريف الأدلة. من الواضح أنّ التفكير لا يمكن أن يكون حراً إذا لم يُسمح لمن يعتنق آراءً معينة أن يمارس مهنةً يعتاش منها. من الواضح أيضاً أن التفكير لا يمكن أن يكون حراً إذا تم تقديم كافة الحجج بأكثر الطرق جاذبية بشكل دائم لصالح أحد طرفي النقاش، فيما لا يمكن اكتشاف حجج الطرف الثاني إلا بالبحث الجاد. نجد هذين العائقين في كل البلاد الكبيرة التي أعرفها، باستثناء الصين، الملجأ الأخير للحرية[22]. سنبحث في هذين العائقين: حجم حضورهما، وأرجحية تعاظم نفوذهما، واحتمالية تضاؤلهما.

نستطيع القول إن التفكير حر عندما تتنافس الآراء المختلفة بحرية،

22- كتب هذا النص عام 1922، في ظل تغيرات جذرية معقدة في الصين. كان راسل متفائلاً بمستقبل الصين حينها. (م).

أعني عندما تستطيع جميع الآراء عرض قضيتها، دون أن يتم فرض عقوبات مالية أو قانونية على أي من هذه الآراء. هذه حالة مثالية، لا يمكن تحقيقها بشكل كامل، لأسباب متعددة. ولكن يمكننا الاقتراب منها بشكل أكبر من حالتنا الحاضرة.

ثلاثة حوادث في حياتي الشخصية ستظهر لكم أنه في إنكلترا المعاصرة، يتم التلاعب بكفة الميزان لصالح المسيحية. سأشير إلى هذه الحوادث لأن الكثير من الناس لا يعرفون مقدار الأذى الذي يتعرض له من يصرحون باللاأدرية علناً.

تعود الحادثة الأولى إلى فترة مبكرة جداً من حياتي. كان والدي مفكراً حراً، ولكنه توفي عندما كنت في الثالثة من عمري. مؤملاً تنشئتي دون خرافات، فقد حدد مفكرَين أحرار كأوصياء عليَّ. ولكن المحكمة تجاهلت طلبه، وفرضت عليَّ تعليماً متوافقاً مع الإيمان المسيحي. أخشى أن تكون النتائج مخيبة للآمال، ولكن هذا ليس خطأ القانون. لو أوصى بتنشئتي ضمن طائفة «الإخوة في المسيح»[23]، أو «أتباع مغلتون»[24]، أو «السبتيين»[25] لما حلمت الكنيسة بمعارضته. للوالد الحق في أن يطلب زرع أي نوع ممكن تخيله من الخرافات في ذهن أبنائه، ولكن ليس له الحق في أن يطلب إبعادهم عن الخرافات إن أمكن ذلك.

23- طائفة مسيحية صغيرة العدد تنتشر في إنكلترا وأمريكا الشمالية بشكل رئيسي، وتنكر الثالوث. (م).

24- طائفة مسيحية بروتستانتية. (م).

25- طائفة مسيحية بروتستانتية. (م).

وقعت الحادثة الثانية سنة 1910. كنت أرغب في تلك الفترة في الترشح للبرلمان عن الحزب الليبرالي[26]، ونصحني مسؤولو الحزب بدائرة معينة للترشح. ألقيت كلمة لرابطة الليبراليين الذين عبروا عن إعجابهم بها، وبدا اختياري كمرشح عن الحزب مؤكداً. ولكن عند سؤالي من قبل لجنة الانتخابات الداخلية، اعترفت بأنني لاأدريّ. سألوا إن كان الأمر سيخرج للعلن، وقلت إنني أرجّح ذلك. سألوا إن كنتُ مستعداً للذهاب إلى الكنيسة بين حين وآخر، وأجبتُ بالرفض. بالنتيجة، اختاروا مرشحاً آخر، نجح في الانتخابات، وهو عضو في البرلمان منذ ذلك الوقت، وعضو في الحكومة الحالية.

الحادثة الثالثة وقعت مباشرةً بعد ذلك. كنت مدعواً من قبل جامعة ترينيتي في كامبردج كمحاضر، وليس كزميل. الاختلاف ليس مادياً؛ بل يكمن في أن للزميل صوتاً في إدارة الجامعة، ولا يمكن فصله خلال فترة زمالته إلا لأسباب أخلاقية خطيرة. كان السبب الرئيس لعدم اختياري للزمالة رغبة الطرف الكهنوتي في عدم إضافة صوت للطرف غير الكهنوتي. النتيجة أنهم استطاعوا فصلي عندما لم تعجبهم آرائي حول الحرب[27]. لو كنتُ معتمداً على عملي كمحاضر، لتضورتُ جوعاً.

توضّح هذه الحوادث الثلاثة أنواعاً مختلفة من الأذى الذي يصيب

26- كان الحزبان الرئيسيان في تلك الفترة هما الحزب الليبرالي وحزب المحافظين، لمراجعة رؤية راسل حول تلك الفترة، يُنظر السيرة الذاتية لراسل. (م).

27- يجب أن أضيف أنهم أعادوا تعييني لاحقاً، بعد أن بردت العواطف الحربية (برتراند راسل). (يُشير راسل هنا إلى فصله من عمله ودخوله السجن بسبب معارضته للحرب العالمية الأولى. (م)).

من يعبر عن رأيه علانيةً في إنكلترا المعاصرة. سيخبرنا أي مفكر حر آخر يعلن أفكاره بحوادث مماثلة من تجاربه الشخصية، وقد تكون أكثر جدية على الأغلب. النتيجة الحقيقية أن الذين لا يتمتعون بالثروة لن يجرؤوا على التعبير عن معتقداتهم الدينية.

لا يتعلق غياب الحرية، بالطبع، بشكل رئيس أو مخصوص بالأمور الدينية. يشكل الإيمان بالشيوعية أو بالحب الحر[28] عائقاً أكثر من اللاأدرية. لا يتعرض من يحمل هذه الآراء للأذى فقط، بل من الصعوبة بمكان الحصول على فرصة لعرض حججه أيضاً. من جهة أخرى، في روسيا الأذى والمنافع معكوسين: يتم الوصول إلى الراحة والقوة عن طريق تبني الإلحاد والشيوعية والحب الحر، ولا يوجد أية فرصة لبروباغندا مضادة لهذه الآراء. النتيجة أنه في روسيا تشعر مجموعة من المتعصبين بالثقة الكاملة بمجموعة قضايا قابلة للشك، فيما في بقية العالم تشعر مجموعة أخرى من المتعصبين بثقة مماثلة بمجموعة قضايا قابلة للشك بنفس الدرجة ومتناقضة تماماً مع المجموعة الأولى. في مثل هذا الوضع، تنمو الحرب والمرارة والاضطهاد حتماً في الجانبين.

اعتاد وليم جيمس أن يبشّر بـ«إرادة الاعتقاد». من جهتي، أود أن أبشّر بـ«إرادة الشك». كل معتقداتنا ليست صحيحة تماماً، في كل منها غمامة من الغموض والخطأ. طرق زيادة درجة صحة معتقداتنا معروفة جيداً؛ وتكمن في الإنصات إلى كل الأطراف، ومحاولة التحقق من كل الوقائع ذات الصلة، والسيطرة على انحيازاتنا عن طريق النقاش مع

28- الحب الحر أي غير المقيد بالزواج. (م).

من يحملون انحيازات مختلفة، وتطوير استعداد للتخلي عن أي فرضية ثبت خطؤها. تُمارس هذه الطرق في العلوم، وقد أسست مجموع المعرفة العلمية. كل من يملك النظرة العلمية حقيقةً مستعد للاعتراف بأن ما نعتبره معرفة علمية في الوقت الحاضر يتطلب بالتأكيد تصحيحاً مع تقدّم الاكتشافات؛ مع ذلك، هذه المعرفة قريبة بما يكفي من الحقيقة في معظم الأمور العملية، وليس جميعها. في العلوم، حيث نجد ما يقارب المعرفة الأصيلة فقط، موقف الإنسان متردد ومليء بالشك.

على العكس من ذلك، في الدين والسياسة، وعلى الرغم من غياب ما يقارب المعرفة العلمية حتى الآن، يرى كل إنسان أنه من الضروري أن يملك رأياً دوغمائياً، وأن يدعم موقفه بنشر المجاعات والسجون والحروب، وأن يحرس نفسه جيداً من أي منافسة مع الحجج المختلفة. لو أمكن فقط إقناع الناس بتبني إطار فكري مؤقت لاأدري في هذه الأمور، لأمكن علاج تسعة أعشار الشرور في هذا العالم. ستصبح الحرب مستحيلة، لأن كل طرف سيدرك أن كلا الطرفين على خطأ. سيتقلص الاضطهاد. سيهدف التعليم إلى توسيع العقل، لا إلى تقليصه. سيتم اختيار الناس للعمل بناءً على ملاءمتهم له، وليس لقبولهم الدوغمات اللاعقلانية لأولئك الذين في السلطة. الشك العقلاني وحده، إن وُجد، سيكفي للوصول إلى الألفية[29].

لدينا أنموذج رائع عن المزاج العلمي في السنوات الأخيرة، وهو

29- يستخدم راسل هنا الألفية بالمعنى الديني، أي الدخول في عصر جديد ذهبي. المفهوم يستند إلى فكرة مسيحية تقول أن عودة المسيح في الألفية الأولى ستؤدي إلى إقامة مملكة الله على الأرض! (م).

نظرية النسبية واستقبالها عالمياً. عُيّن أينشتاين، اليهودي السويسري الألماني داعية السلام، أستاذاً للبحوث من قبل الحكومة الألمانية في الأيام الأولى للحرب، وقد تم التحقق من تنبؤاته عن طريق بعثة انكليزية راقبت كسوف الشمس سنة 1919 بعد الهدنة بوقت قصير. قلبت نظريته كامل الإطار النظري للفيزياء التقليدية، وقد تضرر منها علم الديناميك التقليدي بنفس الطريقة تقريباً التي أضر بها داروين سفر التكوين. بالرغم من ذلك فقد أبدى الفيزيائيون استعداداً كاملاً لقبول نظريته حالما ظهرت الأدلة التي تؤيدها. ولكن لم يدّع أي منهم، ولا حتى أينشتاين نفسه طبعاً، أنه قال الكلمة الأخيرة. لم يبن لنفسه نصباً من التعاليم المعصومة التي ستعيش أبد الدهر. هناك صعوبات لا يستطيع حلها؛ تعاليم سيتم تعديلها كما عدلت هذه التعاليم تعاليم نيوتن. هذا التقبل المنفتح النقدي هو السلوك الحقيقي للعلم.

ما الذي كان سيحدث لو قام أينشتاين بتقديم شيء مساوٍ في جِدّته في حقل الدين أو السياسة؟ سيجد الإنكليز عناصر من البروسانية[30] في نظريته؛ وأعداء السامية سيعتبرونها خطة صهيونية؛ القوميون في جميع البلدان سيجدونها ملوّثة بدعوة سلمية مُفرطة، وسيعلنون أنها مجرد محاولة للتهرب من خدمة العلم. كل بروفسور من الطراز القديم سيطلب من «اسكلتنديار» أن تمنع استيراد كتاباته. سيُطرد الأساتذة المقتنعين بنظرياته. أما هو سيسيطر على أحد البلدان المتأخرة حيث سيصبح من غير القانوني تعليم أي شيء عدا نظرياته، التي ستنمو لتصبح مجموعة

30- بروسانية نسبة إلى بروسيا. (م).

تعاليم مبهمة لا يفهمها أحد. سيتم تقرير صحة أم خطأ معتقداته على أرض المعركة، دون جمع أي دليل جديد معها أو ضدها. هذه الطريقة هي النتيجة المنطقية لتعليم وليم جيمس في «إرادة الإيمان».

المطلوب ليس إرادة الإيمان، بل إرادة البحث، والتي تشكّل بالضبط النقيض لها.

إذا وافقنا على أن الشك العقلاني مرغوب، سيكون مهماً أن نبحث عن أسباب وجود كل هذا اليقين اللاعقلاني في العالم. سبب رئيس يكمن في اللاعقلانية والسذاجة الموروثة للطبيعة البشرية العادية. ولكن هذه البذرة للخطيئة الأصلية الفكرية تتغذى وتنمو بفعل عوامل أخرى، ثلاثة منها تلعب دوراً محورياً، وهي التعليم، والبروباغندا، والحاجة الاقتصادية. فلننظر إلى كل منهم بالترتيب.

أولاً، التعليم. التعليم الابتدائي، في كافة الدول المتقدمة، يقع على كاهل الدولة. يعرف مسؤولو المناهج أن بعض ما يدرّسونه خاطئ، ويعرف أي شخص حيادي أن أموراً أخرى خاطئة، أو مشكوك بها لدرجة كبيرة. لنأخذ، على سبيل المثال، تدريس التاريخ. تطمح كل أمة إلى تمجيد نفسها في كتب التاريخ المدرسية. عندما يكتب أحدهم سيرته الذاتية، نتوقع أن يُظهر بعض التواضع؛ ولكن عندما تكتب أمةٌ سيرتها الذاتية، فلا حدود لتبجحها وزهوها. عندما كنتُ صغيراً، تعلّمنا في المدرسة أن الفرنسيين أشرار وأن الألمان أخيار؛ الآن يدرّسون العكس. لا يوجد في كلا الحالتين أي اعتبار للحقيقة. فيما يتعلّق بمعركة واترلو، تقول الكتب المدرسية الألمانية أن ويلينغتون كاد يُهزم لو لا تدخل بلوخر،

أما الكتب المدرسية الإنكليزية فتقول أن تأثير وصول بلوخر كان ضئيلاً. يعرف مؤلفو الكتب الألمانية والإنكليزية أنهم لا يقولون الحقيقة. كانت الكتب المدرسية الأمريكية معادية للإنكليز بعنف؛ ومنذ الحرب أصبحوا مؤيدين للإنكليز[31]، دون أي اعتبار للحقيقة في الحالتين. الهدف الرئيس للتعليم في الولايات المتحدة، قبل ومنذ الحرب، هو تحويل المجموعة المتنافرة من أبناء المهاجرين إلى «أمريكيين جيدين». يبدو أن أحداً لم يفكر أن «الأميركي الجيد»، كـ«الألماني الجيد» أو «الياباني الجيد»، يجب أن يكون إنساناً سيئاً إلى هذا الحد. «الأميركي الجيد» هو الرجل أو المرأة التي تشربت بالإيمان أن أمريكا هي أفضل البلدان على الأرض، ويجب دعمها بحماسة في أي نزاع. من المحتمل أن تكون كل هذه العبارات صحيحة؛ وإن كانت كذلك، فلا يجد الرجل العقلاني أي مشكلة معها. ولكن إن كانت فعلاً صحيحة، فيجب تدريسها في كل مكان، وليس في أمريكا فقط. إنه لأمر مثير للريبة أن هذه العبارات لا يصدقها أحد خارج البلد الذي تمجّده. في غضون ذلك تعمل آلية الدولة، في جميع البلدان، على أن يؤمن الأطفال العزّل بالعبارات الخرقاء التي تجعلهم راغبين في الموت دفاعاً عن مصالح شريرة حاملين الانطباع بأنهم يقاتلون من أجل الحقيقة والحق. هذه طريقة واحدة من عدد لا محدود من الطرق التي تعتمدها التربية، لا لتقديم معرفة حقيقية، بل لجعل الناس مذعنين لأسيادهم. دون نظام مفصل من الخداع في المدارس الابتدائية سيكون من المستحيل الحفاظ على المظهر الخدّاع للديمقراطية.

31- الحرب العالمية الأولى. (م).

قبل أن أترك موضوع التربية، سأعطي مثالاً آخر من أمريكا[32]، ليس لأن أمريكا أسوأ من غيرها، بل لأنها الأحدث، وتظهر فيها الأخطار المتعاظمة عوضاً عن الأخطار المتناقصة. في ولاية نيويورك لا يمكن تأسيس مدرسة دون موافقة الولاية، حتى لو تم دعمها بتمويل خاص بشكل كامل. أضاف قانون جديد أن لا رخصة تعطى لمدرسة «إذا تبيّن أنها تحوي على مناهج تقول أنه يمكن تغيير الحكومات المنظّمة عن طريق القوة والعنف والأساليب غير الشرعية». كما أشارت جريدة *الجمهورية الجديدة*، لا حدود لهذه أو تلك الحكومة المنظّمة. تبعاً للقانون، تدريس وجوب خلع حكومة القيصر غير قانوني خلال الحرب؛ ومنذ ذلك الحين، دعم كولاتشاك أو دينيكين ضد حكومة الاتحاد السوفييتي غير قانوني أيضاً[33]. هذه العواقب بالطبع لم تكن مقصودة، ونتجت فقط بسبب حماقة واضع القانون. ما كان مقصوداً سيظهر من خلال قانون آخر تمت الموافقة عليه في الوقت ذاته، ويختص بمعلّمي مدارس الدولة. هذا القانون يعطي الرخصة للتدريس في هذه المدارس فقط لأولئك الأشخاص الذين «أظهروا بشكل مُرْضٍ أنهم مخلصون ومطيعون لحكومة هذه الولاية والولايات المتحدة»، ويحجب الرخصة عن أولئك الذين شجّعوا، بغض النظر عن متى وأين، «شكل من الحكومة مختلف عن حكومة هذه الولاية أو الولايات المتحدة». اللجنة التي صاغت هذه القوانين، بحسب *الجمهورية الجديدة*، أوضحت أن الأستاذ الذي «لا

32- راجع الجمهورية الجديدة، عدد الأول من شباط 1922، ص259.

33- كولاتشاك ودينيكين من قادة البيض في الحرب الأهلية الروسية في مواجهة الشيوعيين. (م).

يقرّ النظام الاجتماعي الحالي... عليه أن يتخلّى عن وظيفته» وأن «كل من لا يعادي نظريات التغيير الاجتماعي لا يمكن أن يؤتمن على تعليم الصغاروالكبار مسؤوليات المواطن». إذاً، تبعاً لقوانين ولاية نيويورك، جورج واشنطن ويسوع فاسدان أخلاقياً ولا يصلحان لتعليم الناشئين. لو ذهب يسوع إلى ولاية نيويورك وقال: «دعوا الأولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم»، لأجاب رئيس اللجنة التعليمية في نيويورك: «سيدي، أنا لا أجد أي دليل أنك تعادي نظريات التغيير الاجتماعي. في الحقيقة، لقد سمعت أنك تدعم ما يُسمّى بمملكة *السماء*، فيما هذا البلد، حمداً لله، جمهوري. من الواضح أن الحكومة في مملكتك السماوية تختلف مادياً عن ولاية نيويورك، لذا لن يسمح للأطفال بالوصول إليك». إذا لم يكن هذا رده، فهو لم يؤدّ مهامه كموظف مؤتمن على تطبيق القانون.

نتائج مثل هذه القوانين جدية جداً. لنفرض جدلاً أن الحكومة والنظام الاجتماعي في ولاية نيويورك هما أفضل ما وجد على وجه البسيطة؛ ولكن حتى في هذه الحال فمن الممكن تحسينهما. أي شخص يؤمن بذلك لن يتمكن من التدريس في مدارس الولاية. فالقانون يقضي بأن يكون الأساتذة إما منافقين أو حمقى.

الأخطار المتعاظمة التي رأيناها في قوانين نيويورك تنتج عن احتكار السلطة في أيدي منظمة واحدة، سواء كانت الدولة أو مجلس مؤتمن أو اتحاد مجالس. في التعليم السلطة في يد الدولة التي تستطيع منع الناشئة من سماع أي مذهب لا يعجبها. أعتقد أن البعض ما زال يرى أنه لا يمكن تقريباً التمييز بين الدولة الديمقراطية والشعب. ولكن هذا وهم. الدولة

تجمع موظفين، يتمايزون بحسب الأهداف المتمايزة في الدولة، ويحصلون على دخل مريح طالما الأوضاع القائمة مستقرة. التغيير الوحيد الذي يحبذون حصوله على الأوضاع القائمة هو زيادة البيروقراطية وسلطة البيروقراطية. لذا من الطبيعي أن يستفيدوا من فرصة كالحماسة للحرب للحصول على سلطة تفتيش محكوميهم، والتي تسمح لهم بتجويع من يعارضهم. في قضايا الفكر، كما في موضوع التعليم، هذا الوضع كارثي وسيضع نهاية لكل إمكانية للتقدّم أو الحرية أو المبادرة الخلاقة. مع ذلك هذه هي النتيجة الطبيعية للسماح لمنظمة واحدة بالسيطرة على التعليم الابتدائي.

التسامح الديني، إلى درجة ما، انتصر لأن الناس لم تعد تعتقد أن الدين مهم كما كان يُعتقد سابقاً. ولكن في السياسة والاقتصاد، اللذين يشغلان الموقع الذي كان الدين يشغله سابقاً، هناك ميل متزايد للاضطهاد، ولا يقتصر هذا الميل على فريق واحد. اضطهاد الآراء في روسيا أعنف من أي بلد رأسمالي. لقد التقيت في بيترغراد بشاعر روسي عظيم، ألكسندر بلوك، وقد توفي بعدها من الفاقة. سمح له البلاشفة بتدريس علم الجمال، ولكنه اشتكى من أنهم أصروا على تدريسها «من وجهة نظر ماركسية». لم يجد طريقةً لاكتشاف صلة بين نظريات التناغم والماركسية، بالرغم من أنه، لتفادي الجوع، بذل كل ما في وسعه. بالطبع، أصبح من المستحيل في روسيا منذ وصول البلاشفة إلى الحكم نشر أي نقد للتعاليم المؤسسة لنظامهم.

توضّح الأمثلة الروسية والأمريكية النتائج التي يبدو أننا سنصلها،

وهي طالما أن البشر يحملون هذا الإيمان المتعصّب بأهمية السياسة يستحيل التفكير الحر في الشؤون السياسية، وهناك خطر كبير من أن يمتد غياب الحرية إلى كل الشؤون الأخرى، كما حصل في روسيا. فقط بعض الريبة السياسية ستحمينا من مثل هذه المصيبة.

لا يجب الافتراض بأن المسؤولين عن التعليم يرغبون في تعليم الشباب. على العكس، مشكلتهم تكمن في كيفية نقل المعلومات دون نقل الذكاء. يجب أن يكون للتعليم غايتان: الأولى توصيل معارف محددة، كالقراءة والكتابة، اللغات والرياضيات، إلخ؛ أما الثانية فخلق العادات الفكرية التي تساعد الناس على تحصيل المعرفة وإطلاق الأحكام بأنفسهم. نستطيع أن ندعو الأولى بالمعلومات والثانية بالذكاء. يُعترف بفائدة المعلومات على الصعيد العملي كما على الصعيد النظري؛ الدولة الحديثة لا توجد بدون سكان قادرين على القراءة والكتابة. ولكن يُعترف بفائدة الذكاء على الصعيد النظري فقط، وليس العملي؛ ليس من المرغوب أن يفكر الناس العاديين بأنفسهم، لأنه يصعب التحكم بالناس الذين يفكرون بأنفسهم، وهم يسببون الكثير من الإشكاليات الإدارية. فقط الحرّاس، بلغة أفلاطون، يفكّرون؛ البقية يطيعون، أو يتبعون القادة كقطيع الغنم. هذا المذهب، غالباً بشكل لا واعٍ، لم يتغير في الديمقراطية السياسية، وقد خرّب كل أشكال التعليم الوطنية جذرياً.

أكثر البلدان نجاحاً في نشر المعلومات دون ذكاء هي آخر البلدان التي انضمت إلى ركب الحضارة الحديثة، أي اليابان. يُقال أن التعليم الابتدائي في اليابان ممتاز من حيث التوجيه. ولكن، بالإضافة إلى التوجيه، هناك

غاية أخرى، وهي تعليم عبادة الميكادو[34]، وهو مذهب أقوى بمراحل الآن مما كان سابقاً قبل تحديث اليابان. ذلك أن المدارس استُخدمت لنقل المعرفة وتعزيز الخرافات في نفس الوقت. بما أن عبادة الميكادو لا تغرينا، فنحن نرى بوضوح سخف التعليم الياباني. تبدو لنا خرافاتنا الوطنية طبيعية ومعقولة، لذا فلا نتخذ منها الموقف الصحيح كما نفعل فيما يتعلق بخرافات اليابان. ولكن إن قال مسافر ياباني إن مدارسنا تعلّم خرافات تتناقض مع العقل، أشك في أن يستطيع إقناعنا بموقفه.

أنا لا أبحث عن حلول الآن، ولكن فقط عن الأسباب. لقد واجهنا النتيجة الإشكالية التي تقول إن التعليم أصبح أحد العقبات الرئيسة أمام ذكاء وحرية التفكير. السبب الرئيس لذلك يكمن في احتكار الدولة للتعليم، ولكن هذا ليس بالسبب الوحيد.

ثانياً، البروباغندا. يجعل نظامنا التعليمي الشباب قادرين على القراءة، ولكن في معظم الأحيان غير قادرين على وزن البراهين أو على تكوين آراء مستقلة. بعد ذلك، ولبقية عمرهم، يستمعون إلى أقاويل تجعلهم يؤمنون بكل أشكال الأمور الخرقاء، من قبيل أن الحبة السحرية تشفي جميع الأمراض، وأن جزيرة «سبيتزبرجن» النرويجية دافئة وخصبة، وأن الألمان يأكلون الجثث. فن البروباغندا، كما تمارسه الحكومات والسياسيون في العصر الحديث، مستمد من فن الإعلانات. يدين علم النفس بالكثير لفن الإعلانات. في الأيام السابقة لم يكن معظم

34- راجع *اختراع دين جديد*، للبروفيسور تشامبرلين، طوكيو، من منشورات رابطة العقلانيين.

علماء النفس ليصدقوا بأن أحدهم يستطيع إقناع الكثير من الناس بأن بضاعته ممتازة فقط عن طريق التأكيد بأن بضاعته ممتازة. ولكن التجارب أظهرت أنهم كانوا مخطئين. لو وقفتُ في مكان عام وقلتُ إنني الرجل الأكثر تواضعاً، لضحك الناس عليّ؛ ولكن إن استطعت جمع المال الكافي لوضع نفس المقولة على كافة الباصات واللوحات الإعلانية على كافة طرق القطارات الرئيسية، لاقتنع الناس فوراً بأن خجلي من الشهرة استثنائي. لو ذهبت إلى صاحب محل وقلت له: «انظر إلى منافسك في الشارع، إنه يستولي على أعمالك؛ ألا تعتقد أن الذهاب إليه وإطلاق النار عليه قبل أن يطلق هو النار عليك خطة جيدة؟» - لو قلت هذا لاعتقد صاحب المحل أنني مجنون. ولكن عندما تقول الحكومة ذلك مع تأكيد وبوجود جوقة مصاحبة، يتحمّس أصحاب المحلات، ويندهشون جداً عندما تتراجع أعمالهم فيما بعد. البروباغندا، كما تُمارس بأساليب الإعلان التي ثبت نجاحها، هي الآن أحد طرق الحكم المعروفة للحكومات في كافة الدول المتقدمة، وتمثّل خصوصاً الطريقة التي يتم بها تشكيل الآراء الديمقراطية.

هناك شرّان مختلفان تماماً في البروباغندا كما تُمارس اليوم. من جهة، تخاطب البروباغندا الأسباب اللاعقلانية للإيمان بدلاً من الحجج الجدية؛ من جهة أخرى، تعطي أفضلية غير مستحقة لمن يستطيع الحصول على أكبر شعبية، سواء عن طريق المال أو عن طريق السلطة. من جهتي، أرى أن الكثير من الضجة التي تُثار أحياناً في حقيقة أن البروباغندا تخاطب العواطف وليس العقل غير ضرورية. الخيط الفاصل بين العواطف

والعقل ليس حادّاً كما يعتقد البعض. أكثر من ذلك، يستطيع الرجل الذكي أن يصيغ حجة عقلانية لدعم أي موقف له فرصة أن يُقبل. هناك دائماً حجج جيدة على جانبي أي نقاش حقيقي. نستطيع منطقياً الاعتراض على المقولات التي لا تتفق مع الحقائق، ولكن هذه المقولات ليست ضرورية على الإطلاق. مجرد كلمات «كصابون بيرز»[35]، والتي لا تقول شيئاً، كافية لجعل الناس يشترون هذا المنتج. إذا استبدلنا هذه الكلمات بـ«حزب العمال»، ملايين الناس سيصوّتون لحزب العمال، بالرغم من أن الإعلان لم يدّع أية فضيلة مهما تكن. ولكن إن فرضنا قانوناً يجعل مقولات طرفي أي نزاع مقتصرة على جمل منطقية تتحقق من صحتها وصلتها بالموضوع لجنة من المناطقة المحترمين، لبقي شر البروباغندا كما تمارس اليوم قائماً. لنفترض، تحت مثل هذا القانون، أن حزبين يطرحان حججاً متساوية في صحتها، ولكن أحدهما يملك مليون جنيه استرليني فيما الثاني يملك مئة ألف. من الواضح أن حجج الحزب الأغنى ستصبح معروفة أكثر من حجج الحزب الأفقر، ولذا سينتصر الحزب الأغنى. هذا الوضع سيكون أصعب عندما يكون أحد الحزبين هو الحاكم. في روسيا تحتكر الحكومة البروباغندا بشكل كامل، ولكن هذا ليس ضرورياً. الأفضلية التي تتفوق فيها على منافسيها كافية بشكل عام لضمان النصر، إلا إذا كانت قضيتها سيئة بشكل استثنائي.

الاعتراض على البروباغندا لا يكمن فقط في مناشدتها للجانب اللاعقلاني فينا، بل أيضاً في إعطائها الأفضلية لمن يملك المال والسلطة.

35- صابون بيرز صابون إنكليزي شهير. (م).

المساواة في الفرص بين الآراء جوهرية لوجود حرية التفكير؛ ونستطيع ضمان المساواة في الفرص بين الآراء عن طريق وضع قوانين تهدف إلى ذلك، ولكن لا يوجد أي سبب يجعلنا نتوقع سنّها. العلاج لا يكمن بشكل أساسي في مثل هذه القوانين، بل في تعليم أفضل ورأي عام أكثر ارتياباً. الآن، لست مهتماً بمناقشة الحلول.

ثالثاً، الضغط الاقتصادي. لقد عالجت سابقاً بعض جوانب هذه العقبة أمام حرية التفكير، ولكن أود الآن الكلام عنها بالخطوط العامة، كخطر سيتعاظم حتماً إن لم نتخذ بعض الخطوات لمواجهته. أفضل مثال لاستخدام الضغط الاقتصادي ضد حرية الرأي هو روسيا السوفيتية، حيث تستطيع الحكومة، بل وقد قامت، بتجويع من يخالفونها في الرأي، كما حدث مع كروبوتكين[36]. ولكن في هذا الأمر روسيا متقدمة فقط عن بلدان أخرى. في فرنسا، خلال قضية دريفوس[37]، أي أستاذ كان سيفصل من عمله إن دعم دريفوس في بداية القضية أو إن عاداه مع نهايتها. في أمريكا في أيامنا هذه، أشك في أن يستطيع أي بروفيسور في الجامعة، مهما كان بارزاً، أن ينتقد «شركة ستاندرد أويل»، لأن جميع الرؤساء قد تلقّوا أو يأملون بأن يتلقوا مساعدات من السيد روكفلر. في كل مكان في أمريكا يتم التمييز ضد الاشتراكيين، ومن الصعوبة بمكان أن يجدوا

36- كروبوتكين فوضوي روسي انتقد الماركسية والبلاشفة. (م).

37- قضية دريفوس: دريفوس ضابط يهودي فرنسي حوكم بتهمة تسريب وثائق سرية للألمان. تبيّن لاحقاً أنه بريء وأن المحاكمة كانت مسيّسة بسبب ديانته. قسمت القضية الرأي العام الفرنسي بشدة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. (م).

عملاً إلا إذا كانوا موهوبين بشكل استثنائي. في كل مكان تتطور فيه الصناعة بشكل جيد، نجد الميل نحو الاحتكار والاتحادات الاحتكارية للتحكم بكامل الصناعة، الأمر الذي يؤدي إلى تقليص العدد المحتمل لأصحاب العمل، مما يجعل من السهل الاحتفاظ بكتاب أسود سري يتم عن طريقه تجويع كل من يعارض الشركات الكبرى. يقدّم تنامي الاحتكار في أمريكا العديد من الشرور التي ارتبطت باشتراكية الدولة كما نجدها في روسيا. من وجهة نظر الحرية، لا فارق للمرء إن كانت الإمكانية الوحيدة للعمل في الدولة أو في شركة كبرى.

في أمريكا، الدولة الأكثر تقدّماً صناعياً، وبشكل أقل في البلدان التي تقترب من النموذج الأمريكي، من الضروري للإنسان العادي إن أراد ضمان رزقه، أن يتجنّب خصومة بعض الرجال الكبار. ولهؤلاء الرجال الكبار رؤيتهم الخاصة، الدينية والأخلاقية والسياسية، والتي يتوقعون من موظفيهم أن يوافقوا عليها، على الأقل ظاهرياً. الرجل الذي يخرج عن المسيحية علناً، أو يؤمن بتلطيف قوانين الزواج، أو يعترض على سلطة الشركات الكبرى، سيجد أمريكا بلداً مزعجاً جداً، إلا إن كان كاتباً بارزاً. بالضبط نفس نوع القيود على حرية التفكير ستسود في كل بلد تتطور منظماته الاقتصادية إلى مستوى الاحتكار العملي. لذلك فالحفاظ على الحرية في عالم ينمو باستمرار هو أمر أصعب مما كان في القرن التاسع عشر، عندما كانت المنافسة الحرة حقيقية. على كل من يكترث بحرية العقل أن يواجه هذا الوضع بصراحة ووضوح، متفهّماً عدم إمكانية تطبيق الأساليب التي كانت صالحة عندما كانت الحركة الصناعية في بداياتها.

إن هناك مبدأين اثنين بسيطين، إذا تبنيناهما، سيحلّان كل المشاكل الاجتماعية تقريباً. الأول أن أحد أهداف التعليم يجب أن يشمل ألا يصدّق الناس إلا المقولات التي يوجد سبب ما لتصديقها. الثاني أن العمل يجب أن يعطى بناءً على القدرة على القيام به فقط.

لنبدأ بالنقطة الثانية أولاً. عادة النظر إلى آراء المرء الدينية والأخلاقية والسياسية قبل توظيفه هي الشكل الحديث من الاضطهاد، وعلى الأغلب ستصبح فعّالة كمحاكم التفتيش. يمكن الحفاظ على الحريات القديمة قانونياً دون تطبيقها بشكل عملي على الإطلاق. إذا جُوّع المرء بسبب آرائه عملياً، لن يواسيه أن القانون لا يعاقب هذه الآراء. يوجد شعور عام ضد تجويع الناس بسبب عدم انتمائهم إلى كنيسة إنكلترا، أو لحملهم آراء غير تقليدية بشكل ما في السياسة. ولكن لا يكاد يوجد أي شعور ضد تجويع الملحدين أتباع الطائفة المورمونية، والشيوعيين المتشددين، ومؤيدي الحب الحر. يُعتبر هؤلاء الناس أشراراً، ومن الطبيعي أن يُرفض توظيفهم. لم يدرك معظم الناس بعد، أن رفض توظيفهم، في دولة صناعية متقدمة، يشكل صيغة منظمة جداً من الاضطهاد.

في حال فهم الناس خطورة هذا الأمر، من الممكن تحريك الرأي العام، وضمان ألا تكون آراء المرء عقبة أمام حصوله على عمل. حماية الأقليات مهمة بشكل حيوي؛ وأكثرنا تمسّكاً بالتقاليد قد يجد نفسه أقليةً يوماً ما، لذا فجميعنا مهتمون بكبح طغيان الأكثرية. لا شيء إلا قبول الرأي العام سيحل هذه المشكلة. الاشتراكية تجعل المشكلة أكثر حدةً، بما أنها تقضي على الفرص المتاحة الآن من خلال أصحاب العمل

الاستثنائيين. كل زيادة في حجم المشاريع الصناعية يجعل الأمور أسوأ، بما أنها تقلّص عدد أصحاب العمل المستقلّين. يجب خوض المعركة بالضبط كما خيضت معركة التحرر الديني. وفي هذه الحالة، كما في تلك، سيثبت أن اضمحلال قوة الإيمان هو العامل الرئيس في المعركة. طالما آمن الناس بأن الحقيقة المطلقة تكمن في البروتستانتية أو الكاثوليكية، كانوا مستعدين لاضطهاد غيرهم باسم هذا الإيمان. طالما وجد الناس اليقين في معتقداتهم الحديثة، سيضطهدون الآخرين باسم هذه المعتقدات. ضرب من الشك جوهري، ليس للنظرية، بل لممارسة التسامح. وهذا يجعلني أنتقل إلى النقطة الثانية، وهي الغاية من التعليم.

إن كان للتسامح أن يوجد في هذا العالم، فأحد الأمور التي يجب تعليمها في المدارس وزن الأدلة، وعادة عدم قبول أي مقولة لا يوجد أي سبب لتصديقها. على سبيل المثال، يجب تعليم فن قراءة الصحف. على الأستاذ أن يختار حادثة أثارت الاهتمام السياسي في زمن سابق. ثم عليه أن يقرأ للطلاب ما كتبته الصحف الداعمة لجانب، ثم الصحف الداعمة للجانب الآخر، ثم القصة الحيادية لما حدث حقاً. يجب أن يُظهر لهم أن القارئ الخبير يستطيع من خلال قراءة الطرفين المنحازين أن يستنتج ما حدث فعلاً، ويجب أن يفهموا أن كل ما يُكتب في الصحف غير صحيح تقريباً. الشكّية الساخرة الناتجة من هذا التعليم ستجعل الأطفال في حياتهم اللاحقة محصّنين من إغراء المثاليات التي تستميل الناس الطيبين إلى خطط الأوغاد.

يجب تدريس التاريخ بنفس الطريقة. يمكن البدء بدراسة حملات

نابليون في عامي 1813 و1814، على سبيل المثال، عن طريق مجلة المونيتور[38]، وصولاً إلى دهشة الباريسيين من رؤية الحلفاء على أسوار العاصمة فيما كانوا يقرؤون (بحسب التقارير الرسمية) أن نابليون انتصر في كل معاركه. في الصفوف الأعلى، يجب تشجيع الطلاب على تعداد المرات التي اغتال فيها تروتسكي لينين، كي يتعلموا احتقار الموت[39]. أخيراً، يجب إعطاؤهم كتاباً مدرسياً حكومياً، ثم يُطلب منهم أن يستنتجوا ما سيقوله كتاب التاريخ الفرنسي عن حروبنا مع فرنسا. كل ذلك سيكون تدريباً أفضل على المواطنة من الحِكم الأخلاقية المبتذلة التي يصدّق بعض الناس أن غرس الواجبات المدنية يتم عن طريقها.

يجب الاعتراف، برأيي، بأن الشرور في هذا العالم تنتج من النقائص الأخلاقية كما من غياب الذكاء. ولكن لم يكتشف الجنس البشري بعد وسيلة لاستئصال النقائص الأخلاقية؛ الوعظ والنصح لا يضيف إلا النفاق إلى لائحة المخازي السابقة. الذكاء، على العكس من ذلك، يمكن تطويره بأساليب معروفة لكل معلم كفؤ. لذلك، وإلى حين اكتشاف طريقة لتعليم الفضائل، السبيل للتقدم سينحصر في تطوير الذكاء وليس الأخلاق. السذاجة هي إحدى العقبات الرئيسية أمام الذكاء، ونستطيع تقليص السذاجة بشكل كبير بتوجيه الانتباه إلى الأشكال المسيطرة من الكذب. السذاجة شر أكبر اليوم مما كانت سابقاً، لأنه، وبسبب انتشار التعليم، من الأسهل الآن نشر معلومات خاطئة، وبسبب الديمقراطية،

38- المجلة الناطقة باسم الحكومة في فرنسا في الفترة المشار إليها. (م).

39- بالطبع، هنا يسخر راسل من تروتسكي ولينين. (م).

نشر معلومات خاطئة أكثر أهمية لمن هم في السلطة. لذا نشاهد تزايد توزيع الصحف.

إذا سُئلت كيف نستطيع إقناع العالم بتبني هذين المبدأين، أي (1) أن الوظائف يجب أن تعطى بناءً على القدرة على القيام بها، و(2) أن أحد أهداف التعليم يجب أن يكون شفاء الناس من عادة تصديق المقولات التي لا دليل على صحتها، أرى أن ذلك ممكن فقط بتشكيل رأي عام متنوّر. ومن الممكن تشكيل رأي عام متنوّر فقط بمساعي الناس الراغبين بوجوده. لا أعتقد أن التغييرات الاقتصادية التي يدعو إليها الاشتراكيون، بحد ذاتها، ستفعل أي شيء لعلاج الشرور التي عرضناها. أعتقد أنه، بغض النظر عما سيحصل في السياسة، ستزداد صعوبة الحفاظ على الحرية العقلية نتيجة التطور الاقتصادي، إلا إذا أصر الرأي العام على ألا يتحكّم صاحب العمل بحياة العمال إلا فيما يخص العمل. من السهل ضمان الحرية في التعليم، إن كان ذلك مرغوباً، بالحد من دور الدولة في الرقابة والتمويل، واقتصار الرقابة على توجيهات محددة. ولكن هذا، في الوضع الحالي، سيترك التعليم في أيدي الكنائس، لأنها تتحرّق لتدريس معتقداتها أكثر مما يريد المفكرون الأحرار تدريس شكوكهم. ولكن سيكون المجال حرّاً والتعليم الحر ممكناً لو كان ذلك حقاً مرغوباً. لا يجب أن نطلب من القانون أكثر من ذلك.

خلال هذه المحاضرة كان هدفي نشر المزاج العلمي الذي يختلف تماماً عن المعرفة بالنتائج العلمية. يستطيع المزاج العلمي أن يعيد إنتاج البشرية وأن يقدم حلولاً لمعظم مصاعبنا. نتائج العلم، على شكل الميكانيك

والغازات السامة والصحافة الصفراء، قد تؤدي إلى نهاية حضارتنا. إنه لتناقض طريف، سيتأمله أحد سكان المريخ مستمتعاً بتجرد. ولكن بالنسبة إلينا هذا أمر حياة أو موت. يتوقف عليه إن كان أحفادنا سيعيشون في عالم أكثر سعادة، أو سيبيدون بعضهم مستخدمين الطرق العلمية، تاركين للأفارقة ولسكان غينيا الجديدة مستقبل البشرية.

الحرية والجامعات

طبع هذا المقال في أيار 1940، بعد وقتٍ قصيرٍ جداً من إعلان القاضي ماك غيهن أن راسل «غير مناسب» كي يكون بروفيسوراً في جامعة سيتي، نيويورك.

- 1 -

قبل أن نناقش الوضع الحالي للحرية الأكاديمية من المفيد أن نشرح ما الذي نعنيه بهذا المصطلح. جوهر الحرية الأكاديمية أن يتم اختيار المدرسين بناءً على خبرتهم في الموضوع الذي يدرسونه وأن يَحكم على خبرتهم الخبراء الآخرون. الحكم فيها إذا كان المرء رياضياً جيداً أو فيزيائياً أو كيميائياً جيداً، لا يمكن أن يصدر إلا من قبل رياضيين أو فيزيائيين أو كيميائيين آخرين. عن طريقهم يمكن للحكم أن يصدر بدرجةٍ مقبولةٍ من الإجماع.

يرى خصوم الحرية الأكاديمية أن اعتبارات أخرى، إلى جانب مهارات الشخص في اختصاصه، يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. يجب عليه، كما يعتقدون، ألا يحمل أية أفكار تناقض أفكار أولئك الذين يتمتعون بالسلطة. هذه قضية دقيقة، وقد رسمت الدول الشمولية لها حداً واضحاً. لم تتمتع روسيا بالحرية الأكاديمية أبداً إلا خلال الحكم القصير لكيرينسكي، ولكنني أعتقد أن هذه الحرية أقل الآن مما كانت أيام القيصر. في ألمانيا، قبل الحرب، عندما كانوا يعارضون الكثير من أشكال الحرية، اعترفوا بشكل كامل بمبدأ الحرية في التعليم الجامعي. الآن تغير هذا كله، والنتيجة أن أفضل المتعلمين الألمان، مع استثناءات قليلة، يعيشون في المنافي. في إيطاليا، الأكثر تسامحاً إلى حدٍ ما، نجد استبداداً مشابهاً في الجامعات. في الديمقراطيات الغربية بشكل عام الوضع يبعث على الأسى. ولا نستطيع، بكل الأحوال، أن ننكر وجود نزعاتٍ قد تؤدي إلى مساوئ مشابهة.

الخطر هو أحد تلك الأخطار الذي لا تكفي الديمقراطية وحدها كي نتفاداه. الديمقراطية التي تمارس فيها الأغلبية سلطتها دون تقييد قد تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ في طغيانها الدكتاتورية. التسامح مع الأقليات يشكل جزءاً جوهرياً من الديمقراطية الحكيمة، ولكنه الجزء الذي لا يتذكره الناس دوماً بشكلٍ كافٍ.

فيما يتعلق بأساتذة الجامعة، يؤكد البعض أن هذه الاعتبارات يجب أن تُطبّق بشكل خاص عليهم. يُفترض بأساتذة الجامعة أن يتمتعوا بمعرفة خاصة ويتلقوا تدريباً خاصاً بحيث يستطيعون التعامل مع المواضيع

الخلافية بأسلوب مميز يمكّنهم من إلقاء الضوء عليها. أن نأمرهم بالصمت بشأن القضايا الخلافية، يعني أن نحرم المجتمع من الفوائد التي قد يقدمونها نتيجة موضوعيتهم. لقد أدركت الإمبراطورية الصينية، قبل عدة قرون، الحاجة إلى النقد الرسمي ولذلك فقد أسست هيئة الرقباء، التي تتألف من أشخاصٍ مشهورين في سلك التعليم والحكمة، ومنحتها الحق في البحث عن أخطاء الإمبراطور وحكومته. لسوء الحظ، وكما يحصل مع أي شيء آخر في الصين التقليدية، فقد تحولت المؤسسة إلى مجرد عرفٍ آخر. كان هنالك بعض الأشياء المحددة التي سُمح للرقباء بمراقبتها، كالسلطة المفرطة للخصيان، ولكن إذا تطرقوا إلى مواضيع غير تقليدية فالإمبراطور كان ميالاً إلى نسيان حصانتهم. الأمر نفسه يحصل هنا. يسمح بالنقد على نطاقٍ واسع، ولكن عندما يولد الشعور بأن الأمر خطير، فالمؤلف سيتعرض إلى أحد أنواع العقاب.

في هذا البلد[40] تتعرض الحرية الأكاديمية للتهديد من مصدرين: طبقة الأثرياء والكنائس، اللذين يسعيان إلى إقامة نظام رقابي اقتصادي ولاهوتي. يتم الجمع بسهولة بين هذين النظامين عن طريق الاتهام بالشيوعية، تلك التهمة التي توجه باستهتار ضد أي فرد لا تكون آراؤه مقبولة. فمثلاً، لقد لاحظت باهتمام، أنه بالرغم من أنني أنتقد الحكومة السوفيتية بشدة منذ 1920، وعلى الرغم من أنني قد أكدت في السنوات الأخيرة على الرأي القائل بأنها على الأقل بسوء الحكومة النازية، تجاهل نقّادي كل ذلك واقتبسوا، شاعرين بالنصر، جملة أو اثنتين، كنت، في

40- يقصد الولايات المتحدة الأمريكية. (م).

لحظات الأمل، قد رأيت فيها إمكانية تحسن الأمور في النهاية في روسيا.

التكتيكات المتبعة في التعامل مع الأشخاص ذوي الآراء غير المقبولة من قبل مجموعات معينة تتمتع بالسلطة، قد وصلت إلى حد الكمال وتشكل خطراً كبيراً على التقدم المنشود. إذا كان الشخص المقصود ما يزال شاباً ومغموراً نسبياً، فقد يتهمه رؤساؤه الرسميون بعدم الكفاءة، وقد يتم التخلي عنه بصمت. مع الرجال الأكبر سناً والذين يتمتعون بشهرة كافية بحيث لا تنجح معهم هذه الطريقة، يتم تهييج العداء الجماهيري عن طريق التحريف. بشكل طبيعي، معظم الأساتذة لا يريدون أن يعرّضوا أنفسهم لهذه المخاطر ويتجنبون أن يقدموا للرأي العام ما يعارض الآراء التقليدية. هذا الوضع خطير، حيث تُكمّم العقول النزيهة، وحيث تُقنع القوى المحافظة والظلامية نفسها بأنها تستطيع أن تبقى منتصرة.

- 2 -

مبدأ الديمقراطية الليبرالية، الذي ألهم مؤسسي الدستور الأمريكي، يقول أن المواضيع الخلافية يجب أن تقرر بالحوار وليس بالقوة. لقد آمن الليبراليون دائماً أن الآراء يجب أن تتشكل بناءاً على الحوار الحر، وليس بأن يُسمح لطرف واحد فقط بأن يُدلي برأيه. أما الحكومات الاستبدادية، القديمة والحديثة، فقد اتخذت الرأي المعاكس. بالنسبة إليَّ، لا أجد أي سبب كي نتخلى عن التقليد الليبرالي في هذه المسألة. إذا كنت أملك السلطة، فلا يجب أن أمنع الناس من أن تستمع لخصومي. يجب أن أسعى

كي تحصل جميع الآراء على وسائل متساوية وأن أترك النتيجة لما ينتج عن النقاش والحوار. يوجد بين الضحايا الأكاديميين للاضطهاد الألماني في بولندا، على ما أعلم، بعض أبرز المناطقة، الذين يؤمنون بالكاثوليكية التقليدية بشكل كامل. يجب أن أفعل كل ما باستطاعتي لكي يجد أولئك الرجال مواقع أكاديمية، بالرغم من أن إخوتهم في الدين لن يعاملونني بالمثل.

الفارق الرئيس بين النظرة الليبرالية وغير الليبرالية هو أن الليبراليين يعتقدون أن كل الأسئلة مفتوحة للحوار وأن كل الآراء تخضع بأشكال مختلفة للشك، بينما يرى غير الليبراليين بشكل مسبق أن بعض الآراء لا يجب مناقشتها إطلاقاً، وأنه لا يجوز الاستماع إلى أية حجة معارضة لهذه الآراء. الشيء الغريب في هذا الموقف هو الاعتقاد بأن السماح بالبحث الموضوعي سيؤدي ببعض الناس إلى نتائج خاطئة. ولذلك فالجهل هو الحارس الأمين في وجه الأخطاء. لا يستطيع أي إنسان يتمنى للعقل، لا التعصب، أن يحكم الأفعال البشرية، القبول بهذا الموقف.

ظهرت النظرة الليبرالية في إنكلترا وهولندا في نهايات القرن السابع عشر، كرد فعل على الحروب الدينية. استمرت المعارك الطاحنة مع أحقاد عظيمة لمدة 130 سنة بدون أن تؤدي إلى النصر لأي من الأطراف المتصارعة. شعر كل طرف بالثقة المطلقة بأنه على صواب وأن نصره ذو أهمية فائقة للجنس البشري. في النهاية، شعر بعض العقلاء بالقلق من الصراعات غير المحسومة وقرروا أن كلا الطرفين مخطئين في ثقتهم الدوغمائية. جون لوك، الذي عبّر عن هذه الآراء الجديدة في الفلسفة وفي

السياسة، كتب في بداية عصر من التسامح المتنامي. لقد أكد على إمكانية الخطأ في الأحكام البشرية وبشّر بمرحلةٍ من التقدم استمرت حتى 1914. ويعود الفضل للوك ومدرسته في أن الكاثوليك عاشوا بتسامح في البلدان البروتستانية، والبروتستانت في البلدان الكاثوليكية. تعلم الناس دروس التسامح من النزاعات التي كانت سائدة في القرن السابع عشر، ولكن فيما يتعلق بالنزاعات الجديدة التي ظهرت منذ نهاية الحرب العظمى فإن القواعد الحكيمة لفلاسفة الليبرالية قد نسيت. لم نعد نخاف الكويكرز، كما كان الحال مع المسيحيين المخلصين في محاكم تشارلز الثاني، ولكننا نخاف ممن يعالج مشاكلنا المعاصرة بنفس النظرة ونفس المبادئ التي كان الكويكرز في القرن السابع عشر يعالجون بها مشاكلهم. تكتسب الآراء القديمة التي لا نتفق معها نوعاً ما من الاحترام بسبب قدمها، ولكن الآراء الجديدة التي لا نتفق مع أصحابها تصدمنا دوماً.

يوجد رؤيتان ممكنتان لكيفية عمل الديمقراطية. بالنسبة إلى الرأي الأول، يجب أن تسود آراء الأكثرية بشكل مطلق وفي جميع المجالات. بالنسبة إلى الثاني، حينما لا تكون القرارات العامة ضرورية، يجب أن تُستعرض جميع الآراء، بشكل متناسب قدر الإمكان مع ترددها النسبي. النتائج العملية لهاتين الرؤيتين مختلفة تماماً. تبعاً للرأي الأول عندما تقرر الأكثرية شيئاً ما، يجب ألا يسمح للآخرين بالتعبير عن آرائهم، وإذا قاموا بذلك فيجب أن يقتصروا على القنوات المغمورة وغير المؤثرة. تبعاً للرأي الثاني، يجب أن تعطى آراء الأقلية نفس الفرص التي تأخذها آراء الأكثرية من التعبير، ولكن فقط بدرجة أقل.

يتم تطبيق ذلك بشكل خاص على التعليم. يجب ألا يطلب من الرجل أو المرأة اللذين يمارسان التعليم في دولةٍ ما أن يعبّرا عن آراء الأكثرية، بالرغم من أن معظم المدرسين سيقومون بذلك بشكل طبيعي.

يجب ألا نطمح إلى تماثل الآراء التي يعبر عنها المدرسون بل، إن أمكن، يجب تجنب ذلك بما أن تنوع الآراء بين المعلمين شيء جوهري لأي تعليم جيد. لا يمكننا اعتبار الإنسان متعلماً إذا سمع طرفاً واحداً فقط فيما يتعلق بالأسئلة التي ينقسم بشأنها الشعب. أحد أهم الأمور التي يجب تعليمها في المؤسسات التربوية في البلدان الديمقراطية هو القدرة على وزن الحجج المختلفة والانفتاح العقلي المهيأ مسبقاً لقبول أي طرفٍ يظهر بأنه الأكثر معقولية. حين تُفرض الرقابة على الآراء التي قد يعبر عنها الأساتذة، لا يحقق التعليم هذا الهدف ويميل إلى أن ينتج، بدلاً من أمةٍ من البشر، قطيعاً من المتعصبين المتحجرين. منذ نهاية الحرب العظمى، ازدهر التعصب المتحجر حتى أصبح مسيطراً على أجزاء كبيرة من العالم كما كان في زمن الحروب الدينية. كل المعارضين للنقاش الحر والذين يريدون فرض الرقابة على الآراء التي تُعرض للشباب يشاركون في زيادة التعصب التي أنقذنا منها بالتدريج لوك وأتباعه.

يوجد سؤالان لا يتم التمييز بينهما بشكلٍ كافٍ: الأول يتعلق بالشكل الأفضل للحكومة، الثاني ما هي وظائف الحكومة؟ لا يوجد لدي أدنى شك في أن الديمقراطية هي الشكل الأفضل للحكومة، ولكنها قد تخطيء، فيما يتعلق بوظائف الحكومة كأي شكل آخر. في بعض الأمور يكون العمل المشترك ضرورياً، وبالنسبة إلى هذه الأمور، يجب أخذ

القرارات بالأكثرية. ولكن في أمور أخرى لا يكون العمل المشترك ضرورياً ولا مرغوباً. من ضمن هذه الأخيرة مجال التعبير عن الآراء. بما أن هنالك ميلاً طبيعياً عند من يملكون السلطة إلى ممارستها إلى الحد الأقصى، من الضروري كي نتفادى الطغيان وجود مؤسسات ومنظمات تملك، عملياً أو نظرياً، استقلالاً محدداً بدرجة ما عن الدولة. إن حريةً كهذه والتي توجد في البلدان التي استمدت حضارتها من أوروبا يمكن تتبعها تاريخياً إلى الصراع بين الكنيسة والدولة في العصور الوسطى. في الإمبراطورية البيزنطية كانت الكنيسة خاضعة للدولة، وربما يكون هذا هو السبب في الغياب الكامل لأي تقليد حر في روسيا، التي استمدت حضارتها من القسطنطينية. في الغرب، حصلت الكنيسة الكاثوليكية أولاً وبعدها بعض شيع البروتستانتية على حريات معينة من الدولة.

الحرية الأكاديمية، بالتحديد، كانت جزءاً من حرية الكنيسة وتبعاً لذلك فقد تعرضت للقمع في إنكلترا في عصر هنري الثامن. في كل دولة، أكرر، وبغض النظر عن شكل الحكومة القائمة، يتطلب الحفاظ على الحرية وجود جماعات من الناس تملك استقلالاً محدوداً بدرجة ما عن الدولة، ومن الأهمية بمكان أن تكون الجامعات ضمن هذه الجماعات. في أيامنا هذه في أمريكا يوجد حرية أكاديمية أكبر في الجامعات الخاصة من تلك التي تقع بالاسم تحت سلطة الديمقراطية، ويعود ذلك إلى فكرة خاطئة وشائعة جداً عن الوظائف المناسبة للحكومة.

- 3 -

يعتقد دافعو الضرائب أنهم طالما يدفعون رواتب أساتذة الجامعات فإن لهم الحق في أن يقرروا ما الذي يدرّسه أولئك الأساتذة. إذا أخذنا النتائج المنطقية لهذا المبدأ، سنجد أنه سيؤدي إلى إلغاء كل فوائد التعليم العالي الذي يتمتع به أساتذة الجامعات، وأن تعليمهم سيساوي قيمة تعليم من لا يملك أية كفاءة خاصة. «الحماقة، التشبه بالدكاترة، التحكم بالقدرات» كانت أحد الأمور التي جعلت شكسبير يصرخ طلباً للموت المريح. مع ذلك، فإن الديمقراطية، كما يفهمها الكثير من الأمريكيين، تقتضي سيطرة كهذه على كل الجامعات الحكومية. ممارسة السلطة أمر مقبول، وبخاصة عندما يمارسها شخص مغمور على آخر شهير. الجندي الروماني الذي قتل أرخميدس، لو أجبر في شبابه على دراسة الهندسة، لاستمتع بالتأكيد بانفعال خاص لأنه أنهى حياة مجرمٍ مرموق. يستطيع المتعصب الأمريكي الجاهل أن يستمتع بالانفعال ذاته باستخدام سلطته الديمقراطية ضد أشخاص تكون آراؤهم بغيضة لغير المتعلمين.

ربما هنالك خطر خاص في إساءة استعمال السلطة في الديمقراطية، وبما أن الديمقراطيات جمعية فهذا الخطر يتمثّل في إثارة هستيريا الغوغاء. لدى الشخص الذي يملك موهبة إثارة غرائز الغوغاء لصيد الساحرات قوة خاصة فعلاً لإثارة الشر في الديمقراطية حيث أن عادة ممارسة السلطة من قبل الأكثرية أدت إلى الاستبداد الذي ستولده ممارسة السلطة بالتأكيد عاجلاً أم آجلاً. الشيء الرئيس الذي يجب فعله لحماية

الديمقراطية من هذا الاستبداد هو تأمين التعليم الجيد الهادف لمحاربة هذا الميل إلى الهيجان اللاعقلاني الذي تولده الكراهية الجماعية. إن تعليماً كهذا هو ما يتمنى معظم أساتذة الجامعات أن يقدموه، ولكن سادتهم من طبقة الأثرياء والكهنوت يجعلون القيام بتلك المهمة بفعالية صعباً جداً. لأن أولئك الرجال يدينون بسلطتهم للمشاعر اللاعقلانية للجماعة، ويعلمون أنهم سيسقطون لو شاعت سلطة التفكير العقلاني. حيث أن التشابك بين سلطة الغباء من الأسفل وعشق السلطة من الأعلى يشلّ محاولات العقلانيين. فقط بإحراز درجة أعلى من الحرية الأكاديمية مما هو موجود حالياً في المؤسسات التعليمية العامة يستطيع هذا البلد تجنب تلك الشرور.

إن اضطهاد الأنماط غير الشعبية للذكاء خطرٌ عظيم وكان سبباً في بعض الأحيان لانهيار الأمم. المثال المعتاد إسبانيا، حيث أدى طرد اليهود والمسلمين إلى خراب الزراعة وتبني سياساتٍ مالية بلهاء تماماً. هذان الأمران، بالرغم من أن نتائجهما قد غطت عليها في البداية قوة شارل الخامس، كانا السببين الأساسيين لانحدار إسبانيا وتخليها عن مركزها المسيطر في أوروبا. نستطيع الافتراض بأن نفس الأسباب ستؤدي إلى نفس النتائج في ألمانيا، في نهاية الأمر، إن لم يكن في المستقبل القريب. في روسيا، حيث تلك الشرور موجودة لوقتٍ أطول، أصبحت النتائج مرئية بوضوح، حتى في عدم كفاءة الآلة العسكرية.

تشكل روسيا في هذه اللحظة، المثال الأكمل لبلدٍ يملك فيه المتعصبون درجةً عالية من السيطرة، ويحاول أمثالهم في أمريكا الوصول

إليها. اقتبس البروفيسور أ. ف. هل المقطع التالي من الجريدة الفلكية في الاتحاد السوفيتي الصادرة في كانون الأول 1938:

1. إن علم نشأة الكون البرجوازي الحديث يعيش في حالةٍ من التخبط الإيديولوجي العميق الناتج من رفضه قبول المفاهيم الوحيدة الصحيحة للمادية الديالكتيكية، التي تقول بالزمان والمكان اللانهائيين.

2. إن الأعمال العدائية لعملاء الفاشية، الذين يسعون للحصول على المواقع القيادية في دراسات فلكية محددة وفي مؤسسات أخرى، بالإضافة إلى ميدان الصحافة، قد أدت إلى إقامة بروباغندا مقززة معادية للثورة وتابعة للإيديولوجيا البرجوازية في الأبحاث المنشورة.

3. إن الأعمال السوفيتية المادية المعدودة حول مسائل علم الكونيات قد بقيت معزولة ومحظورة من قبل أعداء الشعب، إلى أن نشرت مؤخراً.

4. إن أفضل تعليم تتلقاه دوائر واسعة من المهتمين بالعلوم، يحافظ على الروح اللامبالية تجاه الأوجه الأيديولوجية للنظريات الكوسمولوجية البرجوازية المعاصرة...

5. لقد أصبح ضرورياً، لفضح أعداء الشعب السوفيتي، تطوير كوسمولوجيا سوفيتية مادية جديدة...

6. نرى أنه من الضروري أن يدخل العلم السوفيتي الميدان العلمي

الدولي حاملاً إنجازات صلبة في النظريات الكوسمولوجية على أسس مناهجنا الفلسفية.

استبدل «السوفييتية» بـ «الأمريكية»، واستبدل «الفاشية» بـ «الشيوعية»، واستبدل «المادية الديالكتية» بـ «الحقيقة الكاثوليكية»، وستحصل على وثيقة قد يوقعها معظم أعداء الحرية الأكاديمية في هذا البلد.

- 4 -

لدينا ميزة مشجعة وحيدة في هذا الوضع، وهي أن استبداد الأكثرية في أمريكا، بالرغم من أنه ليس حديثاً، إلا أنه على الأغلب أقل مما كان قبل مئة عام. يستطيع أي إنسان أن يستنتج ذلك من كتاب توكفيل «الديمقراطية في أمريكا». معظم أقواله ما زالت صالحة، ولكن بعض ملاحظاته ليست صحيحة بالتأكيد في أيامنا هذه. أنا لا أستطيع أن أتفق معه مثلاً في قوله «لا يوجد بلد في العالم المتحضر أقل اهتماماً بالفلسفة من الولايات المتحدة». ولكنني أعتقد أن النص التالي، بدرجةٍ أقل مما كان في زمن توكفيل، ما يزال صحيحاً: «تضع الأكثرية في أمريكا الكثير من الحواجز الهائلة على حرية الرأي: ضمن هذه الحواجز يستطيع المؤلف أن يكتب ما يريد، لكنه سيندم إذا تخطاها. لن يتعرض لعذاب النار كما تفعل محاكم التفتيش، ولكن سيعذب بواسطة الإهانات والاضطهادات اليومية. سينتهي مستقبله السياسي إلى الأبد، بما أنه قد أهان السلطة

الوحيدة القادرة على تحقيق نجاحه. أي شكل من أشكال التعويض، حتى الشهرة، لن يحصل عليها. يعتقد المؤلف قبل نشر آرائه أن الكثير من الناس يشاركونه تلك الآراء، ولكن بعد نشرها يستهجن خصومه المتغطرسون تلك الآراء بصوتٍ عالٍ، بينما يتخلى عنه أولئك الذين يشاركونه الرأي ولا يملكون الشجاعة للتصريح به. يستسلم في النهاية، تعباً من المحاولات اليومية التي كان يبذلها، كما لو أنه معذب من تأنيب الضمير لأنه قال الحقيقة».

أعتقد أننا يجب أن نعترف أيضاً بأن توكفيل كان محقاً فيما قاله حول سلطة المجتمع على الفرد في الديمقراطية:

«عندما يقارن المرء القاطن في بلدٍ ديمقراطي نفسه بجميع المحيطين به، يشعر بالفخر لأنه مساوٍ لأيٍّ منهم، ولكنه عندما يفحص زملائه كجماعة، ويضع نفسه بمواجهة كتلة بهذه الضخامة، سيتغلب عليه فوراً الشعور بتفاهته وضعفه. إن الميزة ذاتها التي تجعله مستقلاً عن كلٍّ من زملائه المواطنين، إذا أخذت على حدة، تجعله يتعرض وحيداً ودون حماية لتأثير عددهم الهائل. لذلك يملك الجمهور في الديمقراطيات قوة استثنائية، لا تستطيع الأمم الأرستقراطية تكوين أية فكرة عن مداها حيث أنها لا تقوم على الإقناع فيما يتعلق ببعض الآراء المحددة، بل تفرضها بالقوة، وتجبر كل عقل مفكر على الخضوع للضغط الهائل لمجموع العقول الأخرى».

تردي منزلة الفرد بسبب ضخامة اللوياثان[41]، منذ أيام توكفيل،

41- اللوياثان أحد أنواع التنانين، ويرمز إلى الدولة في الفلسفة السياسية. (م).

قد ازداد بشكل كبير، ليس فقط، في البلدان الديمقراطية، ولا بشكل أساسي في هذه البلدان. إنه تهديد جديّ جداً لعالم الحضارة الغربية وعلى الأرجح، إن لم يقيد، سيؤدي إلى نهاية التقدم العقلي. لأن كل تقدم عقلي جدي يعتمد على نمط معين من الاستقلال اتجاه الآراء الخارجية، والذي لا يمكن أن يوجد عندما نتعامل مع إرادة الأكثرية بهذه الطريقة من الاحترام الديني الذي نراه عند المتدنيين لإرادة الله.

إن احترام إرادة الأكثرية أكثر ضرراً من احترام إرادة الله، لأن إرادة الأكثرية يمكن أن تتحقق. قبل أربعين سنة تقريباً، في مدينة دربين، تحدّت جمعية الأرض المستوية العالم في نقاشٍ عام. لقد قبل التحدي قبطان كانت حجته الوحيدة لإثبات كروية الأرض أنه قام بنفسه بالدوران حولها. بالطبع، لم تقنع هذه الحجة الناس وربح أنصار الأرض المستوية ثلثي الأكثرية. وبذلك فقد أُعلن صوت الشعب، والديمقراطي الحقيقي يجب أن يستنتج أن الأرض مستوية في دربين. أتمنى أن لا يكون قد سمح لأحد، منذ زمن الإعلان فصاعداً، بأن يدرّس في المدارس العامة في دربين (أعتقد أنه لا يوجد جامعة هناك) إلا إذا وقّع على ذلك الإعلان الذي يقول بأن كروية الأرض دوغما للكفار وقد وضعت كي تؤدي إلى الشيوعية وتدمير العائلة. ولكن معلوماتي ناقصة حول ما حصل بعد ذلك في دربين.

الحكمة الجمعية، للأسف، ليست بديلاً كافياً لذكاء الأفراد. أولئك الأفراد الذين عارضوا الآراء المسبقة كانوا مصدر كل تقدم، سواء العقلي، أو الأخلاقي. لقد كانوا غير شعبيين، وهو أمر طبيعي. سقراط،

يسوع، وغاليليو جلبوا على أنفسهم وبشكل متساوٍ لوم المتعصبين. ولكن في الماضي لم تكن آلة القمع بنفس الكفاءة التي هي عليه اليوم، والمهرطق، حتى لو أعدم، فسيحصل على شعبية ملائمة. كان دم الشهداء بذرة بناء الكنيسة، ولكن لم يعد هذا صحيحاً في بلد كألمانيا الحديثة، حيث يستشهد الناس بشكل سري ولا توجد وسائل لنشر تعاليم الشهداء.

إن أعداء الحرية الأكاديمية، إن تابعوا طريقهم، سوف ينحدرون بهذا البلد إلى مستوى ألمانيا فيما يتعلق بنشر التعاليم التي يعارضونها. سوف يستبدلون التفكير الفردي بالطغيان المنظم؛ سوف يحرّمون كل جديد؛ سوف يجعلون المجتمع يتحجر، وفي النهاية سينتجون سلسلة من الأجيال ستعبر من الولادة إلى الموت دون أن تترك أثراً في تاريخ الإنسانية. قد يبدو للبعض أن ما يطالبون به في هذه اللحظة ليس أمراً مميتاً. قد يقال، ما هي أهمية الحرية الأكاديمية في عالم تدمره الحروب، وتعذبه الاضطهادات، ويزخر بمعسكرات الاعتقال لأولئك الذين لا يشاركون في الظلم؟ بالمقارنة مع هذه الأمور، أعترف أن موضوع الحرية الأكاديمية ليس له بذاته الأهمية الأولى. ولكنه يشكل جزءاً أو قطعةً من المعركة نفسها.

دعونا نتذكر أن ما نراهن عليه، في الأمور العظيمة كما في الأمور التي تبدو أصغر، هو حرية روح الفرد الإنساني في أن تعبر عن معتقداتها وآمالها الإنسانية، سواء شاركها في ذلك الكثير من الناس أو قلة منهم أو لا أحد على الإطلاق. إن آمالاً جديدة، وأفكاراً جديدة ضرورية في كل الأوقات للإنسانية، ولا يتوقع أن تظهر من التماثل الميت.

الناس الطيبون

نشر لأول مرة سنة 1931

أريد أن أكتب مقالاً في مدح الناس الطيبين. ولكن قد يرغب القارئ أولاً في أن يعرف من هم الناس الذين أعتبرهم طيبين. قد يكون صعباً أن نصل إلى صفتهم الجوهرية، لذا سوف أبدأ بتعداد أنماطٍ محددة تندرج جميعها تحت ذلك العنوان. العمات العوانس طيبات حتماً، بخاصة، طبعاً، إن كنّ غنيات، كهنة الدين طيبون، باستثناء تلك الحالات النادرة عندما يفرون مع فتاةٍ من الكورس إلى جنوب إفريقيا بعد أن يدّعوا بأنهم انتحروا. في أيامنا هذه نادراً، وآسف لقولي هذا، ما تكون الشابات طيبات. عندما كنت شاباً كانت معظمهن طيبات تماماً، أي أنهنّ كن يشاركن أمهاتهن الرأي، ليس فقط في المواضيع المطروحة، ولكن ما يستحق الملاحظة أكثر، حول الأشخاص، بل حتى حول الشباب، كن يقلن: «أجل، مامي» و«لا، مامي» في اللحظات المناسبة، كن يحببن

آباءهن لأن ذلك كان واجبهن، وأمهاتهن لأنهن كن يحافظن عليهن من أدنى احتمال للخطأ. عندما تتم خطبتهن كي يتزوجن فإنهن يقعن في الحب باعتدال محتشم، عندما يتزوجن، فإنهن يرين أن الواجب يقتضي أن يحببن أزواجهن ولكنهن يجعلن بقية النساء يفهمن أنهن يقمن بهذا الواجب بصعوبة بالغة. كن يتصرفن بطيبة مع حميهنّ، بينما يوضحن أن أي شخص أقل تقيداً بالواجب لن يفعل ذلك، وكنّ لا يتكلمن بسوء عن النساء الأخريات لكنهن يلوين فمهنّ بشكلٍ يظهرن فيه ما قد يقلنه لولا أخلاقهن الملائكية. هذا النمط هو ما ندعوه بالنساء الطاهرات والنبيلات. هذا النمط، للأسف، لا نكاد نجده إلا بين العجائز.

لحسن الحظ ما زال للباقيات منهن قوة عظيمة: إنهم يتحكمون بالتربية، حيث يسعون، ليس دونها نجاحٍ، إلى المحافظة على النموذج الفيكتوري للنفاق، إنهم يتحكمون بالتشريع في الأمور التي تدعى بـ«القضايا الأخلاقية»، وقد خلقوا بهذه الطريقة الصنعة العظيمة للخروج على القانون؛ إنهم يتكفلون بألا يكتب الشباب في الجرائد آراءهم بل آراء العجائز الطيبات، ووسّعوا بذلك الإمكانيات الأسلوبية للشباب والاختلافات في خيالاتهم السيكولوجية. إنهم يحافظون على متع لا تحصى والتي لولاهم لماتت من الإفراط، على سبيل المثال، متعة سماع لغة سيئة على المسرح، أو رؤية مقدار أكبر من الجسد العاري عن المعتاد. فوق كل شيء، إنهم يحافظون على متعة الصيد. في بلدٍ متجانس السكان، كما هو الحال في المقاطعات الانكليزية، يجبر الناس على صيد الثعالب، وهذا أمر مكلف وقد يكون خطيراً. أكثر من ذلك لا يستطيع

الثعلب أن يشرح بوضوح تام مدى كرهه لكونه هدفاً للصيد. تبعاً لكل هذه الاعتبارات فصيد الكائنات البشرية رياضة أفضل، ولكن لو لم يكن الأمر عائداً للناس الطيبين، سيكون صعباً صيد الكائنات البشرية مع الحفاظ على ضمير مرتاح. إن أولئك الذين يدينهم الناس الطيبون يشكلون طرائد مقبولة، عندما يصرخون «هيا» يحتشد الصيادون، ويتم ملاحقة الضحية إلى أن تسجن أو تموت. والرياضة جيدة خصوصاً عندما تكون الضحية امرأة، بما أن ذلك يرضي غيرة النساء وسادية الرجال. أعرف امرأة أجنبية تعيش الآن في إنكلترا، في اتحاد سعيد، بالرغم من أنه ليس شرعياً، مع رجل تحبه ويبادلها المحبة. لسوء الحظ آراؤها السياسية ليست محافظة كما يتمنى البعض، بالرغم من أنها مجرد آراء، ولا تقوم المرأة بأي شي، حيال تلك الآراء. ولكن الناس الطيبين استخدموا هذا العذر كي تتدخل السكوتلانديارد، وترسل المرأة إلى بلدها الأصلي لتعاني جوعاً. في إنكلترا، كما في أمريكا، يملك الأجانب تأثيراً أخلاقياً منحطاً، وجميعنا مدينون للشرطة لأنهم يسهرون على ألا يبقى في بلادنا إلا الأجانب الفاضلون بشكل استثنائي. لا يجب الافتراض أن جميع الناس الطيبين هم من النساء، بالرغم من أنه لأمر شائع أن تكون المرأة طيبة أكثر من الرجل. بغض النظر عن الكهنة، يوجد العديد من الرجال الطيبين. على سبيل المثال: أولئك الذين جمعوا ثروات ضخمة وتقاعدوا الآن كي ينفقوا أموالهم في أعمال البر والإحسان، معظم القضاة أيضاً رجال طيبون بشكل لا مفر منه. ولكننا لا نستطيع القول أن جميع المساندين للقانون والنظام رجال طيبون.

أذكر أنني عندما كنت شاباً سمعت امرأة طيبة تقدم حجة ضد عقوبة الإعدام، تقول إنه لا يكاد يوجد إنسان طيب بين الجلادين. أنا شخصياً لم أعرف أياً من الجلادين لذا لا أستطيع اختبار هذه الحجة تجريبياً. ولكنني أعرف سيدةً، قابلت جلاداً في القطار دون أن تعرف مهنته، وعندما قدمت له دثاراً، لأن الطقس كان بارداً، قال لها «سيدتي، لو كنت تعلمين من أنا لما فعلت هذا»، الأمر الذي ربما يظهر أن ذلك الرجل كان رجلاً طيباً في نهاية الأمر. ولكن هذا لا بد من أن يكون استثناءً. الجلاد في رواية ديكنز «بارنبي رودج»، والذي بالتأكيد لم يكن رجلاً طيباً، هو على الأغلب نموذجي بشكل أكبر.

بكل الأحوال، لا أعتقد أننا يجب أن نوافق على ما قالته المرأة الطيبة التي أشرت إليها سابقاً، أي أن نرفض عقوبة الإعدام فقط لأنه من المستبعد أن يكون الجلاد رجلاً طيباً. كي تكون شخصاً طيباً يجب أن تكون محصناً من الاحتكاك الفظ مع الواقع، ولا نستطيع الاعتقاد بأن أولئك الذين يقومون بالتحصين سيشاركون بالطيبة التي يصونونها. إذا تخيلنا مثلاً أن سفينة تعرضت للغرق وكانت تقل عمالاً ملونين، فإن نساء الدرجة الأولى، اللواتي من المفترض أن يكن جميعاً نساءً طيبات، سيتم إنقاذهن أولاً، وكي يحدث ذلك، يجب أن يقوم بعض الرجال بمنع العمال الملونين من إغراق القوارب، ومن الصعب أن يقوم هؤلاء بمهمتهم بطرقٍ لطيفة. إن النساء اللواتي تم إنقاذهن، حالما يصبحن بأمان، سيشعرن بالأسف على هؤلاء العمال المساكين الذين غرقوا، ولكن لم يكن بالإمكان أن يملكن تلك القلوب الحساسة لو لم يقم رجال قساة بحمايتهم.

بشكل عام، يترك الناس الطيبون أمور الحفاظ على النظام لمن هم أدنى منهم لأنهم يشعرون أن عملاً كهذا لا يستطيع أحد طيبٌ تماماً القيام به. ولكن هنالك قسم واحد لا يرضون أن يفوضوا أحداً عنهم في إدارته وهو: قسم الاغتياب والفضائح. يتم تعيين الناس في سلم الطيبة تبعاً لقوة ألسنتهم. إذا تكلم «س» ضد «ع»، وتكلم «ع» ضد «س»، فعادةً ما يرى المجتمع أن أحدهما يمارس واجبه الاجتماعي، بينما الآخر يدفعه الحقد، والذي يمارس واجبه الاجتماعي هو الأكثر طيبة بينهما. وهكذا مثلاً، مديرة المدرسة أكثر طيبة من المدرّسة، ولكن السيدة في مجلس المدرسة أطيب من كليهما. الثرثرة الموجهة جيداً قد تسبب بسهولة خسارة الضحية لمصدر عيشه أو عيشها؛ وحتى عندما لا نصل إلى هذه النتيجة المتطرفة، فقد يتحول الشخص إلى منبوذ، لذا، فهي قوة عظيمة للخير، ويجب علينا أن نكون شاكرين لأن الناس الطيبين يسيطرون عليها.

الميزة الأساسية للناس الطيبين هي ممارستهم الجديرة بالثناء لتحسين الواقع. لقد خلق الله العالم، لكن الناس الطيبين يشعرون أنه كان بإمكانهم القيام بذلك بشكل أفضل. فمثلاً هنالك الكثير من الأشياء، في العالم الذي خلقه الله، بالرغم من أنه سيعتبر تجديفاً أن نتمنى تغييرها، إلا أنه سيكون من غير الطيب أن نشير إليها. يرى اللاهوتيون أنه لو لم يأكل آباؤنا الأوائل التفاحة لامتلأت حياة البشر بأسلوب بريء من الحياة النباتية، كما يدعوها غيبون[42]. إن الخطة الإلهية بهذا المعنى

42- المقصود الحياة الخالية من أية متع حسية أو عقلية، والتي يرى غيبون أن آباء الكنيسة الأوائل اعتقدوا أن البشر سيعيشون مثل هذه الحياة المرفهة في الجنة، لو لم يأكل آدم التفاحة. (م).

غامضة بالتأكيد. وسيكون أمراً حسناً بالتأكيد أن ننظر إلى تلك الخطة، كما يفعل أولئك اللاهوتيون، في ضوء عقاب الخطيئة الأولى، ولكن المشكلة في وجهة النظر هذه أن الحياة عقاب للناس الطيبين، بينما الآخرون، للأسف، يجدون الحياة ممتعة جداً. لذا يبدو أن العقاب قد أنزل على الجانب الخاطىء. أحد الأهداف الرئيسة للناس الطيبين هو استدراك هذا الظلم غير المقصود بلا شك. إنهم يسعون إلى التأكد من أن النمط البيولوجي القدري للحياة النباتية سيُمارس إما ببرود أو بمكر متملّص، وأن أولئك الذين يتملّصون منه سيكونون، عندما يتم الإيقاع بهم، تحت رحمة الناس الطيبين، بسبب الضرر الذي قد يصيبهم إن قام الناس الطيبون بفضحهم. إنهم يسعون أيضاً للتأكد من أن يُعرف أقل ما يمكن عن هذا الموضوع بطريقة لائقة، إنهم يحاولون أن يجعلوا الرقيب يحظر الكتب والمسرحيات التي تعرض الأمر بشكل لا يرضيهم، وهم ينجحون في ذلك أينما وطالما كانوا يتحكمون بالقانون والشرطة.

لا يعلم أحد لماذا خلق الله الجسم البشري بهذه الطريقة، بما أن المرء يستطيع الافتراض أن الله كان باستطاعته خلقه بطريقة لا تصدم الناس الطيبين. ولكن ربما هناك سبب جيد لذلك. يوجد في إنكلترا، منذ ازدهار صناعة النسيج في لانكشاير، تحالف عميق بين المبشرين وتجار القطن، حيث يعلّم المبشرون المتوحشين أن يغطّوا أجسادهم وبالتالي يزيد الطلب على المنتجات القطنية. لو لم يكن هناك ما يدعو للخجل في الجسم البشري، لخسرت تجارة القطن هذه الأرباح. هذا المثال يوضح أننا يجب ألا نخشى شيئاً إلا عندما يؤدي انتشار الفضيلة إلى تقليص أرباحنا.

أياً يكن الشخص الذي نحت مصطلح «الحقيقة العارية» فهو قد أدرك العلاقة الهامة بينهما. العري يصدم جميع العقلاء، وكذلك الحقيقة. ليس للحقل الذي نهتم به أهمية كبيرة، لأنك ستجد عاجلاً أن الناس الطيبين لن يعترفوا بالحقيقة في ضمائرهم. كلما جعلني سوء الحظ أسمع قضية ما في المحكمة أملك حولها معرفة مباشرة، يصدمني الواقع: لا تستطيع أية حقيقة أن تخترق هذه البوابات المهيبة. الحقيقة التي تدخل المحاكم ليست الحقيقة العارية بل الحقيقة وقد اكتست بلباس المحكمة، وأخفت كل أعضائها غير اللائقة. أنا لا أقول أن ذلك ينطبق على الجرائم الصريحة، كالقتل والسرقة، ولكنه ينطبق على أية جريمة يدخل فيها عنصر الأحكام المسبقة، كالمحاكمات السياسية، أو محاكمات الدعارة. أعتقد أنه فيما يخص هذه الأمور، إنكلترا أسوأ من أمريكا، لأن إنكلترا قد وصلت إلى الكمال في التحكم، اللامرئي تقريباً واللاواعي جزئياً، بكل الأمور المزعجة عن طريق مشاعر الحشمة. إذا أردت أن تشير في المحكمة إلى أية واقعة لا يرى الجمهور أن الإشارة إليها مقبول، ستجد أن ذلك مخالف للقانون، وأنه ليس فقط القاضي ومحامي الخصم، بل محاميك أيضاً لن يقبل بالكلام عنها.

النمط ذاته من اللاواقعية يسيطر على السياسة، بسبب مشاعر الناس الطيبين. إذا حاولت إقناع أي شخص طيب بأن أحد زعماء حزبه ليس إلا إنساناً عادياً لا يختلف عن بقية البشر، سيرفض الاقتراح بسخط. وبالنتيجة سيكون ضرورياً للسياسيين أن يظهروا كمعصومين عن الخطأ. في معظم الأحيان يجتمع السياسيون من كل الأحزاب لأسباب

تكتيكية كي يمنعوا الضرر الذي قد يصيب مهنتهم، لأن الاختلاف بين الأحزاب، التي عادةً ما تفرق السياسيين، أقل أهمية من الحفاظ على سمعة المهنة التي توّحدهم. بهذه الطريقة يحافظ الناس الطيبون على الصورة الخيالية لرجال الأمة العظام، ويجعلون أطفال المدارس يصدقون أنه لا يمكن إحراز المناصب الرفيعة إلا بأسمى الفضائل. وصحيحٌ أيضاً، أنه في بعض الحالات الاستثنائية تصبح السياسة عنيفة فعلاً، وفي كل الأوقات يوجد بعض السياسيين الذين لا يجدهم الناس محترفين كفاية كي ينضموا إلى النقابة المهنية غير الرسمية. بارنل، على سبيل المثال، اتهم في البداية بالتعامل مع مجرمين ولكن لم يتم إثبات التهمة وبعد ذلك أدين بالاعتداء على الأخلاق، بطريقةٍ لم يحلم أيٌّ من أولئك الذين اتهموه بارتكاب مثلها[43]. في أيامنا هذه ليس مقبولاً السلوك الذي يتبعه الشيوعيون في أوروبا والراديكاليون المتطرفون ومحرّضو العمال في أمريكا، لا نجد نسبةً كبيرةً من الناس الطيبين معجبة بهم، وإذا أهانوا الأعراف والتقاليد فلا يجب أن يتوقعوا أية رحمة. بهذه الطريقة ترتبط القناعات الأخلاقية الراسخة للناس الطيبين مع حماية الملكية، وهذا يثبت مرةً أخرى قيمتها الثمينة.

يرتاب الناس الطيبون كما ينبغي تماماً بالمتعة أينما شاهدوها. هم يعلمون أن ما يزيد الحكمة يزيد الحزن، ويستنتجون أن كل ما يزيد الحزن يزيد الحكمة. لذلك فهم يشعرون أنهم عندما ينشرون الحزن

43- يشير راسل إلى السياسي الإيرلندي بارنل (1846-1891) الذي انتهت حياته السياسية بفضيحة خيانة زوجية. (م).

فإنهم ينشرون الحكمة، وبما أن الحكمة أغلى من الياقوت، فشعورهم مبرر بأنهم يسدون خدمةً بأفعالهم. على سبيل المثال، هم يشيدون ملعباً شعبياً للأطفال كي يقنعوا أنفسهم أنهم يفعلون خيراً ثم يفرضون الكثير من القواعد على استخدام الناس للملعب بحيث أن أي طفل سيكون أكثر سعادةً في الشارع. سيفعلون ما في وسعهم كي يغلقوا الملاعب والمسارح... الخ أيام الأحد، لأنه اليوم الذي يستطيع الناس الاستمتاع فيه. تُمنع الشابات العاملات قدر الإمكان في أماكن عملهن من التكلم مع زملائهن الذكور. أطيب الناس الذين عرفتهم يحملون موقفاً عائلياً يرى أنه لا يجب أن يلعب الأولاد إلا ألعاباً تعليمية. إن هذه الدرجة من الطيبة، وآسف لقولي هذا، أصبحت أقل شيوعاً مما كانت، في الأيام الماضية حيث كنا نعلّم الأطفال أن

«ضربةٌ واحدةٌ من عصاه القادرة

تستطيع إرسال الآثمين الشباب بسرعةٍ إلى الجحيم»[44]

وكان مفهوماً أن ذلك مرجح حدوثه إذا انخرط الأطفال بصخبٍ وسهولة في أي نشاط لا يراه القس مناسباً. التربية المستندة على هذه الرؤية شُرحت في كتاب «طفل العائلة الجيد»[45]، وهو عملٌ لا يقدر بثمن لتكوين الناس الطيبين. أعرف بعض الآباء، الذين ما زالوا حتى أيامنا هذه يحاولون أن يحقق أطفالهم هذا المستوى العالي من الطيبة. لقد أصبح شائعاً، وبشكلٍ محزن، أن نتمنى للأطفال أن يستمتعوا بطفولتهم، وإنه

44- مقطع من أغنية دينية تقليدية شعبية في القرن التاسع عشر. (م).

45- كتاب تعليمي تقليدي كان رائجاً في القرن التاسع عشر. (م).

لأمر مخيف أن الذين نربيهم على هذه المبادئ المنحلة لن يُظهروا الرعب المناسب من التمتع بالحياة عندما يكبرون.

أيام الناس الطيبين، كما أخشى، قد شارفت على نهايتها. ينهيها أمران، الأول هو الاعتقاد بأنه لا يوجد أي ضرر في أن تكون سعيداً، إذا لم تؤذ الآخرين؛ الأمر الثاني كراهية الخداع، هذه الكراهية هي جمالية بالضبط كما هي أخلاقية. لقد ساعدت الحرب[46] هاتين الثورتين. عندما كان الناس الطيبون في كل بلد يحكمون بثقة، جعلوا الشباب يذبحون بعضهم البعض باسم أسمى الأخلاق. عندما انتهى كل شيء بدأ الناجون يتساءلون إن كانت الأكاذيب والبؤس التي يلهمها الحقد تشكل أعلى فضيلة. وأخشى أنه سيمر بعض الوقت قبل أن يصبح من الممكن إقناعهم ثانية بقبول هذه التعاليم الأولية لكل الأخلاق السامية بحق.

جوهر الناس الطيبين هو أنهم يكرهون الحياة كما تظهر في النزعات إلى التعاون، في صخب الأطفال، وفوق كل شيء، في الجنس، الموضوع الذي هم به مهووسون. وبكلمة، الناس الطيبون هم من يملكون عقولاً بذيئة.

46- يقصد الحرب العالمية الأولى التي عارضها راسل بشدة. (م).

كيف تصبح عبقرياً؟

نشر هذا النص عام 1932

إن كان بين قرّائي بعض الشباب أو الشابات ممن يريدون أن يصبحوا قادةً للفكر في زمنهم، أتمنى أن يتجنّبوا بعض الأخطاء التي وقعت فيها في شبابي لغياب من يسدي لي النصح. عندما كنت أريد تشكيل رأي حول أمر ما، كنت أدرسه، وأناقش حجج الأطراف المختلفة، وأحاول الوصول إلى نتيجة متوازنة. لقد اكتشفت منذ زمن بعيد أن الأمور لا تجري على هذا المنوال. العبقري يعرف كل شيء دون حاجة إلى الدراسة، آراؤه بابوية وتكمن قدرتها على الإقناع في الأسلوب الأدبي وليس في الحجج. هي بالضرورة أحادية الجانب، لأن ذلك يزيد من الحدّة التي يعتبرها جزءاً من قوة البرهان. من الجوهري أن نناشد العواطف والأحكام المسبقة التي بدأ الناس يخجلون منها باسم أخلاق جديدة. من الجيد أن نشجب العقول الخفيفة والمنشغلة بالتوافه كالمطالبة بالأدلة التي

تصل إلى النتائج. فوق كل شيء، كل ما هو موغل في القدم يجب إعادة تقديمه على أنه الأحدث.

لا يوجد أية جِدّة في وصفة العبقرية هذه؛ لقد عمل بها كارليل[47] أيام أجدادنا، ونيتشه أيام آبائنا، ويعمل بها في وقتنا الحالي د. هـ. لورنس. يرى أتباع لورنس أنه عبّر عن كل أنواع الحكمة الجديدة فيما يخص علاقات الرجال والنساء؛ في الواقع عاد لورنس إلى تأييد سيطرة الذكور على الإناث كما كان الحال مع سكان الكهوف. النساء موجودات، في فلسفته، فقط كأشياء ناعمة وسمينة يرتاح عليها الأبطال عند عودتهم من أعمالهم. لقد تعلمت المجتمعات المتحضّرة أن ترى أكثر من ذلك في النساء؛ لن يجد لورنس شيئاً في الحضارة. لقد نقّب في العالم باحثاً عما هو قديم ومظلم وأحب آثار الوحشية عند الأزتيك في المكسيك. الشباب، الذين كانوا في طور التهذيب، قرؤوا أعماله بمتعة بالطبع وتحولوا لممارسين أخلاق رجل الكهف إلى الدرجة التي يسمح بها المجتمع الراقي.

أحد أهم عناصر النجاح في التحول إلى عبقري هو إتقان فن التشهير. عليك دائماً أن تشهّر بطريقة تجعل القارئ يعتقد أن الآخرين هم المعنيون بالتشهير وليس القارئ نفسه. في هذه الحالة سيُعجب باحتقارك النبيل للآخرين، أما إذا اعتقد أنه المعني بالتشهير، فسيراك قليل الحياء. كتب كارليل: «تعداد السكان في إنكلترا عشرون مليوناً، معظمهم حمقى». كل من قرأ هذه الجملة اعتبر نفسه أحد الاستثناءات، ولذا فهو يستمتع بها. يجب ألا تشهّر بطبقة محددة، كما هو حال البعض ممن يكسبون أكثر من

47- توماس كارليل، كاتب بريطاني اشتهر في القرن التاسع عشر. (م).

مقدار محدد، أو سكان منطقة معينة، أو المؤمنين بمذهب ما، لأنك إن فعلت ذلك، سيفهم بعض القراء أن الذم موجه إليهم. عليك أن تشهّر فقط بأولئك الذين يعانون من ضمور المشاعر، والذين يكتشفون الحقيقة فقط من خلال الدراسة المطوّلة، لأننا جميعاً نعلم أن هؤلاء هم الآخرون، ولذا فعلينا أن نتعاطف مع تشخيصك لشرور العصر.

تجاهل العقل والوقائع، عش بشكل كامل في عالمك الفنتازي الخاص وعواطفك المولّدة للأساطير؛ افعل ذلك من كل قلبك وبقناعة كاملة، وستصبح أحد أنبياء عصرك.

برتراند راسل (1872-1970)

فيلسوف وعالم منطق ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني. يعتبر راسل، مع صديقه جورج إدوارد مور، مؤسس الفلسفة التحليلية التي سادت في العالم الأنكلوساكسوني منذ بداية القرن العشرين. يعتبر كتاب «مبادئ الرياضيات» الذي ألّفه مع الفيلسوف وايتهيد بداية لعلم المنطق الحديث. أثّر راسل في كافة تيارات الفلسفة الأنلكوساكسونية اللاحقة، المتناقضة والمتضاربة بشكل كبير: من الوضعية المنطقية إلى نقادها، ككارل بوبر؛ ومن تيارات العقلانية إلى الفوضوية؛ من تشومسكي إلى كواين.

حاز برتراند راسل على جائزة نوبل في الأدب عام 1950، لتميز نثره الساحر، ولإسهامه في نشر الفلسفة وروح العقلانية والتحرر بأسلوب بسيط واضح أخّاذ.

د. عدي الزعبي

حاز على إجازة في الهندسة الكهربائية من جامعة دمشق (2004)، وإجازة في الفلسفة من الجامعة اللبنانية (2007)، ماجستير في الفلسفة من جامعة أست أنجليا في بريطانيا (2010)، ودكتوراه في فلسفة اللغة من نفس الجامعة (2015).

له مقالات منشورة في الصحف والمواقع العربية، منها القدس العربي ومجموعة الجمهورية.

إصدارات دار ممدوح عدوان

- الأعمال المسرحية الكاملة ممدوح عدوان. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2006).

- الجنوبي. سيرة الشاعر أمل دنقل. تأليف: عبلة الرويني. ط2 (2006).

- هواجس الشعر. دراسة نقدية. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2006).

- أعدائي. رواية. تأليف: ممدوح عدوان. ط3 (2007). ط4 (2015)

- وحيدا كذئب الفرزدق. مختارات شعرية. تأليف: أمجد ناصر. ط1 (2007).

- تهويد المعرفة. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2007). ط2 (2015).

- تفسير الأحلام. قصص قصيرة. تأليف: الفارس الذهبي. ط1 (2007).

- زوربا البرازيلي. رواية. تأليف: جورج آمادو. ترجمة: ممدوح عدوان. ط2 (2007). ط3 (2014).

- تقرير إلى غريكو. سيرة ذاتية. تأليف: نيكوس كازنتزاكيس. ترجمة: ممدوح عدوان. ط2 (2007).

- النقد الذاتي بعد الهزيمة. دراسة. تأليف: صادق جلال العظم. ط3 (2007).

- حيونة الإنسان. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان. ط2 (2007). ط3 (2014).

- جنون آخر. مقالات. تأليف: ممدوح عدوان. ط1(2007). ط2(2015)

- حكاية الشيخ أبي خليل القباني والوالي مدحت باشا العثماني. مسرحية. تأليف: دلع الرحبي. ط1 (2008).

- مولانا. مسرحية. تأليف: الفارس الذهبي. ط1 (2008).

- بنات نعش. رواية. تأليف: لينا هويان الحسن. ط1 (2008).

- أطياف ممدوح عدوان: شهادة الحياة وشهادة الابداع. دراسة. تأليف: أ.د محمد صابر عبيد. ط1 (2008).

- تاريخ التعذيب. دراسة. تأليف: بيرنهاردت ج. هروود. ترجمة: ممدوح عدوان. ط2 (2008).ط3(2015).

- لا غبار عليك. شعر. تأليف: لقمان ديركي. ط1 (2008).

- دفاعاً عن الجنون. مقدمات. تأليف: ممدوح عدوان. ط6(2015).

- الإلياذة. تأليف: هوميروس. ترجمة وتعليق: ممدوح عدوان. ط2 (2009).

- الأعمال الشعرية الكاملة محمد مردان. شعر. تأليف: د. محمد مردان. ط1 (2009).

- سلطانات الرمل. رواية. تأليف: لينا هويان الحسن. ط1 (2009).

- الخارطة الشعرية في الأغنية الرحبانية. تأليف: محمد منصور. ط1 (2009)

- خطفني الديك. حكايات ليست للصغار. تأليف: أمل حويجة. ط1 (2009)

- التفاتة العابر في ظله. شعر. تأليف: محمد أبو لبن. ط1 (2009)

- أدونيس وفاتح. حوار. ط1 (2009).

- الجرذان الغريقة. رواية. تأليف: وائل رداد ط1 (2010).

- المتنبي في ضوء الدراما. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان ط2 (2010).

- النار والأبد. دراسة. تأليف: محمد بن صالح. ط1 (2010)

- امرأة تنظر باتجاه الماء. شعر. تأليف: محمد بن صالح. ط1 (2010)

- البحر والصفصاف. مسرحية. تأليف: محمد بن صالح. ط1 (2010)

- وداد من حلب. رواية. تأليف: قحطان مهنا. ط1 (2010)

- سارة شما. أعمال فنية (2011).

- تجربة الصين الاقتصادية. تأليف: سمير سعيفان. ط1 (2011)

- مسرحيات عربية من الألفية الثالثة. تأليف: مجموعة مؤلفين. ط1 (2011)

- حب. حكايات ليست للصغار. تأليف: أمل حويجة. ط1 (2011)

- هُنا في الحديقة. مسرحية. تأليف: لواء يازجي. ط1 (2012)

- موتى يقلقون المدينة. قصص. تأليف: عمران عز الدين. ط1 (2012)

- سكران المجانين. شعر. تأليف: عدنان عودة. ط1 (2012)

ـ رسالة إلى الجنرال فرانكو. رواية. تأليف: فرناندو أرّابال. ترجمة: عمار أتاسي. ط1 (2013)

- قفزة في الهواء (الديوان الأخير). شعر. تأليف: ممدوح عدوان. ط1 (2014).

- أُنقِذَ. مسرحية. تأليف: إدوارد بوند. ترجمة: لواء يازجي. ط1 (2014).

- الأصبع السادسة. رواية. تأليف: خيري الذهبي. ط2 (2014).

- أنا حوري. شعري محكي. تأليف: عدنان عودة. ط1 (2014)

- سدهارتا. رواية. تأليف: هرمان هيسه. ترجمة: ممدوح عدوان. ط3 (2015)

- قطعة ناقصة من سماء دمشق. نصوص. تأليف: رائد وحش. ط1 (2015).

- أمير الروح والمنارة المفقودة. رواية. تأليف: فريدريك برونيوس، ترجمة: رامي البيروتي. ط1 (2015).

- الليل أفضل أنواع الإنسان. شعر. تأليف: عادل محمود. ط1 (2015).

- الطوق الأحمر. رواية. تأليف: جان كريستوف رافان. ترجمة: ريتا باريش. ط1 (2015).

- موسم سقوط الفراشات. رواية. تأليف: عتاب شبيب. ط1 (2015).

- الزير سالم، البطل بين السيرة والتاريخ والبناء الدرامي. دراسة. تأليف: ممدوح عدوان. ط2 (2015).

- ما الذي أؤمن به، مقالات في الحرية والدين والعقلانية. مقالات. تأليف: برتراند راسل. ترجمة: د. عدي الزعبي. ط1 (2015).

سلسلة ذاكرة المسرح السوري بالتعاون مع احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية 2008

1.	أبو خليل القباني	ناكر الجميل
2.	عبد الوهاب أبو السعود	وامعتصماه
3.	وصفي المالح	طريق النصر
4.	خليل هنداوي	هاروت وماروت
5.	حكمت محسن	صابر أفندي
6.	مراد السباعي	شيطان في البيت
7.	حسيب كيالي	قارعوا الأبواب
8.	سلمان قطاية	القضية والحل
9.	محمد الماغوط	العصفور الأحدب
10.	وليد مدفعي	وبعدين؟!
11.	وليد فاضل	إيفا
12.	وليد إخلاصي	سهرة ديمقراطية على الخشبة
13.	سعد الله ونوس	طقوس الإشارات والتحولات
14.	فرحان بلبل	الممثلون يتراشقون الحجارة
15.	علي عقلة عرسان	رضا قيصر

16. مصطفى الحلاج	الدراويش يبحثون عن الحقيقة
17. عبد الفتاح قلعجي	العرس الحلبي
18. رياض عصمت	لعبة الحب والثورة
19. ممدوح عدوان	ليل العبيد
20. حكيم مرزوقي - عبد المنعم عمايري	حلم ليلة عيد ـ صدى
21. زيناتي قدسية ـ موفق مسعود	مجنون يحكي ـ الرجل الدائري
22. الأب إلياس زحلاوي	المدينة المصلوبة
23. أحمد يوسف داود	الخطا التي تنحدر
24. شوقي بغدادي	تلك الليلة
25. الكتاب الشباب ج 1	
ـ عدنان العودة	خيل تايهة
ـ عمر أبو سعدة	ليلة
ـ محمد أبو لبن	آخر العشاق
ـ يم مشهدي	باريس في الظل
ـ الفارس الذهبي	ريح
26. الكتاب الشباب ج 2	
ـ هوزان عكو	بروانة أو الحرائق
ـ كفاح الخوص	حكاية بلاد ما فيها موت
ـ وائل قدور	الفيروس
ـ ليندا الأحمد	الملحق
ـ يامن محمد	قدم إلى الأمام قدم إلى الوراء

"أنا أدين بساعات من السعادة لا تعدّ ولا تحصى لقراءتي أعمال راسل."
ألبرت أينشتاين

* * *

"السيد راسل هو أحد أفضل الكتّاب الأحياء . ومما يبعث علىالتفاؤل أن نعرف أنه موجود بيننا. طالما أنه وبعض أمثاله أحياء ويعيشون خارج السجن . نعرف أن العالم ما زال عاقلاً في بعض أجزائه. له عقل انتقائي . ويستطيع قول أشياء سطحية وأشياء في منتهى العمق في جمل متتابعة . وأحياناً هو أقل جدية مما يقتضي موضوعه. لكنه يملك ذكاءً مبهراً . نوع من الذكاء الفروسي الذي يختلف عن مجرد الفهم العادي."
جورج أورويل

* * *

"في الحقيقة . الصورة الوحيدة الكبيرة في مكتبي هي لبرتراند راسل .راسل شخصية معقّدة . لكنني بصدق أعتقد أنه شخصية لامعة . أحد ألمع الشخصيات في القرن العشرين. تذكّر أنهم حقروه وشهروا به بشدة لأنه لم يكن من أولئك اللذين يعلقون بين حين وآخر عن العالم . ولكنه كان . وهو في الثمانين . في الشارع متظاهراً .محاولاً مع الناس إيقاف الأعمال الوحشية."
نعوم تشومسكي

الجمهورية
AL-JUMHURIYA
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع